

السنة الأولى (ربيع الأول سنة ١٣٥٣ - يونية سنة ١٩٣٤) العدد الأول

صحيفة دار العلوم

في العلم والأدب والاجتماع

تصدر كل ثلاثة شهور

رئيس التحرير
محمد علي مصطفى

المدير
أبو الفتح الفقى

المراسلات

« تكون المراسلات باسم مهري عمرم أستاذ التربية بدار العلوم »

الاشتراك السنوي

لغير الطلبة ٢٠ قرشاً

للطلبة ١٢

ثمن العدد ٥ قروش

أعضاء لجنة الصحيفة



حضرات الأساتذة

- | | |
|---|----------------------------|
| المدرس بدار العلوم | (١) السباعي السباعي يوسى |
| مدرس بكلية أصول الدين والجامعة المصرية | (٢) حامد عبد القادر |
| المدرس بدار العلوم | (٣) زكى المهندس |
| وكيل كلية اللغة العربية | (٤) صالح هاشم عطيه |
| المدرس بكلية الآداب | (٥) طه أحمد إبراهيم |
| المفتش بوزارة المعارف | (٦) عبد الحميد حسن |
| المدرس بالمدرسة التوفيقية الثانوية | (٧) عبد الرحيم محمود |
| المدرس بدار العلوم | (٨) عبد المغنى المنشاوى |
| المدرس بكلية الحقوق | (٩) عبد الوهاب حمودة |
| المدرس بدار العلوم | (١٠) على عبد الواحد |
| المفتش بوزارة المعارف | (١١) محمد عطية الابراشى |
| المفتش بوزارة المعارف (رئيس التحرير) | (١٢) محمد على مصطفى |
| عضو المكتب الفنى بوزارة المعارف | (١٣) محمد ممدى علام |
| (مساعد التحرير) | |
| المدرس بدار العلوم | (١٤) محمد هاشم عطيه |
| المدرس بكلية اللغة العربية | (١٥) محمود محمد مصطفى |
| رئيس التحرير بمجمع اللغة العربية الملكى | (١٦) مصطفى السقا |

معاونو مساعد التحرير

- | | |
|---|----------------------------------|
| المحرر بالقسم الأدبى بدار الكتب المصرية | (١) ابراهيم الاييارى |
| " " " " " " | (٢) عبد الحفيظ شلبى |
| بوزارة الحربية والبحرية . | (٣) عبد الخالق عبد الحميد عطيه |

جماعة دار العلوم

في السنتين الأوليين من حياتها

بقلم رئيس الجماعة الأستاذ «أبي الفتح الفقى»

تكونت جماعة دار العلوم في يونيه سنة ١٩٣٣ أساسها حب وإخلاص، وعمل دائب، وتضحية بالوقت والمال، وإنكار للذات، وتفانى الفرد في المجموع، واتصاف وتعاقد، وعطف الشيوخ على الشباب، وتقدير الشباب للشيوخ. على هذا الدستور قاقت الجماعة، حتى أصبح شعاراً لكل فرد من أفرادها، بل عقيدة لكل أعضائها، وهذا توفيق من الله، ونعمة تتجلى في أحسن صورها، وأبهى مظاهرها. وهي تبدى عامها الثالث في يونيه سنة ١٩٣٥ وهي تكافح وتجاد، وتناضل وتجاهد، ثابتة القدم، قوية العزيمة، صادقة الإرادة، موحدة الكلمة، حثيئة الخطا إلى تحقيق أغراضها، وأداء رسالتها التي تؤمن بها، وهي خدمة اللغة العربية وآدابها، والتربية والأخلاق، والثقافة العربية.

وسنأتى على ما قامت به فروع الجماعة في عاميها الماضيين المباركين فنقول:

(١) الصحيفة: هي دعامة نهضتنا، ومرآة أعمالنا، ومظهر حياتنا،

وسجل إنتاجنا، وميزان تقديرنا؛ لهذا جعلناها باكورة أعمالنا، فظهر الجزء الأول من سنتها الأولى في يونيه سنة ١٩٣٤، مصدراً بكلمة منا جاء فيها: «وها هي ذى صحيفة دار العلوم تقدمها للقراء واثقين بمعاوتهم لنا على رفعها إلى المستوى اللائق بهم. نخرج هذه الصحيفة وثقتنا بدوام إصدارها تملأ صدورنا، غير مكترئين لما عسى أن يقال عن الاخفاق في الماضى، لأن الاخفاق ليس عاراً، وإنما العار أن نرضى بالاخفاق، ولا نبغى عنه تحولا.

وإن نهوض الجماعات بله الأمم ، أثر لصيحات تنبه الغافلين ، وتوقظ الخاملين ، وصيحتنا اليوم وليدة إرادة قوية ، وعزيمة صادقة على تخليد صحيفتنا ، وقد تحقق - والحمد لله - أملنا ، وصدقت فراستنا ، فلبى نداءنا جميع أبناء دار العلوم . وأقبل كل يساعد بقلبه وقلبه وماله في إخراج الصحيفة ، والعمل على نشرها ، والتدرج بها في مدارج الرقي ، حتى أقبل الزعماء والعظماء وجمهرة المتأدين على قرامتها ، والاشتراك فيها ، كما قررتها وزارة المعارف والأوقاف الملكية ومجالس المديريات في مدارسها ، على اختلاف درجاتها ، وتلك نعمة استقبلناها بالشكر والاعتباط ، ومضاعفة الجهد ، في دقة البحوث ، واختيار أنضر الأزهار وأنضج الثمار ، حتى أصبحت قيمة بالانتساب إلى أبناء دار العلوم ، جديرة بثقافتهم ، على أن عنايتنا بالمظهر العلمي لم تفوت علينا العناية بزيادة حجمها ، حتى أصبح كل جزء منها كتاباً قيماً في مجموعة من العلوم ، بل أصبحت بحق « مجلة الأدب والتربية والأخلاق والاجتماع » ، كما هو شعارها .

وقد بلغ عدد صفحات الجزء الأخير من السنة الأولى خمسين ومائتي صفحة على أن الجزء الأول لم يزد على أربع وثلاثين ومئة صفحة ، وفي طيات هذا التقدم ما يعجزنا عن إيفاء لجنة الصحيفة حقها من الثناء والتقدير .

(ب) النار : إنشاء النادي فكرة تملكك النفوس الحساسة من أبناء دار العلوم ، وشغلت أفكارهم عامة ، وشبابهم خاصة ، والشباب في كل أمة وطائفة مصدر النهضة ، وقوام الجماعات ، ومثير العزائم ، وموقف الهمم ، وباعث الإرادات ، وقد زاد في الاغرام بإنشاء النادي ، والحماسة في إحيائه ، ذكريات ناديتهم الأول ، تلك الذكريات التي كانت تثيرها المناسبات ، وتبعثها التطورات الاجتماعية ، وما تبعها من بحوث لغوية وأدبية وعلمية كشفت عن آثار ناديتهم القديم ، الذي أسس سنة ١٩٠٧

وكان مصدر الحركة العلمية اللغوية الحديثة ، تلك الحركة التي اشترك فيها مع فطاحل أبناء الدار أعلام اللغة والأدب في ذلك الوقت ، وعلى رأسهم المرحوم « فتحي زغلول باشا » للبحث في حال اللغة العربية ، ووضع منهاج تسير على وفقه في التعريب والترجمة . وقد أسفرت تلك البحوث عن وضع قواعد دلت على حصافة أبناء الدار ، وتملكهم ناصية اللغة والأدب ، ولا أدل على ذلك من أن مجمع اللغة العربية الملكي لم يحد عنها في قراراته التي قرر السير عليها في التعريب ، بعد أن مضى على قرارات النادي ما يقرب من جيل ، وهاك نصوص القرارات .

قرار نادي دار العلوم

في الساعة العاشرة من مساء الخميس العشرين من فبراير سنة ١٩٠٨ بعد سماع ماقاله الخطباء في موضوع تسمية المسميات الحديثة ، قرر نادي دار العلوم أن يكون العمل على النحو الآتي :

يبحث في اللغة العربية عن أسماء للمسميات الحديثة ، بأية طريقة من الطرق الجائزة في اللغة ، فاذا تعذر ذلك بعد البحث الشديد ، يستعار اللفظ الأجنبي بعد صقله ووضع على مناهج العربية ، ويستعمل في اللغة الفصحى بعد أن يعتمد المجمع اللغوي الذي يؤلف لهذا الغرض .
وهذا القرار يشمل قرارى التعريب والمولد من قرارات المجمع وهما :

قرار المجمع اللغوي في المعرب

« يجيز المجمع أن يستعمل بعض الألفاظ لأعجمية - عند الضرورة - على طريقة العرب في تعريبهم . »

أَبُو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي

هل ادعى النبوة حقاً ؟

الأستاذ علي النجدي ناصف

مفتش المعارف بلوى

٢

قصصنا عليك في الشطر الأول من هذا البحث قصة تنبؤ المتنبي كما رواها الرواة ، وألمنا إلمامة يسيرة بالبيئة التي ظهرت فيها دعوته ، وبالقبائل التي ناصرتة وقالت دونه . ونريد الآن أن نستوفي القول في هذا الموضوع ، ونمضي في البحث إلى نهايته .

معجزات المتنبي : — زعموا أنه كان للمتنبي وسائل وحيل مستغربة ، استطاع أن يوه بها على الناس ، وأن يردم بها عن دينهم . ففنها ترويض ناقة صعبة لبعض بني عدى ، مضى إليها وهي رائحة في الابل ، فما زال بها حتى وثب على ظهرها ، ففترت ساعة ، ثم سكن نفارها ، ومشت مشى المسمحة . ومنها إبراء كاتب جريح من كتبة ديوان الالاذقية ، انقلبت على يده سكين الأقلام ؛ ففرحتها جرحاً مفطحاً ، فقتل أبو الطيب على الجرح ، ثم شد عليه ، وقال للكاتب لا تحله في يومك . وعدله أياماً وليالي ، فقبل منه ، وبرى الجرح . ومنها أنه كان يسير بالليل مع صاحب له ، فلقهما كلب ألح عليهما في النباح ، فقال أبو الطيب لصاحبه ، وهو عائد : إنك ستجد ذلك الكلب قد مات ، فألقى الرجل الأمر على ما ذكر (١) . ومنها أنه كان يدعى أن الله أنزل عليه غيراً من السماء ، عدتها أربع عشرة ومئة عبرة . نزلت كلها جملة واحدة . ومن هذه العبر : والنجم السيار ،

والفلك الدوار ، والليل والنهار ، إن الكافر لني أخطار . امض على سننك . واقف أثر من كان قبلك من المرسلين ؛ فإن الله قامع بك زيغ من ألد في الدين ، وضل عن السبيل (١) .

وهناك وسائل أخرى ذكرها الرواة ، ونضرب نحن عن ذكرها صفحا ؛ لأن في هذه غناء عنها ، ودلالة عليها ؛ فهي كلها تجمعها جامعة واحدة من هوان الشأن ، والجرى على سنن الطبيعة حتى ما تكاد ترى في وقوعها شذوذا أو غرابة ، ولا تجدد في تعليلها والقدرة على مثلها تكلفا أو عنتا . وماذا في ترويض الناقة الصعبة من الامتناع أو الغرابة عند عرب البادية ، والإبل بينهم فاشية ، ولها فيهم نفار كثير ، ولفتيانهم على سياستها والاحتيا لها قدرة ومرونة ، وأين المعجزة في حادث الجرح المار ذكره ؟ إن كانت في برئه من غير علاج فرب جراح بالغة ، وأدواء فاتكة يرى أصحابها بغير مداواة ألبتة ، أو مع مداواة ضارة خاطئة ، هي أجلب للخطر من الترك والإهمال . وإن كانت في برء الجرح لموافاة الأجل الذي سماه فإن للمصادفة في جميع شئون الحياة غرائب وأعاجيب ، لا يعد هذا إلى جانبها شيئا مذكورا . وقد يكون المتنبي قدّر للجرح في نفسه ميعادا يظن أنه يبرأ فيه ، ثم يبعد مداه ، وزاد عليه ، احتياطا للأمر ، وحرصا على أن يقع البرء قبل حلول الموعد ؛ فكان ما أراد . وما نزال نرى للدجاجلة والمشعوذين في هذا الباب نوادر غريبة ، ومع ذلك لا نرى الجهال والأغرار ينزلون أصحابها منازل الأنبياء ، فكيف بالناس في مدينة كاللاذقية ، وفي عصر كعصر المتنبي ، ازدهرت فيه العلوم ، واستبحرت الفلسفة ، وتمردت العقول على الإيمان بالغيب ، حتى كثرت الملاحدة والمترندقون ؟

أما حادث الكلب فلا يمتنع — فيما يقول المعري — أن يكون المتنبي أعدله شيئا من المطاعم مسموما ، وألقاه ، وهو يخفى عن صاحبه ما فعل (٢) ولا يبعد

(١) الصبح المنبي : ١ : ٢٧ ، ٣١

(٢) رسالة الغفران : ٢ : ٢٩

أن يكون الأمر شبه على الرجل ، وأن الكلب الذى رآه ميتا غير الكلب الذى نبجها فى الطريق . وأما القرآن الذى يروون أنه ادعى نزوله عليه فهو — كما رأيت — هراء من القول المسجوع ، ليس له روعة ، ولا فيه قوة ، إذا صح أن قرآنه كله كان فى درجة التوذج الذى مر بك آنفا . ومن عجب أن يقتصر الرواة على روايته ، كأن ليس له غيره ، أو كأنهم آثروه بالرواية لمزية فيه استأثروا بعلمها ، وضنوا بخبرها على الناس . ومهما يكن الأمر فمثل هذا الكلام لا يمكن أن يخلب أحدا ، أو يحوله عن دينه ، وإن كان رقيق الايمان ، قليل البضاعة من اللغة ، فكيف بقائل عربية مسلمة يستطيع أقل صعلوك فيها — كما يقول أستاذنا الاسكندرى — أن يرتجل خيرا منه ؟ ^(١) إذ كانت اللغة لا تزال صحيحة فى البادية لعصر المتنبي ^(٢) .

ربما قيل : إن حوادث من هذا القبيل وقعت بين العرب فى مستهل الاسلام ، افقد تنبأ منهم كثيرون ، وكانت لهم أسجاع غثة يخرقون بها ، ويدعون أنها تنزل عليهم من السماء ، ويندر فى العرب من لا يستطيع أن يأتى بمثلها ، ومع ذلك استجابت لهم قبائل شتى آمنوا بهم ، ونصروهم فى الدفاع عن دعوتهم ، فعظم أمرهم ، حتى خيف على الاسلام أن يقضى عليه فى مهده .

والواقع أن الأمرين يختلفان ، وأن الفارق بينهما جد كبير ، فالذين ارتدوا عن دينهم فى مستهل الاسلام أمشاج من أعراب البادية الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، فلم يكن للدين عليهم سلطان قوى ، ولا لتعاليمه فى نفوسهم تأثير كبير . وما كان أكثر هؤلاء لعصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وما جاء بعده إلى أمد غير قريب . روى صاحب الكشف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين لقي بنى المصطلق على المريسيع (وهو ماء لهم) ، وهزمهم وقتل منهم ، ازدحم على الماء جهجاه بن سعيد ، أجير لعمر يقود فرسه ، وسنان الجهنى ، حليف لعبد الله بن أبى ، واقتتلا . فصرخ جهجاه : يا للمهاجرين ! ، وسنان : يا للأنصار !

(١) تاريخ أداب اللغة العربية فى العصر العباسى ٢٧٧

(٢) وفات الاعيان : ١ : ٦٣٥ ، ومعجم الأدياب : ٥ : ٢٨

فأعان جهجاها جعال ، من فقراء المهاجرين ، ولطم سنانا . فقال عبد الله لجعال : وأنت هناك ؟ وقال : والله ما صحبنا محمدا إلا لنلطم ، والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال : سمن كلبك يا كلك (١)

وروى الطبري : أن رجلا جاء اليمامة ، فقال : أين مسيلة ؟ فقالوا : مه ، رسول الله . فقال : لا ، حتى أراه . فلما جاءه قال : أنت مسيلة ؟ قال : نعم . قال : من يأتيك ؟ قال : رحمان . قال : أفى نورأم فى ظلمة ؟ فقال : فى ظلمة . فقال : أشهد أنك كذاب ، وأن محمدا صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر ، فقتل معه يوم عقرباء (٢) . وكان بين أسد وغطفان وطىء حلف فى الجاهلية ، ثم انتقض قبل البعثة . فلما مات الرسول صلى الله عليه وسلم قام عيينة بن حصن فى غطفان فقال : ما أعرف حدود غطفان منذ انتقطع ما بيننا وبين بنى أسد ، وإنى لمجدد الحلف الذى كان بيننا فى القديم ، ومتابع طليحة . والله لأن نتبع نبينا من الحليفين أحب إلينا من أن نتبع نبيا من قريش ، وقد مات محمد ، وبقي طليحة ، فطابقوه على رأيه ، ففعل وفعلوا (٣) . ونزل عمرو بن العاص مُنْصَرَفَةً من عمان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقرّة بن هبيرة . . . فذبح له ، وأكرم مشواه ، فلما أراد الرحلة خلا به قرّة ، فقال : يا هذا ، إن العرب لا تطيب لكم أنفسا بالامارة فان أعفيتموها من أخذ أموالها فتسمع لكم ، وتطيع ، وإن أبيتكم فلا أرى أن تجتمع عليكم . . . (٤)

ولقد كان مرض الرسول ، ثم انتقاله الى الرفيق الأعلى آخر الأمر من الحوادث التى لا يمكن أن تقع دون أن تثير نزعات الجاهلية على أشدها وضوحا وعنفا ، فلذلك تنبأ من تنبأ ، وارتد من ارتد ، لا لأن المتنبئين يدعون إلى خير من الاسلام ولا لأن المعجزات التى ظهرت على أيديهم أعظم من معجزات محمد ، وأدل منها على صدق النبوة وتأيد الله ، ولكنهم ارتدوا عصية للقبيل ، أو نفورا من أداء

(١) الكشف : ٣ : ١٨٩ (٢) تاريخ الطبري : ٣ : ٢٤٦ (٣) المصدر نفسه :

٢٣٠ (٤) المصدر نفسه : ٢٣١

الزكاة ، أو نفاسة علي قريش أن يكون منها نبي الاسلام ؛ فتكون لها الزعامة والرياسة على العرب ، وعلى سائر المسلمين .

أما القبائل التي خرج فيها المتنبي فقد أسلمت ، وطال عليها الأمد في الاسلام ، فألفت تكاليفه وأحكامه ومرنت على ممارستها ، واطمأننت إلى الأخذ بها ، وتحملت على التدريج من نزعات الجاهلية البغيضة ؛ مطاوعة لسلطان الدين ، أو نزولاً على حكم العصر الذي كانت تعيش فيه : فلا تعصب ، ولا حمية ، ولا إباء من نوع ما كان في الجاهلية الأولى ، فلا تشابه إذا بين هؤلاء وأولئك ، ولا بين الردة في في مستهل الاسلام ، والردة التي قيل إنها وقعت صدر القرن الرابع بفعل المتنبي وتأثير دعوته ، ولا يستدل بحدوث الأولى على امكان وقوع الأخيرة .

وما نريد بذلك أن ننكر خروج المتنبي ببادية السماوة جملة ، ولكننا نريد أن نقول : إن خروجه لم يكن لنبوة ادعاها ودعا الناس إلى الايمان بها ، يؤيد ذلك أن كثيراً من الرواة يعزون إلى أبي الطيب إنه وهو في بادية السماوة ادعى الانتساب إلى علي وابنه الحسن ، رضى الله عنهما . ولا يعقل أن ينتسب إلى نبي الاسلام ، ثم يخرج عليه ، ويدعو إلى نبذ دينه (١) . ولقد نستطيع أن نفهم أن رعونته الصبار بما طوعت لأبي الطيب اعتساف هذه الضلالة . ولكننا لا نستطيع أن نفهم أن القبائل التي أجابت دعوته ، والتفت حوله تكون من الغرارة والغفلة بهذا الدرك الأسفل . ثم إن بعض الرواة يلتمسون لتسميته بالمتنبي أسباباً غير ادعاء النبوة ، والخروج من أجلها ، كما سيأتي قريباً . وليس في شعر الشاعر أثر يدل على أنه كان يضمّر التنبؤ أو يفكر فيه ، مع أن كثيراً منه يدل دلالة صريحة على أنه كان يطمع في الملك ، ويمنى نفسه بولايته . وسيأتي تفصيل ذلك بعد قليل .

دواعي الثورة ووسائلها : — نريد أن نعرف لم كانت ثورة المتنبي إذا ؟

وما الوسائل التي استطاع بها أن يؤلب العرب من كلب وغيرهم ؟
الذي أعتقد أنه هذه الثورة إنما كانت في سبيل الرياسة والملك ليس غير ، يدل على صحة ذلك الدلائل الآتية :

(١) رواية الثعالبي فيما تقدم : أنه دعا إلى بيعته قوما فبايعوه ، وهموا بالخروج معه على السلطان .

(٢) - وقول المعري في رسالة الغفران : وكان قد طمع في شيء قد طمع فيه من هو دونه ، وإنما هي مقادير يظفر بها من وفق . . . وقد دلت أشياء في ديوانه أنه كان متألها . فمن ذلك قوله :

ولا قابلا إلا لخالقه حكما

وقوله :

ما أقدر الله أن يحزى بريته ولا يصدق قوم في الذي زعموا^(١)

(٣) وأن طبيعة العصر الذي كان المتنبي يعيش فيه تدفع إلى التذمر والسخط ، وتهيج طمع ذوى المطامع . وتخريبهم بادراكها ، فالهوة بين الطبقات واسعة ، والتقاطع مستحكم ، والتفاوت في الحقوق والواجبات على أشده : للطبقة العليا المغانم كلها تستأثر بها ، وعلى الشعب المغارم كلها ، يؤديها وهو صاغر مقهور . ولم يكن كسب السيادة دائما بحسن السابقة ، أو التبريز في ناحية من نواحي الحياة ، ولا التجرد منها يرجع إلى الغجز أو القصور ، ولكنها الأوضاع المعكوسة . والفساد المتغلغل أكثر ما تساعد على رفع الوضع ، واتضاع الرفيع . ذلك إلى تأثير الولايات والنواحي بدداً بين المتغلبين وأصحاب المطامع من كل جنس ، ومن كل طبقة ، يتداولون السلطان فيها دراكا . وما منهم إلا طامع يضمر الاغارة على مجاوريه ، وخائف يحذر أن تنتزع غنيمة من يده . فمن ذا الذي يعيش في هذا العصر ، ويصيده فيه مثل ما أصاب المتنبي من الفقر ، وتكون له مثل مواهبه العالية ، ونفسه الطموح ، ووجدانه الحساس ، ثم لا ينزع إلى مثل مانزع إليه من الولاية والسلطان ؟

وقد تحدث المتنبي في بعض قصائد الصبا عن آماله الكبيرة ، وهمته العالية ، وعزمه الصارمة ، ثم عطف على أهل السيادة من أبناء عصره كالمعذر اليهم ، فذكر

(١) رسالة الغفران : ٢ : ٢٥ ، وصدر البيت الأول

تغرب لامستظما غير نفسه ولا قابلا الا لخالقه حكما

أنه كان يريد أن يأخذ نفسه بالمغالطة في حقيقة أمرهم ، ويحملها على مكروها .
 باجلاهم ، والاعتراف لهم بالجاء والسلطان ، فراح يتكلف مدحهم ، ويخلع
 المحاسن عليهم ، ولكنهم لم يبادلوه الرغبة فيما أراد لهم ، وأبوا ألا أن يظهر وأعلى
 حقيقتهم جهالا بخلاء ، لا يقدرّون شعره ، ولا يحسنون الثواب عليه ، فلم يكن
 بد من أن يزجى إليهم قصائد أخرى ينظمها من عتاد الحرب ، وإناث الخيل ،
 فهي أليق بهم ، وأجدر أن تنزلهم المنازل التي تصلح لهم ويصلحون لها . قال :

ليس التعلل بالآمال من أربي ولا القناعة بالاقلال من شيمي
 وما أظن بنات الدهر تتركني حتى تسد عليها طرقها هممي
 لم الليالي التي أخت على جدتي برقة الحال ، واعذرنى . ولا تلم
 أرى أناسا ، ومحصولي على غنم وذكر جود ، ومحصولي على الكلم
 وربّ مال فقيرا من مروتة لم يُثر منها كما أثرى من العدم
 سيصحب النصل مني مثل مضرته وينجلي خبري عن صيمة الضمم
 لقد تصبرت حتى لات مصطبر فالآن أقحم حتى لات مقتحم
 لا تركن وجوه الخيل ساهمة والحرب أقوم من ساق على قدم
 ثم قال :

أيملك الملك والأسياف ظامئة والطير جائعة لحم على وضم ؟
 من لور آنى ماء مات من ظما ولو مثلت له في النوم لم ينم
 وقال من قصيدة أخرى :

لله حال أرجيها وتخلفني وأقتضى كونها دهري وتمطلني
 مدحت قوما ، وإن عشنا نظمت لهم قصائدا من إناث الخيل والحُصن
 تحت العجاج قوافيها مضمرة إذا تنوشدن لم يدخلن في أذن
 فلا أحارب مدفوعا على جدر ولا أصالح مغرورا على دخن

(٤) وكثرة ماورد في شعر أبي الطيب من ذكر الملك والطموح إليه ، وترصد
 الفرصة للخروج في طلبه : تجد هذه الظواهر واضحة بينة في شعره من لدن صباه
 إلى قبيل موته ، لكنها تتمثل في صور شتى تختلف باختلاف مراحل العمر ،

واضطراب الأحوال به . فهي في صباه سخط على الملوك ، واحتقار لشأنهم ، وتبرم بكبرياتهم وتعاليتهم ، وضيق بالحجاب والبوايين يرصدونهم لمنع الناس من الدخول عليهم وعشيان مجالسهم ، ثم تهديد بالثورة والاستظهار بالشجعان وأبطال الحروب لتقتيلهم والإدالة منهم .

قال وقد لامة لأمي يسمى المجيمري على ترك لقاء الملوك في صباه :

أبا سعيّد جنب العتابا فرب رائى خطاء صوابا
فإنهم أكثروا الحجابا واستوقفوا لردنا البوابا
وإن حد الصارم القرضابا والذابلات السمر والعرايا
ترفع فيما بيننا الحجابا

وقال :

ولا تحسبن المجد زقا وقينة فما المجد إلا السيف ، والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر المعجز
وتركك في الدنيا دويا كأنما تداول سمع المرء أئمله العشر

ثم قال :

على لأهل الجور كل طميرة عليها غلام ملء حيزومه غمير
يدير بأطراف البنان عليهم كثوس المنايا حيث لا تشهى الخمر
ومما يستوقف النظر أن هذه الظواهر لا وجود لها ألبتة فيما قاله من الشعر في بدر بن عمار ، وأبي العشائر بن حمدان . ولعل أبا الطيب أغفل هنا ذكر الملك عن عميد ؛ فراق من غضب هذين الممدوحين ، أو تغيرهما عليه ، فكلاهما من ذوى الولاية والسلطان ، كأنه توهم أن الحديث معهما عن الطمع في الملك على أية صورة وبأى أسلوب قد يحفظهما عليه ، فتفوته الرغائب التي يفيدها من مدايحهما فيهما ، ويعود إلى مقاساة الضر والحاجة .

ولما أن اتصل بسيف الدولة ، وآنس منه الحرص عليه والايثار له على سائر من يحضرته من الشعراء ، وسمع صدى صوته تتجاوب به الآفاق — لم يجد ما يخشاه من إعلان مطامعه ومعاودة التغنى بها في شعره ، ففعل ولكن في قلة وإيجاز

وغموض ، حتى ليكاد الانسان يحسب شعره في ذلك ضربا من الحماسة الحكيمة ،
أو الفخر الصناعي ينظمه الشعر للمباهاة بالقدرة على الاقتنان ، والتصرف في شتى
الأغراض والفنون ، لولا ما تقدم منه وما تأخر ، مما لا يدع مجالا للشك في إدراك
حقيقة ما يسر من الآمال . وكل ما قاله في هذا الباب مدة اتصاله بسيف الدولة هو :
فإن تكن الدولات قسما فانها لمن ورد الموت الزوام تدول
لمن هوت الدنيا على النفس ساعة وللبيض في هام الكمة صليل
وقوله :

إنما أنفس الأنيس سباع يتفارسن جهرة واغتيالاً
من أطلق التماس شيء غلابا واغتصابا لم يلتمسه سؤالا
كل غاد لحاجة يتمنى أن يكون الغضنفر الرثبلا

وقوله - وهو أصرح من سابقه ، وأدل منهما على حقيقة ما يضمّر - :
أهم بشيء والليالي كأنها تطاردني عن كونه وأطارد
وحيد من الخلان في كل بلدة إذا عظم المطلوب قل المساعد

ولما تحول الى مصر ، ورأى في كافور تهافتا شديداً على مدائح ، قويت آماله
في الملك ، وعاد نزوعه إليه حادا غلابا ، كأنما كان يرى أن رجلا مثل كافور يجمع
بين سوء المنبت وفقدان الوارث حقيق أن يكون حرصه على المدائح الباقية تخلد
ذكره ، وتشر مفاخره ، وتطوى نقائصه وعيوبه ، أشد من حرصه على جزء
يقطع من مملكته اقتطاعا ، فضلا عن أن يعهد به إلى رجل يتولاه من قبله ،
ويقوم على حكمه باسمه . وقوى عنده هذا الرأي فيما يظهر أن كافورا وعده أن
سيلمته جميع ما في نفسه . فراح يستكثر في مدحه من ذكر الولاية والإلحاح
في طلبها حتى ما تكاد تخلو من ذلك قصيدة من مدائح فيه . غير أن موقفه من
أول الأمر كان موقف خداع وتوريط ، إذ كان يوهم صاحبه أنه أجلهمة من أن
يتعاضمه تملك العافي الذليل . وأصدق تجربة من أن تفتته الدنيا فيتكالب عليها ،

ويضن بها . قال في أول مدائحہ فیہ :

إذا كسب الناس المعالي بالندى فانك تعطى في نذاك المعاليا
وغير كثير أن يزورك راجل فيرجع ملكا للعراقين واليا
فقد تهب الجيش الذي جاء غازياً لسائلك الفرد الذي جاء عافياً

وقال في ثانية مدائحہ أيضاً :

قالوا هجرت إليه الغيث ؟ قلت لهم : إلى غيوث يديه والشايب
إلى الذي تهب الدولات راحته ولا يمن على آثار موهوب
ثم صار بعد إلى موقف الموعود المترقب : يدأب في استنجاز الوعد ، ويفتن
في ابتداع الأساليب الشعرية لإدراكه ، فهو حيناً طالب عمل يرشح نفسه لولايته
ويدعى اللياقة به والكفاية للاضطلاع بأعبائه ، وربما وقع في نفسه حقا أو
توهماً أن صاحبه في شك مما يدعيه ، فيبادر إليه في ثبات الواثق المطمئن ، يسأله
أن يجربه في الحكم ، ليعلم علم اليقين مبلغ الصدق في دعواه قال :

ولقد أفنت المفاوز خيلي قبل أن نلتقي وزادى ومائى
فأرم بي ما أردت منى فاني أسد القلب ، آدمى الرواء
وفؤادى من الملوك وإن كا ن لسانى يرى من الشعراء

وقال :

فإن نلت ما أملت منك فرما شربت بماء يعجز الطير ورده
ووعدك فعل قبل وعد لأنه نظير فعال الصادق الوعد وعده
فكن في اصطناعي محسناً كمجرب بين لك تقرب الجواد وشده
إذا كنت في شك من السيف قابله فأما تنفيه ، وإما تعده
وما الصارم الهندى إلا كغيره إذا لم يفارقه النجاد وغمده

إلى أن قال :

وما رغبتى في عسجد أستفيده ولكنها في مفخر أستجده
وهو حيناً سائل متملق ، يلتمس الولاية تصريحاً أو تعريضاً ، ويستعين

على التأثير في الرجل بفنون رائعة من الخلابة وحسن التمثيل قال :

أبا المسك هل في الكأس فضل أناله؟ فإني أغنى منذ حين وتشرب
وهبت على مقدار كفى زماننا ونفسي على مقدار كفيك تطلب
إذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية فجودك يكسوني وشغلك يسلب
يضاحك في ذا العيد كل حبيبه حذائي، وأبكي من أحب وأندب
أحن إلى أهلي وأهوى لقاءهم وأين من المشتاق عنقاء مغرب
فان لم يكن إلا أبو المسك أوهم فأنك أحلى في فؤادي وأعذب

وقال :

أرى لي بقربي منك عينا قريرة وإن كان قربا بالبعد يشاب
وهل نافعني أن ترفع الحجب بيننا ودون الذي أملت منك حجاب ؟
أقل سلامي حباً ماخف عنكم وأسكت كيما لا يكون جواب
وفي النفس حاجات ، وفيك فطانة سكوتي بيان عندها وخطاب
وما أنا بالبانغي على الحب رشوة ضعيف هوى يُبغى عليه ثواب
وما شئت إلا أن أدل عواذلي على أن رأي في هواك صواب
وأعلم قوما خالفوني فشقوا وغربت - أني قد ظفرت وخابوا

فتزوجه إلى الملك في مصر كان سليبا برغم شدته ، ولكن الرجل بعد أن أخفق مسعاه ، وخرج من مصر هاربا لا يطمع إلا في السلامة والعافية ، عاد نزوجه إليه كما كان في صباه ثوريا هائجا ، يمازجه ندم وحسرة ، وتذكيه إرادة وعزم ، فهو نادم يتحسر على تفريطه وخطئه ، إذ تصور أن آماله على ضخامتها يمكن أن تنال بالقول وحده . وهو عازم يتحفز للعمل ، معلنا أن ستكون الكلمة العليا في هذه المحاولة للسيف ، قال :

مازلت أضحك إبلى كلما نظرت إلى من اختضبت أخفافها بدم
أسيرها بين أصنام أشاهدها ولا أشاهد فيها عفة الصنم
حتى رجعت وأقلامي قوائلي : المجد لل سيف ، ليس المجد للقم
اكتب بنا أبدا بعد الكتاب به فإنما نحن للأسف كالحدم

أسمعتني ودوائى ما أشرت به فإن غفلت فدأتى قلة الفهم
 من اقتضى بسوى الهندى حاجته أجب كل سؤال عن هل بلم
 توهم القوم أن العجز قر بنا وفى التقرب ما يدعو إلى التهم
 ولم تزل قلة الانصاف قاطعة بين الرجال، ولو كانوا ذوى رحم
 فلا زيارة إلا أن تزورهم أيد نشأن مع المصقولة الخُذُم
 من كل قاضية بالموت شفرته ما بين منتقم منه ومنتقم
 صفا قوائمها عنهم فما وقعت مواقع اللؤم فى الأيدى ولا اللزم
 وبقي سائر حياته لا يكف عن ذكر الملك، ولا يرى أنه يمكن إدراكه بغير
 الحروب. ولكنه كان فى هذه الفترة كما كان عند سيف الدولة غامضا ملتوى
 القصد، لا يكشف عن دخيلة نفسه فى صورة واضحة بينة. قال فى مدح دليز بن
 لشكروز سنة ٥٣٥٣:

ذرينى أنل ما لا ينال من العلا فصعب العلا فى الصعب، والسهل فى السهل
 تريدن لقيان المعالى رخيصة ولا بد دون الشهد من إبر النحل
 حذرت علينا الموت والخليل تلتقى ولم تعلنى عن أى عاقبة تجلى
 وقال يمدح ابن العميد سنة ٥٣٥٤، وهى السنة التى قتل فيها:

صغت السوار لأى كف بشرت بابن العميد، وأى عبد كبرا
 إن لم تغتنى خيله وسلاحه فتى أقود إلى الأعادى عسكرا؟
 وبعد، فيخيل إلى أنك قد اطمأنت معى إلى أن المتنبى لم يكن صاحب نبوة
 يدعيها، ويركب الخطر من جرائها، ولكن طالب ولاية يريد أن يتبناك فى دستها
 وأن يرضى كبريائه بما فيها من العزة والآبهة والسلطان.

أما السبيل التى سلكها لاهاجة العرب فى بادية السهولة فسيل الثوار من أمثال
 المختار الثقفى، وزعيم القرامطة، وصاحب الزنج، وغيرهم ممن اتخذوا الانتساب
 إلى العلويين أو الدعوة باسمهم سبيلا للتسلط على الناس وتسخيرهم لأدراك مطامعهم.
 وقد مهد المتنبى لذلك فيما نرجح بانكار نسبه، والمراوغة فى الإجابة كلما سئل

عنه . لئلا يجبهه مكذب أو منكر إذا حان وقت الجهر بالإنتساب إلى العلويين (١) إلا أن أولئك الأدعياء الذين حاكمهم المتنبي جعلوا ميادين دعوتهم في البلاد الشرقية حيث نبت التشيع وترعرع ، وحيث كانت سلطة الحكام لعهد بعضهم واهنة غير مرهوبة . لذلك عظم أمرهم ، واشتدت سطوتهم ، حتى أزعجوا الخلافة ، ونالوا من بأسها . وشغلوا خواطر أولى الحل والعقد وقتا ليس بالقصير . أما المتنبي فقد شاء حظه العائر أن يكون مستقر دعوته بادية السماوة حيث تخوم الشام قائمة . والإخشيدية مطلة ، والشام لا يعينها التشيع ، ولا يثير من حماسة أهلها مثل ما يثير من أهل العراق . والإخشيدية يومئذ في ريع فتوتها ونشاطها ، لذلك سرعان ما قبض عليه ، وحمل إلى سجنه أخذاً مخذولا .

سبب تقييد المتنبي — والآن نريد أن نعرف لماذا لقب أبو الطيب بالمتنبي إذا لم يكن ادعى النبوة ، ولم تكن ثورته لتأيسد دعواه والتفكين لها ؟ فإن رشيقي يروى أنه سمي بالمتنبي ، لفطنته وصحة ذهنه (٢) ولا ندري كيف اشتهر أبو الطيب وحده بهذا اللقب لزكائه . والأذكاء غيره كثير ، وفيهم من هو أشد منه توقد قريحة ، وأبعد في عالم الذكاء مدى شهرة . والمعري يقول في رسالة الغفران : وحدث أنه كان إذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال هو من النبوة ، أي المرتفع من الأرض (٣) غير أننا لم نعر في كتب اللغة التي بين أيدينا على المتنبي من النبوة بالمعنى المذكور وإذا لانستطيع أن نفهم كيف يمكن أن يكون المتنبي هنا معناه المرتفع أو المتعالى ، وليس معناه مدعى النبوة . وابن جنى ينقل عن أبي الطيب أنه قال : إنما لقبني بالمتنبي لقولي :

(١) كان المتنبي يكتنن بنسبه ، وكان إذا سئل عنه يعتذر بقوله : أنا رجل أخطب القبائل ، وأطوى البوادي وحدي . ومتى انتسبت لم آمن أن يأخذني بعض العرب بطائفة بينها وبين القبيلة التي أنتسب إليها . ومادمت غير منتسب إلى أحد فأنا أسلم على جميعهم ، ويخافون لساني . تاريخ بغداد : ٤ : ١٠٣

(٢) العمدة : ١ : ٤٥

(٣) رسالة الغفران : ٢ : ٢٥

أنا ترب الندى ورب القوافى وسيمام العدى وغيظ الحسود
أنا فى أمة تداركها الله غريب، كصالح فى ثمود^(١)
ونحن لا تنسرك أن الانسان قد يغلب عليه اسم من الأسماء حتى ما يكاد يعبر
بغيره، ولا يدعى إلا به، لمجرد كلمة يقولها أو يقال عنه. نرى ذلك فى عصرنا وفى
سائر العصور والأجيال. فعبد الله بن مصعب الملقب بعائد الكلب إنما لقب
بذلك لقوله :

مالى مرضت فلم يعدنى عائد؟ منكم، ويمرض كلبكم فأعود
وشاس بن نهار المعروف بالمزق، إنما سمي بذلك لقوله يخاطب عمرو
ابن هند :

فإن كنت مأكولاً فكأن أنت آكلى وإلا فادركنى ولما أمزق^(٢)
وسلم بن عمرو بن حماد الملقب بالخاسر، لقب بذلك لأن أباه خلف له مالا
فأنفقه على الأدب؛ فقال بعض أهله : إنك لخاسر الصفقة^(٣). وجعفر بن أبي طالب
لقب بذي الجناحين، لأنه قاتل يوم مؤتة حتى قطعت يداه، فقال النبي صلى الله
عليه وسلم : إن الله قد بدله بيديه جناحين يطير بهما فى الجنة حيث يشاء^(٤). وغير
ذلك كثير. ولكن غلبة الأسماء على أصحابها من طريق الكلمات - يقولونها، أو
تقال عنهم - إنما تكون عادة إذا صاحب القول قرينة مسوغة؛ تساعد على
إلصاق تلك الأسماء بأصحابها، وتنبه الأذهان لحفظها وتذكرها : كأن يتضمن
القول لطيفة مستمالة، أو نبوة غريبة، وكأن تلابسه حادثة معينة، أو تكون
ثمة علاقة بين الاسم ومسماه، أو نحو ذلك.

فاذا صحت رواية ابن جنى الماضية، فإذا عسى أن تكون القرينة التى ساعدت
على إلصاق لقب المتنبي بأبي الطيب، وهيات للناس قبوله واصطناعه؟ لا يبعد أن

(١) أبو الطيب المتنبي وأخباره : ٩

(٢) العمدة لابن رشيق : ١ : ٢٣

(٣) معجم الادباء : ٤ : ٢٤٧

(٤) القاموس المحيط (مادة جنح).

تكون هذه القرينة هي اشتها الشاعر بعلو الهمة والطموح إلى العظام : فكان الناس — وقد آنسوا منه ذلك — لا يستكثرون أن يستشرف مقام النبوة ، ويتعاطى الجرأة على ادعائها .

ومهما يكن الأمر ، فإن رواية ابن جني توافق روايتي المعري وابن رشيق السابقتين في أن ليست ثورة أبي الطيب هي سبب تلقيه بالمتنبي ، ثم تفرد بأنها قد تكون دليلاً على أن هذا اللقب أطلق عليه قبل ثورته ، ذلك لأن البيت الذي روى ابن جني أنه سبب تسميته بالمتنبي من قصيدة نظمها في صباه ، وجرى فيها على عادته في هذا الطور : من تحقير أصحاب السلطان ، والجهر بمقتهم ، والتأهب للثورة عليهم والانتقام منهم . وهاك ما يقول في ذلك :

أين فضلي إذا قنعت من الدهر بعيش معجل التنكيد ؟
ضاق صدري ، وطال في طلب الرزق قيامي ، وقل عنه قعودي .
أبدأ أقطع البلاد ، ونجمي في نحوس ، وهمتي في سعود
فلعل مؤمل بعض ما أبلى بالطف من عزيز حميد
لسري لباسه خشن القطن ، ومرؤى مرؤ ليس القرو
عش عزيزاً أومت وأنت كريم بين طعن القنا ، وخقق البنود
فروس الرماح أذهب للغياظ ، وأشقى لغل صدر الحقود
لا كما قد حيت غير حميد وإذا مت مت غير فقيد

وهذا — كما ترى — كلام يغلب على الظن ألا يصدر مثله عن رجل سجن ، ونال منه السجن حتى أشرف على التلف ، ولم يخل سبيله حتى استعطف وأتاب ، بل تضرع واستخذى ، وحتى شفيع فيه الشافعون .

وما يدرينا لعل هذا اللقب من صنع أعوان السلاطان أنفسهم ؟ وضعوه ، وتولوا نشره حين خرجوا لقتاله ، لينفروا الناس منه ، ويحرضوه عليه . وما كان للجمهور أن يلاقى هذه الدعوى بغير الإصغاء والقبول ، لأن العصر عصر فتن وهذاهب ، تروج فيه مثل هذه الأراجيف من تلقاء نفسها ، فكيف إذا ادعها أصحاب السلطان ، ثم تلقفها عنهم من بعد أعداء حاقدون ؟

وبعد فقد كان أبو الطيب يكره أن يدعى بهذا اللقب ، ويعد الذين يدعون به أعداء حاسدين ، يكيّدون له ، ويعملون على الغض منه . قال له ابن خالويه النحوي يوما في مجلس سيف الدولة : لولا أن أخى جاهل لما رضى أن يدعى بالمتنبى ، لأن معنى المتنبى كاذب . ومن رضى أن يدعى بالكذب فهو جاهل . فقال : لست أَرْضَى أن أدعى بذلك ، وإنما يدعونى به من يريد الغض منى ، ولست أقدر على المنع (١) .

ولا ندرى أكان أبو الطيب يكره هذه التسمية لأنها - كما يقول ابن خالويه - تنطوى على معنى الكذب والادعاء ؟ أم لأنها ألصقت به ظلما واقتاتا ، ولا يأمن أن تخفى الحقيقة على الناس ، فيتصوروا المسألة كما لا يجب أن يتصوروها ؟ أم أنه كره هذه التسمية للأميرين جميعا ؟

على النجوى ناصف

— ٦ —

قال صاحب بن عباد : جئت من دار السلطان ضجرا من أمر عرض لى ؛ فقال لى رجل : من أين أقبلت ؟ فقلت من لعنة الله ، فقال : رد الله غربتك .

— ٧ —

سئل بهلول عن رجل مات وخلف ابنا وبناتا وزوجة ولم يترك شيئا ؛ فقال : للابن اليتيم ، وللبنات الثلث ، وللزوجة خراب البيت ، وما بقى فللعصبة .

غلطة شاعر ١

الاستاذ محمود عبده الحماصي

المدرس بالمدارس الملكية للبنات بنى سويف

لابنة عجلان بالجوّ رسوم لم يتعفين والعهد قديم
 لابنة عجلان إذ نحن معاً وأى حال من الدهر تدوم
 أضحت قفاراً وقد كان بها في سالف الدهر أرباب الهجوم
 بادوا وقد أصبحت من بعدهم أحسب أنى خالد لا أريم
 يرى المطلع في كتاب المفصاياب للضي قصيدة من وائع قصائده الغزلية
 للمرّفش الأصغر، وهو من بنى معد بن مالك كما قرر صاحب اللسان، وعم
 ابن العبد. وقد كان شاعراً مقللاً مجيداً. وقصيدته هذه أحكم نسجها، وجمع فيها
 من معاني الشعر ما يهيج الوجدان، ويستبكي العاشقين، ويأخذ إلى ندب الراحلين
 وذكر الغابرين، والحزين إلى من أحب، وكيف هاجت آثار نفسه، ووصف فيها
 ليلة من لياليه المسهرة حتى إنه ليحقق لنا أن نسميها الليلة المرقشية، تشبهاً بأختها
 النابغية. ثم تراه قد تجرد لردع نفسه، والاستقصار على خياله وهمومه، ومال إلى
 لوم العاتيين، وعزل اللاتمين.

كل ذلك في أسلوب رائع، ونظم أخذ بمجامع القلوب، ثم ختم قصيدته
 بطائفة من الحسك البواق ذوات الأثر البليغ والنظم البديع، ولكن هذه القصيدة
 على ما حوت من بلاغة وروعة، وما لها من قيمة أدبية بين غرر القصائد، وملح
 الشعراء لم تخل من نقص يعيبها، ويحط من درجة الإعجاب بها.

ذلك أن البيت الرابع (كما تراه) ليس من بحر القصيدة، إذ هي من مجزوء
 البسيط المذال، والبيت الرابع مخالف للقصيدة في نظمها، وكثر من روعتها،

ولو بدلنا بأصبحتُ أصبحتُ بقاء التأنيث الساكنة ، وجعلنا مكان أحسبُ تحسبُ وأبدلنا كلمة خالد بياقٍ وحركت ياء أتي لاستقام الشطر واسلم البيت ولم يختل المعنى ولكان البيت :

بادوا وقد أصبحتُ من بعدهم تحسب أتي باق لا أريم
ولكن يحول بيننا وبين هذا التبديل ، ورود البيت من الشاعر الجاهلي هكذا ! وليس لنا أن نقف موقف المغير والمبدل إلا إذا اعتمدنا على أصل صحيح .
لهذا أكتفي بترك البيت على علاقته لذلك الشاعر القديم ، وحسبي أن نهت على غلطته ، وأشارت إلى خطأته ليدري وجه صوابها . وهذا ما تراءى لي في مثل هذا المقام .

— ٨ —

قال رجل لغلامه : يا فاجر ؛ فقال الغلام : مولى القوم منهم .

— ٩ —

مر بهلول بسوق البزازين فرأى قوما مجتمعين على باب دكان ، وكان قد نقب ؛ فنظر فيه وقال : أما يعلمون من عمل هذا ؟ قالوا لا ؛ قال : فأنا أعلم ؛ فقالوا : هذا مجنون يراهم بالليل ولا يتحاشونه ، فالطفوا به لعله يخبركم ؛ فقالوا خبرنا ، قال أنا جائع ، فجاءوه بطعام شهى وحلوى ؛ فلما شبع قام فنظر في النقب وقال : هذا عمل اللصوص .

ذكرى شاعر البادية الشيخ محمد عبد المطلب

(١)

لمؤستاذ عبسى محمود ناصر

الدرس بمدرسة القيوم الابتدائية

لَوَيْتُ زمام النفس عن سَنَنِ الهوى وخليت أتراب الهوى حيث عرجوا
ورحت إلى ما يبتنى المجد للفتى وأدلت في ركب العلا يوم أدلجوا
وما المجد إلا حيث حلت رباعنا له في نواحيها ظلال وسجسج
إذا اجذبت أحساب قوم سما بنا على الناس جياش الغوارب مرتج
لنا الباذخات الشم تعلو قلالها على كل ما شاد الأنام وبرجوا
سلوا الدهر عنا في القديم فانما بأسلافنا يذكو قديما ويأرج
لهم في نواحي كل جبل مناقب تحدد إذا أهل المناقب أنهجوا
إذا عرض الدنيا بني مجد معشر زهاهم من الدنيا رؤاء وبهرج
فشادوا على زيف المظاهر قوة يصول بها سيف من الغي أهوج
رفعنا منار الحق في مدينة سنا الحق من آفاقها يتبلج
لها فلق من جانب الشرق واضح على الغرب يعلو نوره المتوهج
حياة ورثناها بيانا مفصلا بها يفاق الذكر الحكيم ويفلج
بهذه الآيات أيها القارئ الكريم ترى نزعة الشاعر البدوي المرحوم الشيخ
محمد عبد المطلب . وتبين مذهبه في الشعر ورأيه في المدنية والحضارة . واعتزازه
بمجد العرب وقومه . وبالحنيفية السمحة . فهو شاعر متين اللفظ . رصين الأسلوب .
ينزع إلى شعراء القرنين الثالث والرابع الهجريين . وهو لا يرى معالم تلك الحضارة
وذلك الرقي . وخوافق هذه المدنية إلا زيفا من المظاهر . التي يسرك رداؤها .
ويسوءك ابتلاؤها . وقد حمتها قوة يصول بها سيف من الغي أهوج . فليس بغريب
أن نرى فيه ذلك الصِّراع الذي شاهدناه في أيام حياته بين الجديد والقديم . إذ

كان - رحمه الله - خير مثال للمدرسة القديمة ، التي تشيد بذكر العرب ، وتمتدح
 مجد الاسلام ، وتهيب بالناس أن يرجعوا إلى تاريخ أسلافهم ، فيأخذوا منه كل تمتع
 وجميل . وإذا تتبعنا أسباب هذه النزعة في نفسية شاعرنا أنها ترجع إلى تربيته
 الأولى ، وبيئته الدينية ، وحمايته لذمار قومه . واعتزازه بمجد عروبه ، ولأنه
 سليل أولئك العرب الأجداد ، فهو ذلك الشاعر المجيد ، ذو الاحساس الرقيق ،
 والنفس الآلية ، والحمة الاسلامية ، ينتمى إلى أسرة عربية ، وعشيرة من عشائر
 جهينة ، إحدى بطون قضاة كما أن والده كان رجلاً صالحاً متفقهاً متصوفاً ،
 وديوانه المطبوع يحدثنا عن تلك النزعات ، وهذه البواعث والمؤثرات ، التي أثرت
 في نفس هذا الشاعر الكبير ، الذي ملأ فاه إعجاباً بقومه وعشيرته ، وإذا تصفحته
 لا نعدم نغماً بنفسه ، جاء على أسلة لسانه ، فسطره بنانه ، فهو دائم الحنين إلى
 العيس والظباء ، وإلى يثرب وقياء ، والجزع وسَلْع والنقي ، ومنعرج اللوى ،
 والأبرق والعقيق ، على غير ما ينزع إليه غيره من الشعراء المحدثين : من ترك
 بكاء الأطلال ، والرسوم البوالى ، ومن جيد قوله يحكى عن نفسه في بعض قصائده -
 وقد بعثها لصديق له عام ١٩٠١ م - :

إلى جهينة ينمى فرعه نسب	له على المجد إشراف وإطلال
إذا تفرقت الأنساب فهو إلى	صمم يعرب صعاد ونزال
وإن تقطعت الأرحام كان له	في أهل يثرب أعمام وأخوال
إذا تسامت بأقوام مناقبهم	سما بنا المتلدان العم والخال
من معشر في صروح العز قد نزلوا	مذ الزمان وفي هام العلا قالوا
حيث الأنام طغام والدنا همج	والماجدون على الأيام أنذال
كم أركبوا من كمى في المخار له	من العزيمة بتار وعسال
تمشى به المقربات الجرد معجبة	تحت الكريم كرام الخيل تحتال
ولى همامة نفس بالعلا كلفت	قدما وقلب بأهل الفضل محلال

وكثيراً ما يتحدث إليك عن مجده وعشيرته في أى غرض من أغراض القول
 متى سنحت له فرصة الكلام كقوله :

وأنا ابن الصيد من أنكرني ينكر الليث إذا ما انتسبا
من أيين كرام ضربوا فوق هامات المعالي قيا
وكفاني من نخاري نسبة جمعت في طرفها الغربا

على أن أوصافه الجسمية ، وقسمات وجهه ، وشم عرينه ، وصحل صوته مع
تفخم ألفاظه ، وقوى إنشاده ، كل أولئك يدلنا على أنه وارث مجد العرب ،
وأنة الفحل المكرم ، والعذيق المرجب ، وقد قال محدثاً عن نفسه من قصيدة بعث
بها إلى صاحب الفضيلة العالم الجليل الشيخ عبد الرحمن قراعة :

ولى خلق أندى من الروض في الضحى رقيق به أسبى الحسان العقائلا
ومن كان مثلي في ذرا الأدب اعتلى يعاف الدنيا شيمة والرذائلا
ومن قبل آبائي على النجم خيموا فشادوا حصوناً فوقه ومعاقلا
ورثت أبا بكر فخاراً وعزة ومن بعده أورثت في المجد واصلا
بهاليل في عليا جهينة أصدوا على خير ما يحذو الأخير الأوائلا
فذرني أسر حيث المكارم واحدى على نغمت المجد إن كنت فاعلا
وواصل هذا هو جد الفقيد . وسبب نزوح عشائر جهينة التي منها فقيدنا ، أنها
جاءت مصر زمن الفتح مددا للفتاحين ، وبعضها بعيد الفتح حينما أجلي أمير المؤمنين
عمر بن الخطاب ثلث قضاة من الشام إلى مصر ، فنزلوا الصعيد الأوسط
« الأشمونين » مجاورين بطونا من قريش ، معتدين عليها ، فلما جاءت الدولة
الفاطمية ظهرت عساكرها قريشا عليهم ، وأجلوهم إلى الصعيد الأعلى بجهة
سوهاي « سوهاج » وإخميم ، ثم أنف كثير منهم المقام بالصعيد ، وأصدوا إلى
النوبة وبلاد البجة ، فساكنوهم وصاهروهم . وما زالوا يصعدون في السودان
كلما نما عددهم ، حتى بلغوا بحر الغزال ووداى غربا ، وتخوم الحبشة شرقا ، وحتى
ليصح القائل أن يقول : إن جمهرة عرب السودان من قبيلة جهينة ... اهـ . من
كلام الأستاذ الكبير الشيخ أحمد الأسكندري .

ومراحل هذا الشاعر يمكن أن تقسم ثلاثا . المرحلة الأولى : مرحلة التعليم
والطفولة . والمرحلة الثانية : مرحلة التدريس ، واشتغاله بالشعر وصوغ القريض ،
وفيهما ذكره وسماشأنه . وارتفع نجمه ، وتمت صداقته لحضرة صاحب الفضيلة

الشيخ عبد الرحمن قراعة ، فاكسب كسراً من معارفه وأدبه وطيب أخلاقه ،
وخاض غمار السياسة ، ورأى مدها وجزرها فأبلى بلاء حسناً بلسانه وقلبه .
والمرحلة الثالثة : إحالته على المعاش ، ولكنها لم تطل :

أما المرحلة الأولى : فلقد كان - رحمه الله - يقص علينا شيئاً من حوادثه فيها ،
فلقد أخبر أنه حفظ القرآن الكريم دون أن يبلغ العاشرة من عمره ، ثم أرسل
إلى الأزهر الشريف حيث نزل في بيت الشيخ إسماعيل أنى ضيف شيخ الطريقة
الخلوتية ، فأكرم نزله لما رآه فيه من النجابة والذكاء . لبث في الأزهر سبع سنين
دأباً ثم انتظم في سلك طلبة دار العلوم ، وكان مغرمًا بقراءة كتب الأدب حريصاً
على حفظ ما تيسر له من جيد المنظوم وبليغ المشور ، وقد كان ذا حافظة قوية ،
فتوافر على شعر الأقدمين يؤثره ويحافظ عليه ويدعو ما استطاع إليه ، فأثر ذلك
في شعره فباراهم في منازعهم وأكث من الغريب في قوله . وكثرت فيه المعاني البدوية
كما سنرى ذلك . وقد كان يملئ علينا شعره المملوء بالغريب والحوشى ، وغرضه من
ذلك إحياء ما اندثر وإنقاذ ما التفته أمواج المحيط ، ينسج على منوال المرحوم
الشيخ حمزة فتح الله . ولا يؤثر عنه في هذه المرحلة إلا شعر قليل . ولعل ديوانه لم
يحفل بذلك ، لأنه لم يدون هذا الشعر ، غير أنه ذكر في هذا الديوان أن أول
شعر أنشده في الجمهور قصيدته البائية في رثاء المرحوم على باشا مبارك مؤسس
دار العلوم ، وكان ذلك عام ١٨٩٢ ، وكان الفقيه بالفرقة الأولى من المدرسة ،
ويغلب على الظن أن عمره لم يتجاوز العقد الثاني ، وأولها :

إلام بنا أبدي النوائب تلعب وحتام في أهوالها تنقلب
تجرعنا الأحزان مر مذاقها وليس لنا من دون ذلك مهرب
كان لم يكن للنائبات وقد نوت بنا العدر إلا ذروة المجد مرقب

ولعمري إن هذه القصيدة على طولها تدل على علو كعب في الأدب ، وهي
عنوان لصاحبها ، وهو بعد قتي صديق الشباب ، وليس غرض هذه القصيدة بالمركب
السهل الذلول فهي لا تخلو من فيلسوف كبير يطل على هام الأيام فيرى ما فيها
من شهد وصاب ، فيطاوعه لسانه ببعض الحكم والمواعظ . وأغلب الظن أن له

شعرا كثيرا في هذه المرحلة قد ضاع وليس في ديوانه شيء منه .
وأما المرحلة الثانية - فتبتدى . باشتغاله بالتدريس بين اسوان وسوهاج ومدارس
الأوقاف الملكية والقضاء الشرعى ثم دار العلوم ، وهذه المرحلة أخضب حياته
الشعرية ، فلقد حكى عن نفسه ، رحمه الله ، أن قريحته ورى زندها في اسوان لما
تمتع به في مشتاتها الجليل من جو سحسج عليل ، وسماء جلتها الشمس عرائس
ذات بهجة تنعكس على صفحة النيل ، ثم بعده عن وطنه « باصوته » إحدى قرى
إقليم جرجا ، وما يبعثه في النفس الشاعرة من حنين وحب وهيام . ثم لا تنس
أيها القارىء الكريم صداقته للأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحمن قراة الأديب
المتفقه التى انعقدت من عام ١٨٩٧ وهو شاعر أديب وعالم كبير ، فكان ذلك قادحا
لزناد فكره ، باعثا على نمو قريحته ، إذ وجدت فيه أدبا جما وعلما غزيرا وفضلا
ونبلا ، والشعراء يتبارون في القول إذا وجدوا الميدان واسعا وفيه تظهر المنافسة
والاجادة ، ولعلك تعلم مبلغ تأثير شيخ الشعراء اسماعيل باشا صبرى في تهذيب
الشعر وصقله إذ كانت داره نادى الأدباء والشعراء ، وكان ذا أذن موسيقية نحس
نبو الوتر . فلا غرو بعد هذا أن يفيض الشعر على لسان شاعرنا وينشط من
عقاله ، فكان من ذلك دالية أسوان عام ١٩٠٥ ، وهى تبين ما فى نفس شاعرنا وما
تركته تلك البلدة الطيبة من أثر حميد :

خليلى قلبى بسلى عميد ووجدى بها كل يوم يزيد
يدكرنيها إذا جن لىلى شمال تهب وغصن يمد
وبرق يلوح وطير ينوح وحاد له فى المطايا نشيد

ومنها :

أنا ابن الضراغم يوم المغا وكيف تخاف الذئاب الأسود
أنا ابن الذين إذا ما اتموا فجاء رفيع ومجد تليد
بنو المجد والجلود فى كل جيل إذا أعوز الناس مجد وجود
لنا قصب السبق يوم الفخار كما كان آباؤنا والجدود
تراث لنا منذ عليا معد يدل به كهلنا والوليد

ومنها:

لعل عهود الصبا أن تعود فله ذاك الصبا والعهود
ونقضى لأسوان حق الجواز وحق لوصافها أن يجيدوا
فقد جمعت من صروف الجمال نهاية ما يقتضيه الوجود
وكتب أيضا إلى بعض إخوانه من أسوان مشتاقا قصيدة طويلة لم يبق منها
إلا ما وعته ذاكرته قال :

صب بربع البانة الأخضر بات صريع الظبي والجوذر
أرسل فيه طرفه رائدا نخانه الطرف ولم يشعر
هيات أنسى يوم ودعتها وهى من الأتراب فى معشر
ومنها :

وقد استطرد إلى ما كان من الحرب بين الروس واليابان عام ١٩٠٥ :
وأقبل اليابان فى جحفل بموج فى البر وفى الأبحر
تحتال فى البحر أساطيله كجيشه فى المهمة المقفر
ولما نقل صديقه الفاضل الشيخ عبد الرحمن قراعة إلى أسوان شطر البيتين
المشهورين :

« أمر على الديار ديار ليلي ،

فرد عليه فضيلته مشطرا لهما أيضا مع إطالة مستمלحة . ومثل هذه المداعبات
الشعرية تدعو إلى النمو والاختصاص . وفى هذه المرحلة خاض غمار السياسة وسجل
فى ديوانه كثيراً من الحوادث السياسية التى مرت بوادى النيل أو طافت بالبلاد
الشرقية من حروب وثورات ، وكان له شعر ينشد فى المحافل وخطب رنانة
وتأثير كبير ، فارتفعت منزلته فى النفوس وعرفه من كان جاهلا به ، وأذكر يوم
قامت أول مظاهرة للسيدات فى ميدان عابدين أنه خطبهن على جمل أوراق وهو
يلبس عقلا وعباءة فكان ذلك باعثاً لهن وداعياً إلى ثورتهن .

وسنعرف عند الكلام على شعره السياسى كيف سجل تلك الحوادث واحدة
واحدة بشعره الخالد ، وقافته المتينة ، وأسلوبه الرصين ، وعباراته القوية على غير

ما نعهده في بعض الشعراء الآخرين ، ولعله انفرد بهذا الغوص فبز كثيرا منهم
وأما المرحلة الثالثة — فكانت بعد إحالته إلى المعاش واتساع مجال القول
أمامه وتحريره من ربة الوظيفة ليكون حراً يتكلم بما شاء ، وينطق بوحى ضميره ،
ولئن أطال الله عمره لرأينا من درره الغوال ، ونفثات يراعه البليغة الشيء الكثير
والذخيرة الأدبية الخالدة ، ولكنه لم يلبث إلا قليلا حتى فاضت روحه الطاهرة
مبكيا عليه من الجميع . وكانت جريدة البلاغ الغراء ميدانا تجول فيه بحوئه
ومحاوراته التي كانت بينه وبين صديقه الدكتور زكي مبارك ، فاستمتع القراء
الكرام بهذا النقاش الأدبي الجميل ، وذلك الحوار الذي كان بينهما ، شارحا مذهبه
في القديم كما شرح الدكتور مذهبه في الجديد ، وما تبع ذلك من عتب وإعتاب .
« للبحث بقية »
عيسى محمود ناصر

— ١٠ —

قال بعض أهل العلم : كان لنا صديق من أهل البصرة ، وكان ظريفا أديبا ،
فوعدنا أن يدعونا إلى منزله ؛ فكان يمر بنا ، فكلما رأيناه قلنا له : متى هذا الوعد
إن كنتم صادقين ؟ فسكت إلى أن أعد ما نريد ، فمر بنا فأعدنا عليه ، فقال : انطلقوا
إلى ما كنتم به تكذبون .

— ١١ —

دفع أبو الطيب الطبري خفأله إلى خفاف ليصلحه ، فكان كلما مر عليه يتقاضاه ؛
وكان الخفاف كلما رأى القاضى أخذ الخف وغمسه في الماء وقال : الساعة الساعة .
فلما طال عليه قال له : إنما دفعته إليك لتصلحه ولم أدفعه إليك لتعلمه السباحة .

الوهراني الكاتب

ترجمته — رسائله

وضع واختيار وتحقيق للأستاذين

أبراهيم الديب و عبد الحفيظ سلمي

المحررين بالقسم الأدبي بدار الكتب المصرية

كنا مع القراء على وعد بأن ننشر بين أيديهم في الجزء من الصحيفة بعدد الجزء شيئا من مخطوط اللغة والأدب، لما لم تتصل به يد فتيته من مرقده، ولما كان نصيب هذا الجزء من المخطوط رسائل لكاتب خفيت آثاره، وأصبح العلم به لا يعدو آحادا، رأينا أن نعرض هنا له بكلمة نترجم فيها حياته تتخللها رسائله :

الوهراني الكاتب

هو أبو عبد الله محمد بن محرز بن محمد الوهراني الملقب بركن الدين، وقيل جمال الدين.

ووهران — التي ينسب إليها أبو عبد الله — مدينة في أرض القيروان بينها وبين تلمسان يومان، وهي على ضفة البحر، ولهذا ترى الكثير من أهلها يحترف بالتجارة. وقد أسست في سنة تسعين ومئتين. وخرج منها من العلماء غير رجلنا هذا أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد الهمداني الوهراني الأندلسي، شيخ ابن عبد البر^(١) وأبي محمد بن حزم حافظ الأندلس.

ولقد كان أبو عبد الله الوهراني رجل تطواف ورحلة، لا يستقر له مقام بمكان، تنقل في كثير من البلاد. وكانت مصر وداريا — وهي قرية على باب

(١) هو الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله النمرى القرطبي ولد سنة ٣٦٨ وتوفي سنة ٤٦٣ وله تواليف لا مثيل لها، منها كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب.

دمشق في العُوطَة — مكانين طالت بهما أيامه .

أما عن مصر وسبب طول إقامته فيها ، فقد صادف نزوله بها أيام صلاح الدين ، وكان الوهراني ممن عرفوا بالكتابة والإحسان فيها ، وكانت حلبة الكتابة إذ ذاك عامرة بالكتاب ، وكان السبق فيها للكاتبين الأديبين القاضي الفاضل وعماد الدين الأصماني . وأنت تعرف من القاضي الفاضل ، ثم لعل علمك بالعماد في حاجة إلى أن نزيدك عليه بأنه صاحب خريدة القصر ، في شعراء الشرق والمغرب ومصر ، التي جمعت في مجلداتها الست لفاً من الشعراء في هذه البقاع ممن عاشوا في المئة السادسة وعاصروهم المؤلف .

وكما يعشق الجندي الباسل ميادين الكفاح والجلاد ، يعشق الكاتب والشعراء ميادين الكتابة والشعر ؛ لهذا رأينا الوهراني قصد قصد مصر ، لما اكتملت له قوة يانه ، ينازل في ميادينها كتابها .

وهنا تحدثنا كتب التاريخ فتقول :

« فلما دخل البلاد (أي مصر) ورأى بها القاضي الفاضل ، وعماد الدين الأصماني الكاتب ، وتلك الحلبة ، علم من نفسه أنه ليس من طبقتهما ، ولا تنفق سلعته مع وجودهم ، فعدل عن طريق الجد وسلك طريق الهزل ... الخ »

هكذا يحدثنا عن الوهراني من تحدث عنه بأنه خلى بينه وبين الجد - وقد كان سنته في رسائله - إلى الهزل عند ما نزل مصر ، ثم كان له في ذلك رسائل اخف ما تكون رقة ، وأعذب ما تكون منطقاً ، وأملأ ما تكون بالفكاهة والدعابة ، وأنه خلف من ذلك ديوان رسائل يكاد يبين عن خفة روحه ، ورقة حاشيته ، وكال ظرفه . وضع بعض هذا الديوان بمصر وبعضه بالشام ، وله من بين رسائله رسالة طويلة سماها منام الوهراني ، اجتمعت كلمة الكتاب على التنويه به والاشارة إليه . ولم يذكر مؤرخ أو كاتب الوهراني وعرض إلى رسائله إلا خص بالذكر منها هذا المنام وأفاض في مدحه ، واتخذ منه دليلاً على سمعة اطلاع وغزارة مادة .

وفي ظننا أن الهزل في القول والدعابة في الحديث صفة لا يخلقها المرء في نفسه

خلقا، كما أتيج للوهراني أن يفعل عندما نزل مصر، وهو إن استطاع ذلك فبعيد أن يصل منها إلى الذروة، وتصدر عنه فيها تلك الكلمات التي صدرت عن الوهراني، والتي إن دلت على شيء فلا أقل من أن تدل على أن تلك الرسائل وهذا المنام لا تصدر إلا عن قلب فطر على الدعابة، وخامرته روح الهزل صغيراً، فشب عليهما وكانا فيه طبعاً نشقهما يوم نشق الهواء في هذه الحياة. وبعيد أن ينشأ الإنسان على الجد في القول ثم يصرف نفسه عنه إلى الهزل ولا يحس لجدّه — الذي هو الأصل في نفسه — أثراً واحداً.

نصدق أن الرجل قد كان قبل أن تحتويه مصر مصدراً للنوعين الجد والهزل، يقول في هذا وفي ذاك، ونصدق أيضاً أن من هذا شأنه لا تكاد ترى له جدّاً إلا أحسست له في خلاله لونا من ألوان الهزل، يقل أو يكثر على حسب الروح الذي يهيمن على الرسالة إذ ذاك. وأنت لا ترى له هزلاً كذلك إلا وللجد منه نصيب.

وهكذا كان الوهراني من شُبّه إلى دُبّه نهياً لهاتين النزعتين. وهذه رسالته إلى القاضي الفاضل، بدأها جاداً، وكان بوده — في ظننا — أن يختمها كما بدأها، بفرى على السنن الذي بدأ فيه شوطاً ثم غلبته في نهايتها روح الهزل فهزل. وهامى ذى:

مجلس مولاي القاضي الفاضل (١)، أبقاه الله، مجلس قضاء وتنفيذ، وموضعه موضع إبرام وتحليل، فيه معترك الحُطوط، ومقارعة البحوث، ومنه تتفجر ينابيع الأرزاق، وفيه مشابهة من اللوح المحفوظ، فلاجل ذلك ساعا ته مترعة (٢) بالأشغال، وأوقاته ملائمة بمهم الدولة، متدفقة بجوائج الناس، ليس فيها فضلة

(١) هو الوزير الكاتب الشاعر مجير الدين أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف بهاء الدين، وهو عسقلاني المولد مصري الدار. ووزر للسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وولد بمدينة عسقلان سنة ٥٢٩ هـ وتوفي بالقاهرة سنة ٥٩٦ هـ وقد خلف فيما خلف ديوان رسائل وديوانا آخر في الشعر.

(٢) مترعة: مملوءة.

لمستفيد علم ، ولا لمُبْتَغى أنس وتذكار ، فكسدت عنده بضاعة الخادم ، وبارت صنائع البطالين .

فيجب على الرجل المطوق بصنائه ، الضعيف المُنَّة (١) عن القيام بشكره ، إذا هم بخدمة في موسم أو رأس شهر جديد ، أن يقف على باب داره في وقت ركوبه ، فيهنئه وينصرف ، ليجمع بين الخدمة والتخفيف ، والسلام .

وهذه رسالته الثانية إلى القاضي الفاضل يتمسحه فيها ويتلطفه ، والتي هي لا الجِدُّ البحت ولا الهزل الصراح ، وإنما هي خفة الروح لبستها ألفاظ الرسالة فصدرت عن الوهراني تهزك بالطرب الذي تضمنته في ثوب يكاد يكون الجد أو هو إليه أقرب . قال :

عند عبد مولاي القاضي الأجل الفاضل أدام الله جذه ، وأهلك ضده ، من السرور بقربه ، والدخول في سربه

كما سر مهجور بوصل الجباب

ومن الارتياح إلى جلالة ، والورود على زُلاله

كما ارتاح ظمآن لعذب المشارب

ومن الاهتزاز لمعانيه ، والطرب إلى ما يعانيه

كما اهتز عسأل من الشمر باتر

ومن الافتتان بلفظه ، والاعتكاف على حفظه

كما نظم الدرّ المفصل نائر

ولولا أن عبده أخفش البصيرة والبصر ، تغلبه لُكنة الحصر ، ويضعف

عن مقابلة الشمس والقمر ؛ للآزمة ملازمة السعد لبابه ، والتوفيق لأحبابه ،

لكنه كالحفّاش يعشى عن الأنوار ، وكالجعل يتأذى برائحة النوار ، فلا يمرح

في شكله ، ولا ينبسط إلا مع أشكاله ؛ ولا يغتر - أدام الله عزه - بزخارفه .

فالعود أطيب من ثراه ، والكلام أحسن من افتراه ، ولأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ، ولولا أن نسيب خادمه أقبح من المشيب ، وقريضه أوجع من التقريض ، وقرقره أشد من الفقر ، وقرائنه كالقرين السوء ، لأرسالها كالأفراس ، وأسكت بها صياح الأجراس ، والسلام .

هاتان الرسالتان وقليل غيرهما ، لم نر الوهراني في رسالة من رسائل ديوانه الذي بين أيدينا ، كان قريبا من الجد قربه فيها .

ولقد أثبتناهما هنا لنسجل للوهراني شيئا في ناحيته الأولى ، ناحية جده ، ولنخلص منهما إلى أن الروح التي تملكها الفكاهة يخونها الإفصاح عما تكنه إن هي حاولت أن تكون جادة على طول الطريق .

ولعل من قرأ للوهراني رسائله التي داعب فيها فأسرف ، وتماجن فأغلى ، وجاوز فيها حدود الأدب فأفحش ، ثم وازن بينها وبين هاتين الرسالتين عدتها من بين تلك الرسائل جدا ؛ وعند هذا الرأي وقف المؤرخون ، فجعلوا للوهراني ناحيتين منفصلتين ، ونزعتين مقطوعا ما بينهما .

وإن أسفنا لعظيم على أننا لم نعثر للوهراني على رسالة واحدة قبل قدومه إلى مصر — وهي الفترة التي كنا نحب أن نرى له فيها أثرا واحدا — لنعرف كم كان مبلغ الجد من رسائله ، وهل كان في الحق جدا لا تشوبه روح الوهراني المماجنة الهازلة . أو أنه كان كيوم القيظ لا يعدم الإنسان من بين لحظاته لحظة يتمتع فيها بنسبته ندية .

والآن نسوق عن الوهراني صنفا آخر من رسائله : ألا وهو رسائله التي كانت هزلا ، والتي عرفها عنه المؤرخون واشتهر هو فيها وأجاد . وهما هي رسالة له كتبها إلى الأمير (١) عز الدين موسك (٢) عن لسان بغلته ، وهي رسالة يكاد الجد ينعدم

(١) هو خال صلاح الدين الأيوبي وإليه ينسب شارع الموسيقى لأنه كان ينزل قصره به

(٢) تلاحق الكاف في اللغة الفارسية آخر الاسماء عند ارادة التصغير ، فيقولون عند تصغير موسي موسك وفي حسن حسنك وهكذا .

بين سطورها ، فلا ترى إلا فكاهة طريفة ، ودعابة حلوة تجرى من أول سطر في الرسالة إلى آخر سطر منها ، وهي :

بسم الله الرحمن الرحيم

المملوكة ربحانة ، بغلة الوهراني ، تقبل الأرض بين يدي المولى عز الدين حسام أمير المؤمنين ، نجاه الله من حر السعير ، وعطر بذكره قوافل العير ، ورزقه من القرط (١) والتبن والشعير ، وسقى (٢) مئة ألف بعير ، واستجاب فيه صالح الأدعية من الجهم الغفير ، من الخيل والبغال والحمير ؛ وتنهى (٣) إليك ما تقاسيه من مواصلة الصيام ، وسوء القيام ، والتعب في الليل والدواب نيام . قد أشرفت على التلف ، وصاحبها لا يحتمل الكلف (٤) ، ولا يؤقن بالخلف ، ولا يحل به البلاء العظيم ، إلا في وقت حاجتي إلى القضم (٥) ، لأنه في بيته مثل المسك والعبير ، فشعيره أبعد من الشعري (٦) العبور ، لا وصول إليه ولا عبور ، وقرطه أعز من قرط (٧) ماريه ، لا يخرج به بيع ولا هبة ولا عارية ، والتبن

(١) القرط (بالضم) : نبات كالرطبة إلا أنه أجل منه وأعظم ورقا (البرسيم) .

(٢) الوسق : حمل البعير . وقد وردت هذه الكلمة في الأصل المخطوط بالشين المعجمة وهي مصحفة عما اثبتناه .

(٣) أنهى إليه الأمر : أعلمه به .

(٤) الكلف : جمع كلفة (بالضم) وهي المشقة .

(٥) القضم : شعير الدابة .

(٦) الشعري العبور : كوكب يطلع في الجوزاء وطلوعه في شدة الحر ، ويقال له

أيضا الشعري البمانية

(٧) من أمثال العرب : خذه ولو بقرطى مارية . وهي مارية بنت ظالم بن وهب ابن الحارث بن معاوية الكندي ، وابنها هو الحارث الأعرج ، وإياها عني حسان بقوله :

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل

وكان في قرطها درتان كيض الحمام لم ير مثلهما ، ولم يدر ما قيمتهما ، فضر بهما الناس مثلا في النفائس وقالوا : أنفست من قرطى مارية . وقيل : أنها أهدت قرطها هذين إلى الكعبة .

أحب إليه من الابن ، والجلبان^(١) أعز من دهن البان ، والقصيم بمنزلة الدر النظيم ؛
والعضة^(٢) ، أجمل من سبائك الفضة ، وأما القول ، فمن دونه ألف باب مقفول .
فما يهون عليه أن يعلف الدواب إلاّ بعيون الآداب ، والفقہ الباب ، والسؤال
والجواب ، وما عند الله من الثواب . ومعلوم ياسيدي أن البهائم لا توصف
بالحُلو م ، ولا تعيش بسماع العلوم ؛ ولا تطرب إلى شعر أبي تمام ، ولا تعرف
الحارث^(٣) بن همام ؛ ولا ستيما البغال ، التي تشتغل في جميع الأشغال ، شبكة من
القصيل^(٤) ، أحب إليها من كتاب التحصيل^(٥) ، وقفة من الدريس^(٦) ، أشهى

(١) الجلبان (بضم الجيم واللام وتشديد الباء وقد تخفف) : من القطاني ، وله قضبان
مربعة ، ينسبط على الأرض وحبه مدور إلى البياض وليس بصحيح التدوير حلو ويؤكل
نيثا في الربيع ثم يجفف ويطبخ .

(٢) العضة (بالكسر) : العضاء وما صغر من شجر الشوك . و (بالضم) :
العجين تعلفه الابل والشعير والحنطة ، وهو أيضاً اليابس من الحشيش .

ولعل العجين هو المراد من بين هذه المعاني لأنه أقربها شبهة بالفضة في اللون وفي
أنه يكون في تجمععه وتكونه كالسبيكة . وقد وردت هذه الكلمة في الأصل محرقة .

(٣) هو الحارث بن همام بن مرة بن ذهل بن شيان ، وهو الذي مدحه أبو دواد
الايادي فأعطاه عطايا كثيرة ، ثم مات ابن لأبي دواد وهو في جواره فوداه فمدحه
أبو دواد ، خلف له الحارث أنه لا يموت له ولد إلا وداه ولا يذهب له مال إلا أخلفه ،
فضربت العرب المثل بحسن جواره وفيه يقول قيس بن زهير :

أطوف ما أطوف ثم آوى إلى جار كجار أبي دواد

(٤) القصيل : الشعير يجز أخضر لعلف الدواب ، سمي به لسرعة اقصاله
من رخصته .

(٥) لعله يريد كتاب البيان والتحصيل لابن رشد المتوفى سنة ٥٢٠ هـ وهو في فقه
المالكية : أو كتاب تحصيل عين الذهب للشتمري من علماء القرن الخامس الذي كان
وضعه شرحا على كتاب سيدييه .

(٦) هو بالعربية الدرين وإبدال السين من النون تحريف .

إليها من فقه محمد بن إدريس . لو أكل البغل كتاب المقامات (١) ، مات ؛ فإن لم يجد
إلا كتاب الرضاع ، ضاع ، ولو قيل له أنت هالك ، إن لم تأكل موطأ مالك ، ما قبل
ذلك ؛ وكذلك الجمل لا يتغذى بشرح أبيات الجمل (٢) وحزنة من الكلا ، أحب
إليه من شعر أبي العلا ، وليس عنده طيب ، شعر أبي الطيب . وأما الخيل ، فلا
تطرب إلا لسماع الكيل ، وإذا أكلت كتاب الذيل ، ماتت في النهار قبل الليل ،
والويل لها ثم الويل ، ولا تستغنى إلا كاريش عن الحشيش ، بكل ما في الحماسة
من شعر الحريش (٣) ، وإذا أطعمت الحمار شعر ابن عمار (٤) ، حل به الدمار ، وأصبح
منفوخا كالطبل ، على باب الاسطبل ، وبعد هذا كله قد راح صاحبها إلى العلاف
وعرض عليه مسائل الخلاف ، وطلب من تبينه خمس قفاف ، فقام إليه بالخفاف ،
نخاطبه بالتعير ، وفسر عليه آية العير ، وطلب منه ويئة شعير . فانصرف الشيخ
منكسر القلب ، مغتاظا من الثاب ، فالتفت إلى المسكينة ، وقد سلبه الغيظ ثوب
السكينة ، وقال لها : إن شئت أن لا تسكدتي فكدتي ، لاذقت شعيرا مادمت عندي ،
فبقيت المملوكة حائرة ، لا قائمة فلا سائره ؛ فقال لها العلاف : لا تجزعي من حباله ،
ولا تلتفتي إلى سباله (٥) ، ولا يكون عندك أخس من عتقته (٦) . هذا الأمير
عز الدين ، سيف المجاهدين ، أندى من الغنام ، وأمضى من الحسام ، وأبهى من البدر
ليلة التمام ؛ يرثى للمجروب ، ويفرج عن المكروب ، وهو نبي بني أيوب ؛ لا يرد

(١) لعله يريد المقامات للحريش . وهو كتاب غنى عن التعريف به .

(٢) لعله يريد كتاب « الجمل الكبيرة » للزجاجي النحوي المتوفى سنة ٣٣٩ . وقد
شرح أبياته البطليوسي المتوفى سنة ٦٢١ هـ في كتاب سماه « الحلال في شرح أبيات
الجمل » كما شرحه ابن العريف الاندلسي المتوفى سنة ٣٩٠ هـ في كتاب سماه « شرح الجمل » .

وهناك شروح غير هذين إلا أنها لمؤلفين متأخرين عن الوهراني .

(٣) هو الحريش بن هلال القريني .

(٤) هو ابن عمار الأسدي وهو الذي يقول في رثاء ابنه معين :

حللت بخسر سابور مقيما يورقي أنينك يا معين

وخسر سابور بلد من بلاد العجم

(٥) سبال : جمع سبله (التحريك) وهي الشارب .

(٦) العتقة : شعيرات بين الشفة السفلى والذقن .

قائلا ، ولا يخيب سائلا . فلما سمعت المملوكة هذا الكلام ، جذبت الزمام ، ورفضت الغلام ، وقطعت اللجام ، وشقت الزحام ، على الأقدام ورأيك العالى والسلام . وإذا كنا قد قدمنا هذه الرسالة فإلا لنا بأن نلحق بها رسالة له وضعها فى صورة سؤال ، - وفى أكثر الظن أنه كتبها يعرض فيها بابن الحكم المدرس لمذهب الخفية حينذاك - وسوف تلبس هنا شيئا من فحش القول ، وهذا مالم يبرأ منه كثير من رسائله ، إلا أنك مع هذا لا تخرج عن الحكم للرجل بالإبداع والقدرة ، ثم بالابتكار حينما تراه لم يغفل أن يضع للسؤال جوابا جعله على السنة الفقهاء الذين وجه إليهم السؤال . وهالك سؤاله ثم الجواب عنه :

ما تقول السادة الفقهاء ، رضى الله عنهم ، فى رجل يرى أنه من أئمة الشرع ، ومن أرباب الأصل والفرع ؛ ويعتقد أن له الدرجة المنيفة ، فى مذهب أبى حنيفة ، ويقول : لو جادلت مالكا ، لصرت له مالكا ؛ ولو لقيت ابن إدريس ، لسلمت إلى منه التدريس ؛ ولو أدركت ابن حنبل ، لكنت أتقى منه وأنبل ؛ وسره - وفقكم الله - يخالف نجواه ، وفعله يكذب دعواه ؛ وذلك أنه يبيع الفروج للفروج ، ويستحل سفك الدما ، على البيض والدُمى ؛ ويأخذ بأرخص الأقوال ، فى استباحة الأموال ؛ إن دخل الجامع ، (١) ، وإن ولى المدارس ، صير العلم كالطلل الدارس ؛ وإن سكن المشاهد ، طلب الرقص والشاهد ، وإن صعد للوعظ على الأعواد ، حث الحرّم على الوفاء بالميعاد ؛ ومزج لهم الهزل بالجد . ثم إنه لركاكة دينه ، وضعف يقينه ، يصلّى قاعدا من غير ألم ، ويبول قائما على فرد قدم ؛ فتراه يسهر على القمار والحزر ، وينام ليلة القدر ؛ ويستحل بيع القبلة بقبله ؛ ومكة بصكه ، ولا يشتري حجة ، بعجة (٢) ؛ ولا عمره بتمره . قد أخرج مال الفتوح والصدقات ، فى المهور والصدقات ؛ وصير مال الحبس والأوقاف ، لربات الشرف والأوقاف ؛ قد أفرغ من . . . (٣) قواه . واتخذ لإلاهه هواه ، فغدا بلا عقل ولا حلم ، وأضله الله على علم ؛ وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة

(١) العجّة (بالضم) : الطعام الذى يتخذ من البيض . وقيل هو كل طعام يجمع من التمر والا قط . (٢) تعتمدنا عدم اثبات هذه الجملة لاسفافها .

فبينوا - وفقكم الله - أوجب على السلطان أن يضرب على يده ، أم يقويه على ما هو عليه ، مأجورين مثاين إن شاء الله تعالى .

الجواب على لسان الفقهاء

إن صح ما ذكر عنه من هذه الحال ، وكثرة الإِضلال ؛ فيجب أن يعزّر بدياً ، وينبذ قصياً ، بعد أن ينتف من ذقته ما طال وما قصر وما بين ذلك ، وما كان ربك نسياً . وليس من التحقيق الجائز ، أن يدفع مال الوقف للعجائز ؛ فإن يفعل ذلك أخذ من نفقته ، مع شَعَرَات من عَنَفَقَتِه ؛ وإن يَثْب للفرار ، فليس إلا الطرطور والحمار . هذا مقتضى الدليل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ولا يسعنا قبل أن نختم عن الوهراني حياته في مصر ونودع رسائله إلا أن نورد رسالته هذه القصيرة التي كتبها إلى ابن مسلم الشاهد .
وكان ابن مسلم ممن يقولون بالإمام القائم المنتظر كما كان متهما بالتفريط في أمانة أودعها عنده الكامل بن شاور .

وفي الرسالة معنى جديد نعرفه عن الوهراني ، وهو أنه لم يك من غلاة الشيعة ولا ممن يقولون بالإمام المنتظر . قال رحمه الله :

وحق الحجاب والكتاب ، والبغلة والسرداب ؛ والامام القائم ، الحى الدائم ، الذى لا يموت ولا يفوت ، ولا يحتاج إلى القوت ؛ ما أحدثت في ملكي هذا حدثاً يوجب الفُسْح ، وإلا قلت إن الأمة لم ترتد عن الإسلام ، بعد النبي عليه السلام ؛ وإن أصحابه العشرة ، لم يتماثلوا على ابن عمه حيدر ، وإن ابن أبنى قحافه ، أولى منه بالخلافة ؛ وإن عمر بن الخطاب ، أولى منه بالحكم وفصل الخطاب ؛ وإن الخليفة عثمان ، سبقه إلى التوحيد والإيمان ، وإن معاوية في كل ما ادعاه من المطالب ، أحق به من علي بن أبي طالب ؛ وإن عائشة أمنا ، بعيدة من الإفك والخنأ ؛ والاقات إن أهل السنه ، يدخلون الجنة ، وإن مذهب الشيعة ، كسراب بقيقه ؛ وإلا حشرني الله مع يزيد ، إذا قالت النار هل من مزيد ؛ وسلط عليه أنواع البلا ، ولا حشره مع شهيد كربلا ، وإلا أذاب الله كل دينار استودعنيه

الكامل في حدقيه ، ولا أراه في دولة العز ما تقر به عينيه .

من هذه الرسائل نرى أن الوهراني كان على ما وصفنا لك يملك زمام الجد والهزل ، وأنه كان إلى الهزل أميل . ولعل خلو ميدان الأدب في مصر من هازل خفيف الروح مثله هو الذي شجعه على أن يقدم إليها ليسد فراغا ، ويتبوأ كرسيها خاليا ، ويتمتع بالامارة ولو غير مأمورين .

وأما عن البلد الثاني الذي ظفر بالوهراني زمنا طويلا ، فهو داريا ، وأكبر الظن أن رحلة الوهراني إليها كانت بعد فراقه مصر ، وأما أن الوهراني رحل إليها من مصر دون أن يعرج على غيرها فذلك مالا نملك الآن فيه رأيا . وكل ما نستطيع أن نقوله إنه كان بداريا آخر أيام حياته ، وأنه تولى فيها الخطابة .

نقول هذا ونعجب كيف اختير للخطابة رجل عرف عنه هذا الماضي الذي كان في بعضه هازلا ، وكان في بعض هذا الهزل مفحشا . وفي اعتقادنا أن قوة البيان وحدها لا تغني عند الاختيار لمنصب كالخطابة ، اللهم إلا إذا كان الوهراني على غير الخطابة الدينية ، وهذا ما نستبعده . ولعل الذي برر هذا الاختيار ما كان قد وصل إليه الوهراني حينذاك من سن متقدمة يملك فيها العقل زمام اللسان ، وتحوط هيبتها صاحبها بسياج من الوقار ، فلا تجعله يُصدر حين يصدر إلا عن جد ، وفوق ذلك فإن للخطابة والخطيب قيودا وتقاليد .

ولسنا نشك في أنه كانت تجرى على الوهراني بسبب الخطابة وظيفة . وهذا ما حدا بالوهراني إلى المقام في داريا ، إذ أحب البلاد إلى نفس الانسان بلد يتصل فيه رزقه ، ويرغد فيه عيشه . فعاش الوهراني بها زمنا — لم نعر فيما بين أيدينا من المراجع على تحديده — حتى أدركته منيته سنة ٥٧٥ هـ فدفن على باب تربة الشيخ أبي سليمان الداراني في السابع عشر من رجب عليه رحمة الله .

هذه كلمة أوجزنا فيها حياة الوهراني الكاتب المجهول لدى كثير من قراء العربية وكما كنا حريصين على أن ننشر بين يدي قراء « صحيفة دار العلوم » منامه ، لولا أنه كثير التصحيف والتحريف ، وهو لذلك في جاحة إلى فرصة واسعة ، وهذا ما لم يتيسر لنا ، مع كثرة ما بين أيدينا من أعمال ، في تلك الفترة الوجيزة التي مضت على صدور الجزء الرابع إلى ظهور هذا الجزء فعذرا .

هو ؟

صورة قلمية خاصة

للسناذ محمد موسى عفيفي

مدرس بمدرسة الأمير فاروق الثانوية بالقاهرة وكلية أصول الدين

ليس إقليما من الأقاليم الواسعة ، ولا قطراً من الأقطار الشاسعة ؛ ولا جبلا
تَحْضُنُ يَبْضًا فِي قَنْتِهِ الْأَنُوقَ ، ولا سَهْلًا نَمْنَمُهُ مُحَرُّ الشَّقِيقِ ، ولا ساحلا تَمَلَأُ
بِمُخْتَلِفِ ألوان العقيق . ليس وادياً من الأوداء ، ولا روضاً ترفُّ ألوان أزهاره
بالانداء . ولا مركبا يجري في الدأماء . ليس بجزاً طاميا ، ولا نهراً جاريا ، ولا
عارضا هاميا . ليس كوكبا دريا : قمرأ مضيا أو فرقدأ وضيا . ليس الصبح
سطع وتنفس ، ولا الليل ادلهتم وعسعس ، ولا الجو كدح وجهته وعبس .
ليس عاما مشهوراً كعام الوفود أو عام الفيل ، ولا شهراً اشتهر بفضل كالذي أنزل
فيه التنزيل ، ولا يوماً كيوم حليمة أو يوم الأريل (١) . ليس الشتاء ذا البرد
النافع ، ولا الصيف ذا الحر اللافح ؛ ولا الربيع يفاخر بالأرض السماء ، ولا
الخريف يبرد فيه الهواء . ليس جيشا جرارا ، ولا حصانا كرارا ؛ ولا معقلا من
المعاقل المنيعه ، ولا أطما من الآطام الرفيعة .

ليس من السوانح ، ولا من البوارح ، ليس داء يُضْنِكُ ، ولا دواء يشفيك
ليس مشموماً تنتشيه ، ولا طعاما تشتهيه ، ولا شرابا سائغاً تبغيه .

(١) يوم من أيام العرب كانت فيه وقعة صلعاء النعام : موضع بديار بني كلاب

هو : ليس جمادا ولا حيوانا ولا طيرا ولا نباتا ولا هواء ، ولا ملكا كريما ولا شيطانا رجيا :

هو : آدمى تام الآدمية ، مستكمل أمارات الانسانية ، وهو أشهر من البدر ، وأنتم عن نفسه من ضوء الفجر ؛ ومع ذلك ليس ملكا من ملوك الأنام ، ولا عظيما من العظام ؛ ولا من ورثة الأنبياء ، ولا من طبقة الفصح الأينام ، ولا من أرباب الفلسفة الحكماء ، ولا من السراة الأغنياء ؛ ليس صانعا صنيع اليدين ، ولا تاجرا يضرب في الربح بسهمين ، ولا زارعا ملها بفلح الأرض وغرس الأشجار ، ولا محيطا بأسرار الأزهار وجنى الثمار .

ذهب سمعُه في التَّدينِ ، ومع ذلك لم يعلِّقه فهم ، ولم يقع من رواده في وهم . يملأ اسمه وشخصه ذهنك كلما دنا منك ، وسرعان ما تنساه إذا غاب عنك ، لا تحفلةٌ ولكنك تحتاج إليه ، ولا تباله ولكنك تعتمد عليه ، تأخذه عينك ولكنك لا تطرفه بعين الاحترام ، ولا ترمقه بنظرة الاعظام .

تعود بسط الكف لا يعطيك بل ليسلك ، ومدَّ يده إليك لا ليرضاك ، بل ليقضاك ؛ والإقبال عليك لا ليسالك حالك ، بل ليحرِّبك مالك ؛ يتفرس وجوه المنتدين كأن بينه وبينهم أمرا ، ويشزُّ الزور كأن له عندهم ثارا ؛ يقطع عليك حديث الصديق والجليس ، ويمشى في الأرض كما يمشى في الجسم الرئيس . هل عرفته ؟

هو : معروق العظم ، ليس جماليا في ضخامة القيل ، على أنه ليس رسما كالحمل الهزيل ، رُبْعُ القامة ، متوسط الهامة ، مخروط الوجه ، أجرد أثرم ، نأى عظم الترقوة ، هضم البطن ، لطيف الكشح ، طويل اليدين ، مُعَرِّقُ عظم الساقين ، له أذنان بين بين ، وشفتان ليس بهما كثير شين ، وعينان كأنهما مغمضتان ، وجفنان دائما مطبقان ، أما رقبته فكذوب القار ، طويلة ودقيقة كأن أعراقها البارزة أمراس شدت من فوق إلى رأسه ومن تحت إلى صدره ، وأما شاربه فبقية شعر سوداء كأنها تحت أنفه خنفساء . هل عرفته ؟

هو: خامد الذكاء ، أخص صفاته الغباء ، ككَيْتَسَان (١) يفهم غير ما يسمع ، وكهروان (٢) إذا قيل له اطرح يجمع ، تستعجم عليه المدارك الظاهرة ، وتستسر الأشباح المائلة . يعد ويخلف عن غير عمد ، ويأتمر بما تأمر ولكنه لا ينفذ بدون قصد .

إذا كظت أسرة النادى بهوه وحجراته رُبك واستجار ، وضجر واستجار ، الغائب عنده حاضر ، والحاضر مسافر ، وأحمد عنده محمود ، ومحمود عبد المعبود ، ونجيب عنده غريب ، وغريب لبيب ، وصيام عنده رمضان ، ورمضان شعبان ، ومكاوى عنده طنطاوى ، ومدنى عنده قرنى . هل عرفته ؟

هو : ليس فيه منة الفتیان الأقوياء ولا رعدة الشيوخ الضعفاء . دائب الحركة يذرع الأرض ذرعا ، كأنما يثيرها ليزرع الحب زرعا ، لا تراه جالسا كما تجلس لأنه لم يتعود الجلوس على الوثير ، ولم يَرْض نفسه على اقتراش الحرير . وهو مسكى اللون لم تحل عليه الشمس رداءها بهاء ، ولم يخلع عليه القمر من ضيائه رواء ، ولم يعره وجه الصباح غرته البيضاء ، ولا السماء الصافية طلعتها الزهراء .

هو ليل لبس النهار دثارا ، وتخذ رداء وشعارا ، اختصر فى ملبسه فصول العام ، فالربيع والخريف عنده فضل ، والشتاء والصيف عنده فصل ، يرتدى فى أثنائهما ثوبا رفلا واسع الأركان ، طويل الأردان ، فى لون الجمان أو الأقحوان ، وعلى رأسه « طربوش » يميله إلى اليمين فيستر الحاجب الأيمن ونصف الجبين ، وفى رجله نعل بيضاء نصل لونها . هل عرفته ؟

هو : الذى بينه وبين النهار طباق ، وبينه وبين الليل وفاق ، هو الذى يبرد لك الماء إذا رفض عرقك أو نال منك الحر ، ويدفئك إذا أروعك القُر ، هو الذى يقربك لرفة حاله من غير ماله ، هو الذى يحفظ عصاك ، ويرجو رضاك ، ولا يأبى نداك . هو « محمد خادم النادى » .

محمد موسى عفيفى

(١) مستعمل كان لبلادته يكتب غير ما يسمع .

(٢) كان كاتباً على خراج بغداد ، وقد عرف بضغفه فى الحساب .

إِذَا

ترجمة قصيدة « IF » للشاعر الانجليزى كبلنج

بقلم الأستاذ طه عبد الفتاح

مدرس اللغة العربية بمدرسة بنها الثانوية

إذا أنت لم تعبت برأسك ثورة وحولك هامات الرجال ثوائر
 وقد نَقَمُوا منك الثبات وكلتهم إليك بلوم في ثباتك بأكبر
 إذا اسطَغت أن تغدوا بنفسك واثقا وللناس طراً فيك ريبٌ مُساور
 ولكن برَحَب الصدر لا قيت ريبهم وما عَزَبَتْ عنك الظروف الغوافر
 إذا اسطَغت صبراً في انتظار ولم تكن أخا ملل تسطو عليه المضاجر
 أو اختُلِقت زوراً عليك أكاذِبٌ وما أنت في سوق الأكاذيب تاجر
 أو اضطرَّمتَ حقداً عليك جوانح وصدرك من رجس الحفيظة طاهر
 ولم تَتَجَاوَزْ في الظهور بِطَيِّبَةٍ إلى غاية فيها تغالبك ظاهر
 ولم تك في صوغ الكلام مُحَذِّلاً وتعدُّو نطق القصد والقصدُ سافر^(١)
 إذا جُلنت في وادى الأمانى ولم يكن لسلطانها حكم على النفس قاهر
 إذا لم تك الأفكارُ منشودك الذى إلى دَرْكِه تشتاقي إذ أنت فاكِر^(٢)
 إذا النجح قد قابله وهو باسم وقابلك الإخفاق والوجه كاشر
 فعاملت ذين الخادعين مسوياً فلا أنت ذو بشر ولا أنت نافر

(١) المحذلق والمتحذلق: مظهر الحذق في الكلام.

(٢) فاكِر: مفكر.

إذا قلت قولاً ثم ألفت أنه يُحَرِّفُه نذل عن الحق جانر
ليخدع بالتحريف أهل حماة وأنت على تحريف قولك صابر
أو اسطعت صبرا أن ترى ما جعلته لعيشك أساً حطمته الدوائر

إذا أنت جمعت المكاسب قُضِيَتْ
وعرّضتَها للحظِ جِدًّا مُجَازِفِ
فأبتَ بخسرانٍ وشمّرتَ جاهداً
وأغفلتَ ما قد كان لا أنت مضمّر
إذا القلب والأعصاب في الجسم أُخْمِدِ
فأرغمتها حتى تكون صَوَالِحاً
فتبقى على رغم الخمود وخطبه
سوى العزم يملئ أمره يبقاها
إذا اسطعتَ أن تبقى لنفسك قدرها
إذا صنت ماعودته من خلائق
إذا اسطعتَ ألا يرميتك بالأذى
إذا أنت قدّرت الرجال مكانة
إذا لم تودع في الحياة دقيقة
فأفعمتها جِدًّا وكسباً لنافع
فأنت بملك الأرض شرقاً ومغرباً
وأصبحت في أوج الرجولة ضارباً
لتحصيلها أيامُ كَدٍّ غواير
لتريح أو تأتي عليها المخاطر
لتبدأ في إخلاف ما أنت خاسر
ندامة خسران ولا أنت ذا كر
وقد خمدت أوتاره والأواصر
لتحقيق ما تبغى وهنّ صواغر
على حين لاشئ بنفسك قاسر
فتغنو نواصيا لما هو أمر
وأنت إلى غوغاء قوم تحاور
وأنت إلى الصيّد الملوّك تسار
صديق توالى أو عدو تحاذر
وأنت على ألاّ تبالغ قادر
وفي صدرها حقد عليك مخامر
وهجراً وإغفالاً لما هو ضائر
وما قد حوته يابنّى لظافر
بسهم له فضل لدى الناس وافر

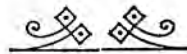
«الأجرسون»

للأستاذ علي شرف الدين

وأبصرتها في رَبِّ رَبِّ من لِدَاتِهَا (بصالون) حَلَّاقٍ لَهَا زحَامِ
 إِذَا انْفَلَتَ بَيْنَ المَرَايَا لِحَاجَةٍ شهدت نفور الظبي حين يرام
 أَرَاهَا : فَأَمَّا صَدْرُهَا فَمَوْثُ كعهدى وأما رأسها فغلام
 فَقُلْتُ - وَمَا أَدْرَى رَهَاقَةَ سَمْعِهَا : على الحسن بعد (العقربين) سلام
 فَقَالَتْ : قَدِيمٌ لَا تَعِيشُ بَعَصْرَنَا كَأَنَّكَ لَمْ يَمُرَّ بِعَهْدِكَ عَامِ
 عَلَى رِسْلِ بِنْتِ العَصْرِ والعَصْرِ كُلِّهِ مساوى نُصْنَى نَارَهَا وَنَسَامِ
 وَأَيُّ جَمَالٍ فِي الأَنْوَةِ بَعْدَمَا مضى سحرها في الشعر وهو وسام؟
 قُلْتُ بِهِ سِرَّ الأَنْوَةِ مُشْرِقًا وقتلك عنوان الجمال حرام
 دَعِيهِ يَدَاعِبُهُ النِّسِيمُ لِشَاعِرِ ففيه لذى الذوق السليم هيام
 غَدِيرٍ مِنَ التَّبَرِّ النَّضَارِ زَهَا بِهِ على الرِّىِّ من لَدُنَّ الغصون قوام
 وَمَا مَوْجُهُ إِلَّا الأَغَارِيدُ فِي الضَّحَى شدَّاهَا عَلَى السَّرْحِ الأَعَنِّ حَامِ
 إِذَا شَبَّهُوا الأَلْحَاطَ بِالسَّهْمِ فَاتَّكَ ففي الشعر مصقول الفِرِّندِ حَسَامِ
 وَمَا الْبِنْتُ إِلَّا زَهْرَةٌ طَلَّهَا النَّدى غَدَائِرُهَا فِي الصَّفْحَتَيْنِ كَامِ
 وَمَا وَجْهَهَا إِلَّا الْهَلَالُ وَلَنْ تَرَى لَهُ بَهْجَةٌ مَا لَمْ يَحُطُّهُ ظَلَامِ

وْغَادَرَتْ الحَلَّاقَ زَهْرَةً رَوْضَةٍ جَفَاهَا بِمُسْتَنِّ الرِّيعِ غَمَامِ
 أَمَاتَتْ بِالأَوَانِ (الرِّيَاضَةِ) جَسْمَهَا فَهِيَ إِلَّا جِلْدَةٌ وَعِظَامِ
 تَسِيرُ بِهَا سَيَارَةٌ تَنْهَبُ الثَّرَى لَهَا فِي يَدَيْهَا الغَضَّائِنِ زَمَامِ
 لَهَا مَنْزِلٌ لَمْ يَدْرِ مَا لَوْنُ وَجْهَهَا إِقَامَتَهَا فِي جَانِبَيْهِ لِمَامِ
 تَغَادَرُهُ وَالصَّبْحُ فِي حِجْرِ أُمِّهِ وَتَرْجِعُ وَاللَّيْلُ الْبَهِيمِ قَتَامِ

وتهجر أطفالا رعى الله شأنهم بهم راضع ما حان منه فطام
تقوم عليهم خادما تَرْضَنَّهُمْ على ضَعَةِ الأخلاق وهي إزام
إذا ما بكت (زوزو) جرت لبكائها مدامع (ميمي) والجفون نيام
فإن هدأت في بيتها بعض ساعة دَهَى الإلف منها شَرَّة وعُرَام
تطالب بالأصباغ والعطر مرهقاً أَلَحَّ عليه في الشباب سقام
إذا راضها باللين يرجو نسيئَةً أصابته منها جفوة وخصام
فمن لى بهندِ والربابِ وزينب معاهدهن المنجبات خيام
خرائد أنجبين الفحول ورفرفت سعادة بيت حولهم ووئام
وذلك عهد للفتاة منضَرَّة فياعهدا الماضي عليك سلام



عاهل الريف^(١) !

[التورم]

فِي جَوْقَةٍ لِلرِّيفِ يَعْزِفُ عُوْدُهَا وَبِرْنٌ فِي سَمْعِ الضَّحَى تَغْرِيدُهَا
 قَبَسَتْ مِنَ الْأَطْيَارِ رَقَّةً شَدَّوْهَا وَأَعَارَهَا سِحْرُ الْعَدَى غَرَّيْدُهَا
 وَتَرَنَّتْ بَيْنَ الْحُقُولِ قَصِيدَةً عَذْرَاءُ مِنْ نَعَمِ السَّمَاءِ نَشِيدُهَا
 تَشْدُو فَيُضْغِي الصَّمْتُ مِنْ وَلَعٍ بِهَا وَيَكَادُ مِنْ طَرَبِ السُّكُونِ يُعِيدُهَا
 ثَاوٍ هُنَاكَ كَبَلَتْهُ يَدُ الْأَسَى وَنَلَّتْهُ عَنْ عِبَثِ الْمِرَاحِ قِيُودُهَا
 شَيْخٌ أَصَمٌ تَكَنَّفَتْ أَطْرَافُهُ سَوْدَاءُ مِنْ صُلْبِ الزَّمَانِ حَدِيدُهَا
 أَحْكَامُ ذَلِكَ لَحْنٌ قَوَّقَ حِينَهُ سُودَاءُ تَكْتَمُ بِالسَّيَاطِ وَعِيدُهَا
 سَجَنَتُهُ فِي رَحْبِ الْقَضَاءِ وَخَلَدَتْ آذَانَهُ رَهْنُ الْجِبَالِ جُدُودُهَا
 عَكَّازُهُ سَوَطٌ تَلْهَبُ فَوْقَهُ نَارًا يَشْبُ عَلَى حَشَاهُ وَقُودُهَا
 رَقَمَتْ عَلَى أَضْلَاعِهِ أَسْطُورَةً دُفِنَتْ بِأَسْرَارِ الدَّهْورِ مُعْهَدُهَا
 أَسْطَارُ مَظْلَمَةٍ وَآيَةٍ ذَلَّةٍ أَعْيَا فِلَاسَفَةَ الْوَرَى تَرْدِيدُهَا
 لَوْ أَلْهَمْتَ سِحْرَ الْبَيَانِ لَمَّا شَدَا إِلَّا بِفِلَسَفَةِ السَّيَاطِ قَصِيدُهَا !

صَرَحْتَ نَوَاعِيرُ الرَّبِّي لِإِسَارِهِ وَتَفَجَّعْتَ أَسْفَا عَلَيْهِ كِبُودُهَا
 فَانْسَابَ فَيْضُ عَيُونِهَا، وَتَفَجَّرَتْ دَمْعًا مِنَ الْبُلُوى لَدَيْهِ مُهْودُهَا
 عَجَبًا لِنَائِمَةٍ عَلَيْهِ لَوْ أَنَّهَا تَبْكِي لَصَمَّ الصَّخْرَ ذَابَ جَلِيدُهَا

(١) قصيدة من ديوان « المروج » الذي يصدر في الحريف القادم .

وهي التي ألقته في كنفِ الضنى ورماء في العدم المهين وجودها !

عيناه غلقتا فأت سناهما في ضحوة رقت عليه برودها
وأزاهر البستان ترنو حوله مُتَفَتِّحاً يحسو الضيا أملودها
من نوره المكبوت أشرق نورها فاهتز في الألق المنضر عودها
وشدا الحنان المر من دولا به فتراقصت فوق المروج قدودها
ولو انها علمت أساء لصوحت وذوى له ریحانها ووودها

يا ثور ! كيف غزتك أسواط الوری وتقطعت في جانبيك جلودها ؟
مردت على كتفيك محراباً إذا صلت به يفرى حشاك سجودها
وكأنا نشقت بملك فوحة من روحها الفاني، فجن وريدتها (١)
شربت دماءك خمره وتصايحت سكرى تخبط هائماً عريديها
يهذي فتحسب حين يصطخب الصدى جناً تفزع في الفلاة شريديها ؟

« آيس » (٢) ، أي سريرة بلباء في عطفك قد أعيا الحجا معقودها !
حملت من « هوروس » (٣) ، أقدم آية عيبت وقدس في القلوب عهدها
أذكي لها الكهان ناراً بخورهم في « منف » ، يسطع في المعابد عودها
أرواح ضلال حبتك رشادها وجئت لديك على التراب وفودها

(١) إيماء إلى جاذبية الشيء لأصله .

(٢) اسم العجل الذي كان معبود الفراعين قديماً .

(٣) في أساطير الفراعنة أن « هورود هذا » هو الاله الذي حلت روح في « آيس » .

بَدَلَتْكَ تَقْدِيسَ النُّهَى ، وَلَوْ أَنَّهُ لِلصَّخْرَةِ الضَّمَاءِ رِيْعَ صَلَوْدُهَا
عَبْدَتِكَ أَهْلَهُ لَا تَعَى ! يَا ضَلَّةً لَوْ تَسْتَطِيعُ ذَرَا هَذَاكَ جُجُودُهَا !

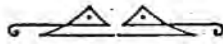
يَا حَكَمَةً فِي رَوْقِكَ الْعَانِي ! كَبَا فِي الْعَقْلِ نَاهَضُهَا . وَطَلَسَ شَدِيدُهَا
زَعْمُوكَ تَحْمِلُ أَرْضَهُمْ . . . وَلَوْ أَنَّهَا عَقَلَتْ ، تَمِيدُ وَهَادُهَا وَتُجُودُهَا !

.....

مَا الْعَاهِلُ الْجَبَّارُ مَنْ ذَا دَوْلَةٍ وَوَقَفَتْ عَلَى ذُلِّ الْعِبَادِ جُجُودُهَا
هُوَ أَنْتَ مَنْ جَعَلَ الْمَرْجَ نَحَائِلًا عَيْدَانَةً يَسْبِي النُّفُوسَ شُهُودُهَا
فِي كُلِّ حَقْلٍ مِنْ جِهَادِكَ آيَةً يَضْفُو عَلَى الرَّيْفِ الشَّقَى خَلُودُهَا

محمود حسن اسماعيل

بدار العلوم



القطيع...

الأسنان سبر قطب

لظى الشمس ؟ أم فَوَّارَةٌ من جهنم
هو القيظ قد فارت ينابيع وقده
وضاق رواق الظل عنها وأرسلت
فقال إلى الراعى الشطوطِ قطيعه
وناجاه ، ويح الظلَّ إن نحن لم نَمِلْ
عيننا بهذا الضرب في كل حرَّة (١)
وما أنت - لو تدرى -- برايح صفة
نسير بصحراء الحياة ، ولا نرى
يسخرنا من لا نراه ، لغاية
فيأبها الراعى هدوما وهينة
فقال به الراعى إلى ظل دوحة

تسيل شظاياها ، وتنضحُ بالدم
وفاضت على الأرضين في كل بجثم
من الشمس أرسالُ إلى كل مبهم (٢)
يث رجاء في ثغاء متمم
إليه ، ويا بنساء سعيًا لمغرم
وراء ذماء من شراب ومطعم
ولا نحن ؛ إنا كلنا ذلك العيم
سوى ظننا ، يطغى على كل معتم
يراها ، ولم تؤذَن بها أو نفهَم
إلى الظل نرتع لحظة أو نهوم
ظليل ، وعشب ثابتٍ قرب جدول

تناهى إليها الطير من وقدة اللظى
وألقي عصاه ، ثم ألقي بجسمه
وراغ إلى الماء القطيع كأنما
يعب ويستسقى بشوق ولهفة

وثاب إليها الظل في غير معجل
وقد ضاقت بالآئين طول التنقل
تدهذه (٣) جرف من بطيح مززل
ويفعم ريثًا من معلٍ ومنهل

(١) جمع رسل ، وهو الفوج .

(٢) الأرض ذات الحجارة السوداء وهي عادة حارة ومن هنا كانت التسمية .

(٣) اهتز واللفظ نفسه يصور الاهتزاز .

فلما ارتوى آوى إلى الظل مُجْهِدًا وقد خلّ في أعضائه كلُّ مفصل
فنام على الأعشاب ، ما إن ترى له رؤسٌ ، فقد دُستْ بأحناء مدخل
توحد جسم الشتاء كالزردِ التقت مدّاخلة ، وانساب جم التسلسل (١)
كأن شاء ذباك القطيع تَوَحَّدًا فأغفل ذاك الرأس رمزَ التعقل (٢)
وياطلما قد فَرَّقَ الناسَ رأسهم وما يقتضيه من طَراح ومأمل

وطافت على الراعى رؤى عسجدية وجالت به الأحلام كلَّ بحال
لقد هبط الوادى فألفاه جَنَّةً بما فيه من خفض وهدأة بال
وماء غزير النبع سلسال منهل يحف به عشب وفيض ظلال
ويا حبذا نفح النسيم وطيبه ورياه من رفق به وبلال
ألا إنه هذا النعيم ، وإنها هى الجنة الفيحاء خلق خيال !
وقد غادر الوادى إلى الغاب ، ياله من الخوف فى هَوَلٍ به وصيال
يزجر فيه الوحش من كل فائك قد اختلطت أصواته كعوال
وتعصف فيه الريح ، ياهول عصفها زئير أسود ، أو خفيح صلال
فَهَبْ مفيقا ، يستبين حياته ليوقن أن لم تصطم بوبال (٣)
فألنى قطع الشاء يدعو فضيله إلى التدنى ، فى صوتٍ يجلجل عال

- (١) حينما يحجم القطيع بدس رؤسه بين أجسامه فلا يرى الرأى إلا اجساما متداخلة كالزرد .
(٢) كأنما يريد القطيع بدس رؤوسه أن يخفى رمز التعقل فيه وهو رمز الفردية فلولوا العقل ما كان التمييز والفرد .
(٣) حينما يستيقظ الإنسان من حلم مرعب فاول ما يخطر له أن يتبين أنه ليس حقيقة .

وأطرق يستوحى الرؤى ويحها الرؤى إلى أين قد طافت به غير عالم ؟
 وأين من الوادى خطاه ؟ وإنها لآمال راج أو خيالات حالم !
 وأين هو الغاب الرعيب ؟ وإنه لآعياه تأويل الرؤى ، غير أنه
 فقال على ، أرغو له ، يستجيشه خواطره بالذكريات الهوائم (١)
 فرجع أنظاما من الغاب وزنها وألحانها نسيم الرياض الحوالم (٢)
 فأوزانها ذكرى ، وألحانها منى كذلك يشدو فى الورى كل ناعم (٣)
 وقد رقت الآصال واتسلت الصبا وصات مع الأرغول صوت السوائم
 فكان مزاج من جمال ووحشة ولذات موهوب وآلام غارم
 وغشى على الدنيا ظلام فهوتمت ونامت كطفل فى الغرارة هائم (٤)

(١) تنبعث الأحلام غالبا عن مصدرين : الآمال التى يتخيلها الانسان فى المستقبل
 ويرغب فى تحقيقها (الرغبات المكبوتة على رأى فرويد) ، والاحاسيس السابقة للفرد
 وللنوع كله وكذلك كانت أحلام الراعى ، أملا فى الوادى الخصب ورغبة ، وذكرى
 للغاب وطن الانسان الأول والراعى فى سذاجة ويثة يكاد عالمه ينحصر بين الوادى والغاب
 (٢) أحس الراعى باحساس مبهم بعد الحلم وشعر بالراحة ، وهو شعور طبيعى
 للحالم لأنه نفس عن نفسه بالأحلام .

(٣) يغنى الانسان أو يستعذب الغناء (والموسيقا عامة) لأنه مزيج من الذكرى
 والامل . ولعل هذه أغراض الفنون جميعا وعلّة استرواح النفوس لها .

(٤) و (٥) يفسرهما ما تقدم

(٦) الحياة كالطفل الغريب لأنها ستنام لتحلم ، وتستيقظ لتنشط وهى تكاد لاتعظ
 بأمس وحوادثه فتغير طريقها أو تمل جهادها !!!

الحان الليل

المؤلف: ستاز فايد العمروسي

والحان الليل ، فكرة حائرة مطمئنة ، عابسة مبتسمة ، وهي صورة من شعوري في ليلة من الليالي ، وما أظنها قصيدة يطرب لها الناس أكثر مما يتألمون منها .

الساعة القصوى . وهذا مضجعي .
 وكأن فيه مطاعنا تهوى دمي
 وكأنها الذكرى تحطم مهجتي
 ذكرى الليالي السود والأمل الذي
 كفتته بخواطري ومواهي
 كفتته بدموعه
 وتود شراً أن تنزق أضلعي
 وتسيل من ذوب المآقي أدمعي
 كفتته بشغاف قلبي الموجع
 ودفتته في النفس غير مودّع

يا ليلُ ستجل ما شهدت فأنني
 وأذبتُ فيك القلبَ في ريعانه
 يا ليلُ . تلك خواطري صرخت بها
 سجتُ فيك صحائفاً من مدمني
 ما بين تخاني ولحن توجعي
 نفسي . فهب لي الشعرَ واكتبها معي

لي فيك يا ليلي أمرُ خَواطري
 تخطو مع الأيام في خطواتها
 ليست تری أملاً فترجو مأملاً
 في أيّ معنى يا شُعاع تأملني
 أذكرني نجومَ الليل قبل رَحيلها
 وابعث إلى الدنيا نشيدا حائرا
 هي هذه الألحان ما انفجرت بها
 هي هذه الدنيا وما في سرّها
 تسرى بنفسي في أسي وتضرع
 وتبته في يديها لم ترجع
 لكنّها حيرى تطوف ولا تعي
 تذكي التَحرق في حايا أضلعي
 وسل الكواكب . أيها المبهجع ؟
 فيها ولحن في النشيد ورجع
 عرصات قلبي في خان موجد
 من نِقمة ، أو نعمة ، ونمتع

هي حكمة النفوس والكون الذي فيه نخير كل فكر ألمعي
هي صرخة الألهام والحس القوي ونفثة الروح الذي لم يخضع
هي سر أمل والامى التي لم يحوها قلب الزمان الأصم
هي كل معنى في الحياة. وأى معنى ناء عن فكرى ولم يتجمع ؟

سر من القدر الرفيع سرى به لحنى . ولكن لم يمر بمسمى
فسما على الأفلاك في عليائها وهوى على خلق هنالك هجع
فاحبس صدى الأنفاس في زفرائها حينا . وطأ طء هام رأسك واخشع
يا ليل يا من في ظلامك خاطري يسرى فيهلك سر كل مقنع
يا ليل يا من في أنينك لذتى تحيا . وألقى في أساك تمتع
أنافيك يا ليلي كخبرة خاطر تحفقت ورقت كلالك الأرفع
هي عيشة للشعر الذي أحيا به فتجمل يا نفس . أو فتصدع

في الريف

الأستاذ محمود غنيم

عشقوا الجمال الزائف المجلوبا وعشقت فيك جمالك الموهوبا
قدست فيك من الطبيعة سرها أنعم بشمسك مشرقا وغروبا
ولقد نزلت فاذكرت طفولتى وتمائى طوبى لعهدك طوبى
زعموك مرعى للنبات وليتهم زعموك مرعى للعقول خصيبا
فهى القرائح أنت مصدر وحيها كم بت تلهم شاعرا وخطيبا
حييت فيك الثابتين عقائدا والطاهرين سرائرا وقلوبا
والذاهبات إلى الحقول حواسرا عشى العفاف أمامهن رقبيا

قرار المجمع اللغوى فى المولد

المولد هو اللفظ الذى استعمله المولدون على غير استعمال العرب ، وهو قسمان :

- ١ قسم جروا فيه على أقيسة كلام العرب : من مجاز ، أو اشتقاق ، أو نحوهما ، كاصطلاحات العلوم والصناعات وغير ذلك . وحكمه أنه عربى سائغ .
- ٢ وقسم خرجوا فيه عن أقيسة كلام العرب : إما باستعمال لفظ أعجمى لم تعربه العرب ، وقد أصدر المجمع فى شأن هذا النوع قراره . وإما بتحريف فى اللفظ أو فى الدلالة لا يمكن معه التخريج على وجه صحيح . وإما بوضع اللفظ ارتجالاً .

والمجمع لا يميز النوعين الأخيرين فى فصيح الكلام .

لهذا كان لزاماً أن نبين أن أبناء دار العلوم وإن كانوا قد تآزروا على إنشاء ناد يجمع شتاتهم ، ويوحد كلمتهم ، ويكون صلة التعارف بين قديمهم وحديثهم ، كبيرهم وصغيرهم ، ومكان لهوهم البرى ، وسمهم الطريف ، وتندرهم وفكاهتهم . فإن هناك غرضاً أسمى ، ومقصداً أعلى ، وهو أن يكون مجمعاً علمياً أدبياً ، يتصدر بفضل الله وتعاقد أعضائه الحركة الأدبية واللغوية والثقافية فى مصر ، بل فى الشرق العربى ، وها هو ذا (تحقيقاً لهذه الأغراض) قد أعد حجراته لاجتماع لجان الجماعة وشعبها العلمية المختلفة ، كما نظم محاضرات الجماعة العامة التى تلقى فى مدرج دار العلوم : حفظاً للصلة بين الأم وأبنائها . وقد بدأت هذه المحاضرات منذ شهرين ، وستلقى ثلاث محاضرات فى هذا الشهر .

وإذا كان فى أيام كل شخص أيام سعادة ، وكانت لى فى حياتى أيام سعادة ، ومناظر سارة أخاذة ، فإن أسعد أيامى بلا مرء ، وأسر منظر سرى فى نفسى ، فخامر شغاف قلبى ، هو يوم عيد الأضحى : يوم افتتاح نادى دار العلوم الثانى ، إذ تسابق أبناء الدار على اختلاف طبقاتهم ،

وتباين أستاذهم ، ليجمعوا بين عيدين : عيد الأضحى وعيد افتتاح ناديتهم ، حتى ازدحمت حجرات النادى ، على رحبها ، وكثرتها بهم ، وكان منظرا رائعا تتجلى فيه ديموقراطية العلم الصحيح ، تجمع بين الأستاذ وتلميذه ، والابن وأبيه ، والرئيس والمزموس ، بل بعبارة أدق تجمع بين فرحة الأمل المحقق ، وغبطة المستقبل المرجو ، وكلهم فى ناديتهم زملاء متحابون . ما عرفت فى غير تلك اللحظات أن السرور يرسل الدموع ، وأن الفرح يبعث الخشوع ، حتى وجدتني فى مكان قصى منفرد ، ساجدا لله شكرا على هذا التوفيق العظيم .

اللجنة العلمية : شرف المهنة فى شعور أفرادها بواجبتهم نحوها ، ورقبها بتآزرتهم على خدمتها ، وتقديسهم لحقها . وقد كان هذا الشعور سمة أبناء دار العلوم الذين اضطلعوا بأعباء لغة الضاد أكثر من نصف قرن ، شعورا بالواجب للغة ، وتوفيرا على العمل ، وفى كل طبقة ابتكار وابتداع ، وإثمار . وليس ذلك فى حاجة إلى دليل . وكان من أهم أغراض الجماعة منذ التأسيس ، تأليف لجنة علمية جمعت أعلامهم ، لتوحيد جهودهم الكثيرة المفرقة .

١ - وقد بدأت هذه اللجنة عملها بقراءة القاموس المحيط للفيروز آبادى لاستخراج ما فيه من ألفاظ تتعلق بشؤون الحياة العامة ، ثم بالفنون والصناعات ، لاحتلالها محل الألفاظ الدخيلة والعامة ، التى يعبر بها فى الأغراض الجديدة ، وقد سارت اللجنة فى هذا المضمار خطوات موفقة وسينشر فى الأجزاء التالية من الصحيفة المنتشرة على الأقلام والألسنة .

٢ - ومن مقاصد هذه اللجنة العمل على إخراج كتاب الذخيرة لابن بسام ، وهو من أمهات كتب الأدب ، ولم يسبق طبعه لا فى مصر ولا فى الخارج . وبعد أن فحصت عنه اللجنة الخاصة ، رفعت مذكرة لمجلس

الادارة ، رجاء طبعه على نفقة الجماعة ، وقد وافق المجلس على ذلك ، وأخذت اللجنة في تهيئة الجزء الأول للطبع ، معتمدة في عملها على النسخة الخطية التي بدار الكتب المصرية .

٣ - قدم إلى هذه اللجنة الأستاذ محمود مصطفى الأستاذ بكلية اللغة العربية وعضو اللجنة كتاباً من تأليفه ، اسمه « كتاب الأعلام » وبعد أن راجعته لجنة علمية ، رفعت تقريرها عنه إلى مجلس الادارة ، فقرر طبعه على نفقة الجماعة ، وقد أخذ في طبعه فعلاً .

هذه خلاصة وجيزة لأعمال اللجنة العلمية ، وهي باكورة تبشر بتوفيق عظيم في تحقيق الأغراض التي وقفنا أنفسنا على خدمتها .

أعمال الجماعة لتحقيق أغراضها المادية : أدلت الجماعة عند تكوينها

لحضرات مكاتب الصحف بأغراضها ، وأوضحت أن الأغراض الجوهرية للجماعة هي الأغراض العلمية والأدبية والاجتماعية ، وأن الغرض المادي غرض ثانوي ، على أن ثانويته لا تقضى بتركه أو إهماله ، وإنما يعاضده ويحققه تقدير الرأي العام وأولى الأمر لما تقوم به الجماعة من الأعمال العلمية ، وما تحققه من أغراضها الجوهرية . وقد سرنا على خطتنا وصدق تقديرنا ، فبعد أن مضى على تكوين الجماعة قرابة عامين أسندت مقاليد وزارة المعارف إلى معالي الوزير أحمد نجيب الهلالي بك ، فتقدمت الجماعة بمطالب أفرادها إليه ، لإزالة ما حاق بهم من ظلم مزمن ، فقابل ظلامتهم بقبول حسن ، وعطف على مطالبهم أشرف عطف ، وأثنى - لو قدم - أجل الشاء على جهودهم المثمرة ، وراعه أن يقضى بعض نوابغهم ربع قرن في الدرجة السادسة . ثم توالى وفود أبناء الدار بتقديم ظلاماتها لمعاليه ، وعلى رأسهم أعضاء مجلس الادارة - وفود التعليم الحر - والموظفين الكتابيين ، ومدرسي مجالس المديريات ، وقد كان معالي الوزير يقابل كل

هذه الوفود برحابة صدر ، وعظيم تقدير لما حل بهم من غبن ، وحق بهم من حيف ، وانصب عليهم من ظلم . وقد حقق كثيرا من مطالبهم ، ووعد بتحقيق ما يمكن تحقيقه . ثم توج ماثره باختيار رئيس الجماعة عضواً في لجنة القدر (الكدر) .

ومن الجلى أنه لم يختره لشخصه أو منصبه ، وإنما اختاره لصفة واحدة ، هي أنه يمثل أبناء دار العلوم . وهذا لا شك أثر من آثار جمع الكلمة ، وتوحيد الوجهة ، واتفاق الغرض ، وقد عمل أعضاء اللجنة متعاونين مخلصين على تحقيق قرار معالى الوزير ، الذى أساسه المساواة بين جميع المعلمين ، والعمل على إنصافهم ، ورفعهم إلى الدرجة اللائقة بخدمة العلم ، ومربي أبناء الأمة ، التى نعتز بعزتها .

هذه خلاصة أعمال الجماعة فى سنتها الأوليين ، أختتمها بنداء حار ، أوجهه إلى مربي العاطفة ، ومهذبى الأخلاق ، ومتعهدى الوجدان ، أن تعملوا على النهوض بأنفسكم ؛ والسمو بأقداركم ، والاحتفاظ بمنزلتكم ، والمطالبة الدائبة الرشيدة المترفعة بحقوقكم ، وليس لذلك من سبيل إلا سبيل واحدة ، هي المحافظة على جماعتكم ، ولا محافظة عليها إلا بأن يفنى الفرد فى خدمة المجموع ، وأن ينسى نفسه فى ميدان الجهاد ، ولنذكر هذه الكلمة الحكيمة (ما استحق الحياة من عاش لنفسه فقط) .

أما الرئاسة فهى تكليف يجب أن يوزع ، وتشريف يجب أن يقتسم ، وقيادة تصدق عليها كلمة نابليون : إن كل جندى يحمل فى حقيقته عصا القيادة . ويسرنى أن أقول إن كل واحد منكم يجمع فى نفسه مؤهلات الرئاسة . فليتقدم إليها فى يوم ١٥ يونيو سنة ١٩٣٥ وأنا أعاهده على أن أكون كما كان خالد بن الوليد أخلص الجنود لأبى عبيدة عامر بن الجراح . ألا قد بلغت . اللهم اشهد . والسلام عليكم ورحمة الله .

أبو الفتح الفقى

هي حكمة النفوس والكون الذي فيه نخير كل فكر ألمعي
هي صرخة الألهام والحس القوي ونفثة الروح الذي لم يخضع
هي سر أمل والامي التي لم يحوها قلب الزمان الأصم
هي كل معنى في الحياة. وأي معنى ناء عن فكرى ولم يتجمع ؟

سر من القدر الرفيع سرى به لحنى . ولكن لم يمر بمسمى
فسما على الأفلاك في عليائها وهوى على خلق هنالك هجع
فاحبس صدى الأنفاس في زفرائها حينا . وطأ طء هام رأسك واخشع
يا ليل يا من في ظلامك خاطري يسرى فيهلك سر كل مقنع
يا ليل يا من في أنينك لذتى تحيا . وألقى في أساك تمتع
أنافيك يا ليلي كخبرة خاطر خفقت ورقت كلالك الأرفع
هي عيشة للشعر الذي أحيا به فتجمل يا نفس . أو فتصدع

في الريف

الأستاذ محمود غنيم

عشقوا الجمال الزائف المجلوبا وعشقت فيك جمالك الموهوبا
قدست فيك من الطبيعة سرها أنعم بشمسك مشرقا وغروبا
ولقد نزلت فاذكرت طفولتي وتمائى طوبى لعهدك طوبى
زعموك مرعى للنبات وليتهم زعموك مرعى للعقول خصيبا
فهى القرائح أنت مصدر وحيها كم بت تلهم شاعرا وخطيبا
حييت فيك الثابتين عقائدا والطاهرين سرائرا وقلوبا
والذاهبات إلى الحقول حواسرا عشى العفاف أمامهن رقبيا

سلبت عذاراك الدهور جمالها فبكت تريد جمالها المسلوبا

كست الطبيعة وجه أرضك سندسا
بُسطَ تظللها الغصون فأينما
وحتت على الماء الفروع كأنها
وبدا النخيل غصونه فيروزج
أرأيت عملاقا عليه مظلة
يارب ساقية لغير صباية
وحمامة سمع الفؤاد هتافها
والغيد تغمس في الغدير جرارها
سريان من بط ويض نهْد
وترى الجداول في الأصيل كأنها
يا بدر أنت ابن القرى وأراك في
ليل الحواضر أن طلعت غريبا

نشر السكون على القرى أعلامه
بدت الحياة هناك في ريعانها
ولقد ينام القوم ملء العين في
وهى السعادة كم أوت كوخا وكم
قالوا الحضارة قلت أسفر وجهها
فكاد تسمع للفؤاد وجيها
ولوانها سارت تدب ديبا
زمن يتقض مضاجعا وجوبا
هجرت أشم من القصور رحيا
وبدت محاسنها فكن عيوبها

ما ضرَّ أهلَ الريف ألا يحفلوا
ضمنت سلامتهم سهولة عيشهم
رضعوا رحيق السائمات ومادروا
وسرى شعاع الشمس في أبدانهم
بالطب أو لا يعرفوا المكروبا
وصفا هواؤهم فكان طبيبا
غير النмир وغيره مشروبا
فجرى بأوجهم دما مشبوبا

شمس القرى كست الوجوه نضارة أرأيت وجها في القرى مخضوبا
سر في الحقول تر الرياضة عندهم فنا وخطا عندنا مكتوبا

أكبرت في القروى صحة عزمه وحسبته في صبره أيوبا
ورأيت طيب النفس فيه سجية ووداده سهل المنال قريبا
فيه ترى الخلق الصريح ولا ترى ضحك النواجد بالحديعة شيئا
أنا لا أقول تشينه أمية كن خيرا لا كاتباً وحسبياً
كم ضل من أهل الحواضر قارىء فاغتال أعراضا وشق جيوبا
في الريف فتان تسيل جباههم عرقا فيصبح لؤلؤا مثقوبا
لا فتية مرذئة بأيدي بضعة في كل يوم يلبسون قشيبا
يذلوا المصر فوق ما في وسعهم ورضوا بما دون الكفاف نصيبا

العبد المثنوى لمدرسة المتصورة الابتدائية الأميرية

للمستاذ محمد محمد فنديل

لمن ذلك العيد الذي يفرغ النجاة ويفتح عين الدهر إن حاول النوما
لدار أقامت للحجا خير معقل وروّت بنينا في طفولتهم علما
رعته صغارا كالأزاهير في الضحا تراهم إلى ردهاتها انسجموا سحبا
إذا جاسوا في مجلس العلم شمتهم نجوم سماء لا ترى بينها غيما
صغار، وآمال الصغار كبيرة وبارب آمال تنيل الفتى حكما
وكم من صغير نوّر الله قلبه فأمل آمالا وحققها شهما
إذا أنت لم تأمل ولم تشق بالعلا فدع عنك دنيا قد أطشت بهما السهما

شمس القرى كست الوجوه نضارة أرأيت وجها في القرى مخضوبا
سر في الحقول تر الرياضة عندهم فنا وخطا عندنا مكتوبا

أكبرت في القروى صحة عزمه وحسبته في صبره أيوبا
ورأيت طيب النفس فيه سجية ووداده سهل المنال قريبا
فيه ترى الخلق الصريح ولا ترى ضحك النواجد بالحديعة شيئا
أنا لا أقول تشينه أمية كن خيرا لا كاتباً وحسبياً
كم ضل من أهل الحواضر قارىء فاغتال أعراضا وشق جيوبا
في الريف فتان تسيل جباههم عرقا فيصبح لؤلؤا مثقوبا
لا فتية مرذئة بأيدي بضعة في كل يوم يلبسون قشيبا
يذلوا المصر فوق ما في وسعهم ورضوا بما دون الكفاف نصيبا

العبد المثنوى لمدرسة المتصورة الابتدائية الأميرية

للمستاذ محمد محمد فنديل

لمن ذلك العيد الذي يفرغ النجاة ويفتح عين الدهر إن حاول النوما
لدار أقامت للحجا خير معقل وروّت بنينا في طفولتهم علما
رعته صغارا كالأزاهير في الضحا تراهم إلى ردهاتها انسجموا سحبا
إذا جاسوا في مجلس العلم شمتهم نجوم سماء لا ترى بينها غيما
صغار، وآمال الصغار كبيرة وبارب آمال تنيل الفتى حكما
وكم من صغير نوّر الله قلبه فأمل آمالا وحققها شهما
إذا أنت لم تأمل ولم تشق بالعلا فدع عنك دنيا قد أطشت بهما السهما

إذا أنعش الله الطفولة بيننا
أفيضوا على الأطفال منكم رجولة
على الطفل تبنى المكرمات جميعها
إذا رغبت مصر السعادة والغنى
فما عندها إلا الأزاهير غضة

ومنها : -

ودار بنتكم قد بناها محمد
همو نهضوا بالعلم وهو بهم جرى
وهم^(١) بعثوا الفصحى وفكروا عقلاها
يقولون عيت بالبيان وأفلست
لقد كذبوا، ما أفلست يوم أفلسوا
لقد وسعت عصر الرشيد وسائرت
وكم عاضدت ملكا فدام منما
وكان لها يوم السقيفة^(٢) موقف
أعاهد ربى أن أعلم أمتى
أشيد بهم في صرح مضر رجولة
ولى أمل في جانب النيل واسع

وشاد بنوه بعده الشرف الجما
إلى غاية فوق السماكين أو أسمي
وشادوا لها في ملكهم حسابا خما
وأمت لدى أهل الثقافة طلسمًا
ولكنهم صموا، وهل تسمع الصمًا؟!
نهوض بنى العباس واحتوت العلبا
وكم أهدرت ملكا فأعقبت الهدما
أفاض على الصحب التسكينة والسلاما
وأن أهب الطلاب لحى والعظما
وأحى بهم مصرا إذا لقيت ظلما
يحققه إن مت من أوقظ اليوما

(١) دفاع عن اللغة العربية .

(٢) سقيفة بنى ساعدة .

نشيد الولاء للمليك المعظم

ألفت هذا النشيد فرقة مرشدات مدارس جمعية السلام القبطية في حفلتها الكبرى
بدار الأوبرا الملكية في يوم ٩ مايو وقد وضع موسيقاه الأستاذ شفيق زاهر
وكان إخراجه على هيئة الهرم الأكبر وقد زين برسم جلالة الملك المعظم بجواره
الهرمان الآخرا

يا بنى النيل السعيد يا منارا للوجود
قدسوا عهد الجدود وانشدوا لحن القلوب

القرار

عاش مولانا فؤاد كعبة للوافدين
وليدم عرش البلاد في ضمان الخالدين
شاد إسماعيل داره فازدهى نجم الحضاره
فاحرسوا تلك المناره وانشدوا لحن القلوب

القرار

تلك آيات البقاء زانها رمز العلاء
فارفعوا صوت الولاء وانشدوا لحن القلوب

القرار

صاحب التاج المقدى تاجه بالروح يفدى
فاحفظوا للعرش عهدا وانشدوا لحن القلوب

القرار

كم بنى للعلم صرحا وأسى للنيل جرحا
فانظموا الأرواح مدحا وانشدوا لحن القلوب

القرار

إن مصرا ترجينا فلتكن للروح ديننا
وليعش فاروق فينا بين حبات القلوب

مقطوعة غنائية

ألقيت في دار الأوبرا الملكية في يوم ٩ مايو وقد وضع موسيقاها الأستاذ
السنباطي وتغنت بها المطربة الأنسة نجاة على

يا نجوم الليل هذى مهجتي ذاب فيها الوجد أو كادت تذوب
ترسل الشكوى فتسرى أنتى تحمل الشوق إلى دار الحبيب
فيما جى الكون فيها وحدتى وترى حيرى كأحلام الغرب
فاسعديها يا نجوم إنها لحن الفؤاد
شاع في ليل الهموم بين أشجان السهاد

وغدا القلب دموعا بعد ما غاض من عيني فياض الدموع
فبدا الأفق غريقا فيهما يالعينى من القلب الولوع
وبدا الكون ظلاما كلما عصف الشوق بأحشاء الضلوع
فأشفعى لى يانجوم فى هوايا بالهوان
وابعدى هذى النجوم عن عيونى بالحنان

على الجبهر طى
الطالب بدار العلوم

ملا بسنا في كتب اللغة^(١)

— ٢ —

بفلم الأستاذ مصطفى السقا

المحرر بمجمع اللغة العربية الملكي

الدراعة : Chemisette المِدرَعة : Jacquette المِدرَعة : Palcot

المخصص : الدراعة والمِدرَعة : ضرب من الثياب ، وهي جبة مشقوقة
المقدم . والمِدرَعة : ضرب آخر ، ولا يكون إلا من الصوف خاصة . وقد
تدرعت مدرعتي .

اللسان : الدراعة والدرع : ضرب من الثياب التي تلبس ، وقيل جبة مشقوقة
المقدم والمدرعة ضرب آخر . ولا تكون إلا من الصوف خاصة . وتدرع مدرعة
وادرعها وتدرعها .

الناج : والمِدرَعة (ككنسة) : ثوب كالدرِاعة ، ولا يكون إلا من صوف
خاصة : قاله الليث . وقيل الدراعة : جبة مشقوقة المقدم . وأنشد أبو ليلى لبعض
الأعراب :

يوما لخلاق^(٢) ويوما للبال مشعراً يوما ويوما ذيتال

مِدرَعة يوما ويوما سربال

ومنه حديث أبي الدرداء رضي الله عنه : فوضأته وعليه مدرعة ضيقة الكم ،
فأخرج يده من تحت المدرعة ، فتوضأ .

هذه ألفاظ ثلاثة مشتقة من مادة واحدة ، وقد نصوا في المعاجم أنها مختلفة في
الصفة أو في الصنعة ، ولكننا نظن أن الاختلاف بينها في الصفة لا يعدو أن يكون

(١) راجع المقال الأول في صحيفة دار العلوم ، العدد الرابع ، السنة الأولى

الصفحات ٩٧-١٠٨ (٢) وفي رواية : لخلاق .

كالاختلاف في الصنعة ، فهي تدل على ضروب من الملابس قريب بعضها من بعض في الشبه ، ولما كانت المعاجم لم تشرح هذه الألفاظ الشرح الذي يحدد معناها بالدقة ، رأينا أن نلجأ إلى الاستنباط في تعرف حقيقتها . وأول ما ننبه عليه أن المخصص واللسان قالا إن الدراعة والمدرع شيء واحد ، وأن المدرعة ضرب آخر ، أما شارح القاموس فقد تبع صاحب القاموس ، فأهمل المدرع جملة ، وأحل محله المدرعة : وجعلها مساوية للدراعة ، ولا ندري أمن قبيل الغلط ذلك أم نقل صحيح انفرد به ؟ فإذا حملناه على الصحة خرجنا من البحث بأن الألفاظ الثلاثة متساوية المدلول ، ولم نعبأ بقول المخصص واللسان إن المدرعة ضرب آخر أي غير الدراعة والمدرع . وعندنا بعد ذلك قولهم في المدرعة (وقيل جبة مشقوقة المقدم) فهذا الوصف يقرب لنا معنى الكلمات الثلاث كثيراً ، ويضعها في دائرة خاصة ، بعد أن كانت ضرباً من الثياب غير معلوم الصفة ولا الهيئة ، فالجباب من الملابس المعروفة الباقية إلى عصرنا هذا . وهي من الملاحف التي تلبس فوق سائر الملابس . وقولهم (ولا تكون إلا من الصوف خاصة) صفة أخرى تساعد على اعتبار المدرعة وما ساواها . من ألفاظ من الملابس الخارجية (الملاحف) التي تلبس للزينة أو لانتقاء البرد .

وغايتنا من هذا البحث أن ننتفع بهذه الألفاظ الثلاثة العربية العذبة ، فنطلقها على مشابه لها من أزيائنا التي استعرتها من الزي الأجنبي . فنطلق الدراعة على ما يسمى (الشمينيت) وهو ماخف للنساء إلى نصف الجسم ، لكننا لا نعني به المتخذ من الصوف خاصة ، وإنما نطلقه على ما يتخذ من الصوف وغيره كالحرير ونحوه .

ونطلق المدرع على ما يسمى (الباطو) وهو أطول من الدراعة وقد يصل إلى الركب أو أسفل منها ، ولا نقصره على زي النساء ، وإنما يسمى به ما يلبسه الرجال من هذا النوع .

ونطلق المدرعة على (الجاكتة) وهي جبة مشقوقة المقدم من الصوف غالباً إلى نحو نصف الجسم أو تحته بقايل ، وهي من ملابس الرجال دون النساء .

وقد يشفع لهذا النحو من التخصيص الذي توخيناه في الألفاظ الثلاثة مانجده من شبه قوى بين مدلولات (الشميزت والبالطو والجاكت) والدرع الزردية، فإن الألفاظ الثلاثة كأنها الدرع للابسها تقيه من آثار الأجواء كمانتي الدرع صاحبها من سهام الأعداء. هذا إلى ما بينها من شبه في الصورة والهيئة، فإن من الدرع ما هو سابغ يغطي الجسم كله وذلك يشبه (البالطو) ومنها ما يكون قصيراً يقي البدن دون سائر الجسم. وهذا يشبه (الشميزت والجاكتة).

وقد ذكر صاحب السعادة المرحوم أحمد تيمور باشا (الجاكتة) في معجم العامية المصرية، وقال إن المجمع العلمي العربي بدمشق وضع لها كلمة (الرداء) واستحسن هذا الوضع، ثم ذكر لفظين آخرين يرادفان الجاكتة، وهما الجُمَازة والنصفية، وبعد ما أورد الشواهد الشعرية قال: تدل آيات الجزار على أن نصفيته كانت من نسيج أبيض تغسل وتدق وتسقى بالنشا.

ثم قال: واللفظ صحيح وإن كان مولد الوضع، وعدم وضوح المراد منه وضوحاً شافياً غير مانع من إطلاقه على (الجكتة) إذا أردناه، أو إطلاقه على (القميص الأفرنجي) لأنه يستر النصف، ويغسل ويسقى بالنشا ويكوى كنصفية الجزار، فنستغنى بكلمة عن كلمتين. اهـ

أقول إن التواضع والاصطلاح لامشاحة فيهما، ولكننا نضع كل الألفاظ الصالحة بين يدي الجمهور. ليتخير منها ما يخف على السمع، وما يعذب في النطق.

السَّرْبَال: (القميص الأفرنجي) Shirt

المفردات: السربال القميص من أي جنس كان.

النزابة: في حديث عثمان: «لا أخلع سربالاً سربلنيه الله». السربال:

القميص وكنى به عن الخلافة، ويجمع على سرايل. ومنه الحديث: النوائح عليهن سرايل من قطران، وقد تطلق السرايل على الدروع. ومنه قصيدة كعب ابن زهير:

شم العرانيين أبطال لبوسهم من نسيج داود في الهييجا سرايل

المصباح : السربال . ما يلبس من قميص أو درع ، والجمع سرايل . وسربله السربال (قسربله) بمعنى : ألبسته إياه فلبسه .

المسألة : السربال : القميص والدرع ، وقيل : كل ما لبس فهو سربال . يفهم من هذه النصوص أن السربال يطابق على درع الحرب . وعلى القميص من أى نوع كان ، وعلى كل ما يلبس . والمعنى الثانى أظهر من الثالث لأنه يضع السربال فى قسم القميص ، أما المعنى الثالث فلا يجعله محدود المعنى ، ولا ظاهر المدلول .

ويمكن أن نعتبر السربال نوعا خاصا من القمصان ، هو ما نسميه : (القميص الإفرنجى) وإن كان فى الأصل صالحا لكل قميص . لأن شيوع اللفظ وعمومه يجعله غير صالح لناحية ما ، ولذلك لا يستعمل الأدباء والكتاب كلمة سربال وجمعها سرايل مع خفتها وعذوبتها : لأن السربال بحسب ما ورد فى المعاجم لا يدل على شئ معين من ملابس الناس ، ونخشى إذا ظل هذا اللفظ على عمومته أن يطول أمد هجرانه ، فلا يرد على الأقلام والألسنة فى غير القرآن والشعر القديم .

أما إذا خصصناه بما يسمى الآن (القميص الإفرنجى) فقد ضمنا له حياة طويلة قوية : لأنه سيد كر كل يوم مئات المرات على ألسنة الناس وأقلامهم . وقد يقول معترض إن هناك إبعادا فى تسمية القميص الإفرنجى سربالا فإن هذا القميص ملبس حديث لم يعرفه العرب ، فخرى ألا يكون له اسم فى لغتهم ، ونحن مع تسليمتنا بهذا نرى أن كثيرا من الألفاظ كان لها دلالات خاصة عند الوضع الأول ، ثم نقلت فى عصور التاريخ من معنى إلى معنى على حسب الحاجة ، وباب المجاز باب قياسى مفتوح ما بقيت العربية ، وبحسبنا أن السربال هو القميص فى جميع معاجم اللغة ، فإذا نقلناه من القميص العام إلى قميص خاص . لم يكن فى ذلك تكلف ولا إبعاد .

وفائدة ذلك أننا نستغنى بكلمة واحد . عن كلمتين . ليتسیر تداول اللفظ فى فصيح الكلام .

الطَووق - (الياقة = Col)

مخنار المصباح : الطوق : واحد الأطواق . وطَووقه فتطوق : أى ألبسه الطوق . والمطوقة : الحمامة التى فى عنقها طوق .

المصباح : وطوق كل شيء : ما استدار به ، ومنه قيل للحمامة ذات طوق . اللسان : الطوق . حلى يجعل فى العنق ، وكل شيء استدار فهو طوق وقد طوقته فتطوق أى ألبسته الطوق فألبسه : وقيل : الطوق ما استدار بالشيء ، والجمع أطواق والمطوقة : الحمامة التى فى عنقها طوق .

مفردات الراغب : أصل الطوق : ما يجعل فى العنق حلقة كطوق الحمام ، أو صنعة كطوق الذهب والفضة ، ويتوسع فيه ، فيقال طوقته كذا كقولك قلده . أقول : هذه النصوص تدل على أن الطوق شيء مستدير حول شيء ، وبعضها يدل على أن الطوق شيء يلبس حول العنق ، ومنه المثل : (شب عمرو عن الطوق) (١) ويقال للحمامة مطوقة وذات طوق . ونحن نستحسن أن نطلق كلمة الطوق على ما نسميه فى هذا العصر (الياقة) وقد يسمى بالسان الفرنجة (Col)

وقد سبق بعض الأدباء إلى تسمية (ياقة القميص) بالزيق : استنادا إلى نصوص المعاجم . قال فى اللسان . « وزيق القميص : ما أحاط بالعنق ، . ولا مانع أن نطلق كلمة الزيق فى هذا العصر على (الياقة) المخيطة فى القميص تكون عرض الإصبع تقريبا . أما (ياقة) القميص الأفرنجي ، و (ياقة) الملابس الخارجية من نحو المدرع والمدرعة فغير كلمة لها فى ظننا هى (الطوق) .

الأرْبَبة = المَعْنَقَة : Cravate

اللسان : الأرْببة العقدة التى لا تتحل حتى تحل حلا . وقال ثعلب : الأرْببة العقدة ولم يخص بها التى لا تتحل .

(١) هو عمرو بن عدى ، وهذا المثل مشروح فى تاج العروس فارجع إليه .

والأربة : قلادة السكب التي يقاد بها ، وكذلك الدابة .

الأساس : وتأربت العقدة : توثقت ، وأربتها : وثقتها .

القاموس : الأربة (بالصم) : العقدة ، أو التي لا تتحل حتى تحل . والقلادة .

القاموس : والمعنقة (كمكنسة) : القلادة .

المسار : والمعنقة : قلادة توضع في عنق الكلب ، وقد أعنقه : قلده إياها .

وفي التهذيب : والمعنقة : القلادة ولم يخصص .

هاتان الكلمتان العريتان (الأربة والمعنقة) ظاهرتا المدلول ، وهما صالحتان للتعبير عما يسمى بلسان الفرنجة (Cravate) بطريق التشبيه لأن (الكرافات) من بعض الوجوه هو عقدة لا تتحل حتى تحل ، أو هو كالقلادة ، وكذلك المعنقة قيل في شرحها إنها القلادة مطلقاً . وقد سبق بعض الأدباء إلى وضع كلمة (الأربة) لهذا الذي يربط حول الرقبة في الزي الأوربي ، ونحن لا نرى بذلك بأساً ، ونضيف إلى ذلك كلمة (المعنقة) التي عثرنا عليها في قراءتنا الخاصة في كتب اللغة . والفظتان تكادان تتساويان في نظرنا ، لأن لكل منهما فعلاً من مادتهما ، كما أن لكل صيغة جمع قياسية ، فيسهل استعمالها وتصريفها في أساليب الكلام . فانطلقتها في الاستعمال ، والزمان وحده كفيل ببقاء الأصلح للبقاء .

المِبْدَل = المَبْدَلَة : (Pyjama)

فقه اللغة : والمبدلة : ثوب يبتذله الرجل في منزله .

الأساس : وخرج علينا في مبادله وفي ثياب بدلته . والرجل يَبْدَلُ في منزله .

المسار : قال ابن برّتي : أنكر على بن حمزة مبدلة ، وقال مبدل بغير هاء ،

وحكى غيره عن أبي زيد مبدلة . وقد قيل أيضاً مبدعة ومعوزة عن أبي زيد :

لواحدة الموادع والمعاوز ، وهي الثياب والخلقان ، وكذلك المبادل ، وهي الثياب

التي تبتذل في اللباس . ومبذل الرجل وميدعه ومعوزه : الثوب الذي يبتذله ويلبسه .

أقول : المبذل (على رأى على بن حمزة) والمبذلة (على رأى أبى زيد) تصلح لما نسميه اليوم (بيجاما) لأنها ثوب يلبسه الرجل ويبتذله في منزله ، وهى من ملابس المترفين ولكن اللفظ صادق أيضاً (بالجلية) التي لا يزال يلبسها أبناء البلد الذين لم يمعنوا في التشبه بأهل التمدن الحديث ، فإذا قصرناها على (البيجاما) ذات الشكل الخاص ، وهى مؤلفة من مدرعة وسراويل ، كان ذلك من قبيل تخصيص العام ببعض ما يصدق عليه . وهو مجاز مقبول .

وقد أطلق بعض (١) الكتاب المعاصرين على (البيجاما) كلمة منامة ، ولكننا نرى أن المنامة ليست من الثياب التي تلبس ، وإنما هى من الأغطية التي يتدثر بها في النوم . قال الثعالبي في فقه اللغة : المنامة والقرطف والقטיפفة : ما يتدثر به من ثياب النوم .

وفي لسان العرب : والمنامة : ثوب ينام فيه ، وهو القטיפفة . قال الكميت :

عليه المنامة ذات الفضول من القهز (٢) والقرطف (٣) المخمل
وقال آخر :

« لكل منامة هذب أصير »

أى متقارب .

فقد وصف المنامة بأنها ذات فضول وخمل متقارب ، وأخر بأن يكون المراد بهذه المنامة ما نسميه (البطانية) .

(١) هو صاحب العزة محمد كرد على بك عضو مجمع اللغة العربية الملكى . وقد نشر جريدة ألقاظ في الصحف العربية ، وفيها المنامة (البيجاما) .

(٢) في اللسان : القهز والقهزى ضرب من الثياب تتخذ من صوف كالمزعزى .

(٣) وفي اللسان : القرطف : القטיפفة المخملة . الأزهرى في ترجمة قرطف : القرطف

فرش مخملة . وفي حديث النخعي في قوله : (يا أيها المدثر) أنه كان متدثراً في قرطف : هو القטיפفة التي لها خمل .

الجمّازة = البدن = Jersey

المفصّل : الجمّازة : ذراعة قصيرة من صوف .

الرواية : وفي الحديث أنه توسّأ فضاّق عن يديه كمّما جمّازة كانت عليه .
الجمّازة : مدرعة صوف ضيقة الكمين .

التاج : الجمّازة (بالضم) ذراعة من صوف . وبه فسر الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم توسّأ فضاّق عن يديه كما جمّازة كانت عليه ، فأخرج يديه من تحتهما .

اللسان . البدن : شبه درع إلا أنه قصير قدر ما يكون على الجسد فقط ، قصير الكمين . ابن سيده : البدن : الدرع القصيرة على قدر الجسد ، وقيل هي الدرع عامة . والجمع أبدان . وفي حديث مسح الخفين : فأخرج يده من تحت بدنه : استعار البدن هنا للعبة الصغيرة تشبيها بالدرع . ويحتمل أن يريد من أسفل بدن الجبة ، ويشهد له ما جاء في الرواية الأخرى ، فأخرج يده من تحت البدن .
هذه النصوص في مجموعها تدل على أن كلا من الجمّازة والبدن ثوب قصير يغطي نصف الجسم ، كما تدل على أنه يكون من الصوف .

أما وجه الخلاف بينهما فإن الجمّازة ضيقة الكمين ، والبدن قصير الكمين ، ومن هذه الصفات نستطيع أن نطلق الجمّازة على ذلك القميص الصوفي الذي يكون مشقوق المقدم أحيانا وغير مشقوق أحيانا ، ويكون له كان ضيقان ، وهو ما يسمى في الانكليزية (Jersey) .

أما البدن فنطلقه على نوع آخر منه يكون بلا كمين .

وقد آثرنا أن نخص كل نوع باسم لوجود لفظين في اللغة العربية يؤيدان هذين المعنيين . ولأن تخصيص كل نوع باسم من المطالب التي ندب إليها مجمع اللغة العربية الملكي لتقليل الاشتراك في الألفاظ : لأن الاشتراك من أسباب الغموض في كثير الأحيان .

الأَصْدَة = الأَصِيدَة = المؤَصَد :

Robette

اللسان : ابن سيده — الأَصْدَة والأَصِيدَة والمؤَصَد : صدار تلبسه الجارية ، فإذا أدركت درعت . وأنشد ابن الأعرابي لكثير :
وقد درَّعَوها وهي ذات مؤَصَد محبوب ولما تلبس الدرَّع ريدها
وقيل : الأَصْدَة ثوب لا كمي له تلبسه العروس والجارية الصغيرة .

تاج المروسي : الأَصْدَة (بالضم) : قميص صغير للصغيرة ، وهي صدار تلبسه الجارية ، فإذا أدركت درَّعت ، أو يلبس تحت الثوب . . . وقال ثعلب :
الأَصْدَة : هي الصَّدْرَة . وقيل الأَصْدَة : ثوب لا كمي له تلبسه العروس والجارية الصغيرة .

هذا بعض ماورد في تفسير الأَصْدَة وهي الأَصِيدَة (كقصيدة) والمؤَصَد كعظم أيضا . ونحن أميل إلى قبول التفسير الأخير الذي في عبارتي اللسان والتاج ، فيجوز أن نطابق أحد هذه الألفاظ الثلاثة على الثوب القصير الذي لا كمي له تلبسه الصبيات ، وهو ما يسمى في بعض اللغات الإفرنجية (Robette) وهو تصغير لكلمة (Robe) التي وضعنا لها في المقال السابق كلمة دِرْع ، وعلى ذلك يكون معنى قول كثير المذكور آنفا :

وقد درَّعَوها . . . الخ أي إنهم ألبسوها الدرَّع وهو الثوب الذي تلبسه النساء (الجليلة) مع أنها لا تزال صغيرة لم يلبس ترينها الدرَّع .
ولا يقدح في هذا التخريج قولهم : (تلبسه العروس) فإن العروس إذ تكون في الجلوة أن تكشف عن محاسنها ، وتبدى زينتها لعروسها ، فلا تجعل لثوبها كمين ، ولا تبالي في تطويل ذيله ، فيكون شأنها شأن الجارية الصغيرة التي تلبس قصير الثياب وما لا كمي له . هذا على اعتبار الأَصْدَة من الملابس الخارجية أما إذا اعتبرت من القمص والملابس الداخلية كما يفهم من قول صاحب التاج : (أو يلبس تحت الثوب) فإن من شأن هذا النوع في الغالب القصر وعدم الأكام .

البَقِير = البَقِيرَة (الحرْملة) = Pelerine

الاسامه : والبَقِير والبَقِيرَة : بُرْدِشَق فيلبس بلا كمين ولا جيب . وقيل هو الإِتَب . الأصمعي : البَقِيرَة أن يؤخذ بردفِشَق ثم تلقيه المرأة في عنقها من غير جيب ولا كمين . والإِتَب : قميص لا كمين له تلبسه النساء .

أقول : تدل مادة البقر في كتب اللغة على الشق ، والبَقِير والبَقِيرَة : بُرْد مشقوقٌ ، فهما فعيل بمعنى مفعول . والبرد كما قال ابن سيده : ثوب فيه خطوط ، والبردة : كساء يلتحف به . وقيل إذا جعل الصوف شقة ولها هدب فهي بُرْدَة . وجمعها بُرْد ، وهي الشملة المخططة .

وقول الأصمعي : أن يؤخذ برد الخ كالصرح في أن المقصود بالبَقِيرَة مانسميه في هذا العصر بلسان العامه (الحرْملة) ، ويقابله في بعض لغات الافرنج كلمة (Pelerine) .

أما قولهم إن البرد ثوب فيه خطوط ، فيحمل على أن الأصل فيه ذلك توسعا ، وعلى هذا لا يمتنع أن تكون البَقِيرَة ذات لون واحد أسود أو غيره .

التَّبَّان = (لباس البحر) Culotte de Mer

الزهاية : التَّبَّان سراويل صغير يستر العورة المغلظة فقط ، ويكثر لبسه الملاحون وأراد به هنا السراويل الصغير ، ومنه حديث عمار أنه صلى في تَبَّان . القاموس : التَّبَّان (كرمان) سراويل صغير يستر العورة المغلظة . والتَّبَّان كاقْتعل : لبسه .

الاساس : ورأيت تَبَّانا يلبس تَبَّانا ، وهي سراويل صغيرة . وتَبَّته : ألبسه إياه .

الاسامه : والتَّبَّان (بالضم والتشديد) : سراويل صغير مقدار شبر : يستر العورة المغلظة فقط ، يكون للملاحين . . . وقيل — التَّبَّان : شبه السراويل الصغير

وفي حديث عمر : صلى رجل في ثُبَّانٍ وقيص ، تذكره العرب ، والجمع ثَبَاين .
المصباح : الثبان : فُعَّال : شبه السراويل وجمعه ثباين . والعرب تذكره
وتؤنثه ، قاله في التهذيب .

يؤخذ من هذه النصوص أن إطلاق الثبان على ما نسميه الآن (لباس البحر)
مناخ لا اعتراض عليه ، فقد أجمعت نصوص الكتب عليه أنه سراويل بلا ساقين
يستر العورة وحدها ، وزاد بعض الكتب أنه يكون للملاحين ، وفي النهاية
(يكثر لبسه الملاحون) أي فلا مانع أن يلبسه غيرهم . ونسبة لبسه للملاحين
قرينة على أن يلبس في البحر ، وهذا ما أردناه من تخصيصه (بلباس البحر) وإن
كان اللفظ في الأصل عاما .

الدقار = الدقارة = الدقور = الدقورة = Culotte

النهاية : وفي حديث عبد خير قال : رأيت على عمار دقارة وقال إني ممثون .
الدقارة : الثبان ، وهو السراويل الصغير الذي يستر العورة وحدها . والممثون .
الذي يشكى مثاته .

المخصص : أبو عبيد : الدقار : الثبان . ابن دريد : وهو الدقور .

الناج : والدقارة : الثبان ، كالدقار بغير هاء ، وهي سراويل صغير بلا
ساق يستر العورة وحدها والدقارة يطلق ويراد به السراويل أيضا .
كالدقور والدقورة بضمهما والجمع : الدقارير .

خلاصة هذه النصوص أن الألفاظ الأربعة تطلق على شيئين : الثبان . وهو
الذي خصصناه (بلباس البحر) ، والسراويل مطلقا . والذي نريده هنا أن نخصص
هذه الألفاظ بالسراويل القصيرة التي لا ساق لها يلبسها النساء غالبا ، وقد يلبسها
الرجال ، وهي غير الثبان الذي يلبس عادة عند التجرد على شواطئ البحار . ويسمى
هذا في بعض اللغات الأوربية (Culotte) .

عشرات الأعلام

- ١ -

بقلم الأستاذ المتولى قاسم

المدرس بمدرسة محمد علي الملكية للبنات

لقد نهضت الكتابة العربية في العصر الأخير نهضة مباركة ، نرجو أطرادها ، حتى تبلغ اللغة من الرقي أوج الكمال ، وآية ذلك أنك ترى كثيرا من أنهار الصحف اليومية ، والمجلات الأسبوعية ، تفيض بمقالات ممتعة شائقة ، تمتاز ببراعة الأسلوب مع دقة المسلك ، ووضوح المذهب مع لباقة التعبير ، وأستقامة الحججة مع قوة البيان ؛ غير أن هذه الأساليب البارعة قد ينقصها التحري لمواطن الصواب ، في بعض الكلمات والعبارات ، فلكم تقع في المقالة الجيدة السبك كلمة أو عبارة ، تتجافى عنها قواعد اللغة ، وتأبأها قوانينها المطردة ؛ فتتقص من حسنها ، وتغض من جمالها ، كالرقة ذات اللون المخالف في الثوب الجميل .

وإن الناشئين من الكتاب والشعراء ، ليحاكون كبارهم ، وينشئون - بقدر المستطاع - على غرارهم ، فيسرى الخطأ في كتابتهم ، ويصبح بالمرانة عادتهم ؛ وفي ذلك من الجناية على اللغة ما فيه ؛ ومن العقوق لها أن نرضى بهذه الحالة ، ونسكت عليها ؛ لذلك نورد هنا بعض ما لاحظنا من انحراف عن سنن العربية ، ونكشفه عن وجه الصواب ، الذي يجب اتباعه وترك ما عداه .

(١) جمع (غَيُور) وأشباهه

من القواعد المطردة أن كل وصف على وزن (فَعُول) بمعنى فاعل يستوى فيه المذكر والمؤنث ، فلا تلحقه تاء التأنيث إذا كان للواحدة . من ذلك قولهم :

فتاة لعُوب ، وامرأة ولود ، وأمّ رموم ، وأخت ودود ، وناقاة صبور ،
وقافية شرود ، وقول امرئ القيس ، يصف محبوبته بالنعمة والترف وعدم الإمتحان
في الخدمة :

وَيُضْحِي قَتِيْتُ الْمَسْكِ فَوْقَ فِرَاشِهَا تُؤْمُ الضَّحَا ، لم تنتطق عن تفضل
وقول الخطيئة في الانتقال من التشوق ، إلى وصف الناقاة :

فَهَلْ تُبَلِّغُنِيكِ عِرْسُ صَمُوتِ السَّرَى لَا تُشْكِي الْكَلَالَا ؟
وقول قيس بن الخطيم ، يفخر بأنه مقدم لايهاب الموت في ساحة الوغى :
فَأَنَّى فِي الْحَرْبِ الضُّرُوسُ مُوَكَّلٌ بأقدام نفس ما أريدُ بقاءها
وقول أبي الغول الطهوي :

قَدَّتْ نَفْسِي وَمَا مَلَكَتْ يَمِينِي فَوَارِسَ صَدَقُوا فِيهِمْ ظَنُونِي
فَوَارِسَ لَا يَمْلُونُ الْمَنَايَا إِذَا دَارَتْ رَحَى الْحَرْبِ الزُّبُونِ
وقول ذي الرُّمة :

وَعَيْنَانِ قَالَ اللَّهُ : كَوْنَا ، فَكَاتْنَا . فَعُولَانِ بِالْأَلْبَابِ مَا تَفْعَلُ الْخَمْرُ
وإلى ذلك يشير ابن مالك (رحمه الله) بقوله في الخلاصة :

علامـة التأنيث تاء أو الف وفي أسامٍ قدروا التاء كالكتف
ولا تلى فارقة فَعُولَا أصلا ، ولا المِفعال والمِفعيلا
ومعنى (فارقة) أنها للفرق بين المذكر والمؤنث ؛ ومعنى (أصلا) كون فَعُول
بمعنى فاعل لا بمعنى مفعول . وشذت عدوة ، حملوها على صديقة ؛ وقد يحمل
العرب الشيء على ضده ؛ وأما قول مؤيِّدك المزموم يرثي امرأته أم العلاء :
أمرُّ على الحدث الذي حلت به أم العلاء ، ونادى ، لو تسمع !
أنتى حلت - وكنت جد فارقة - بلدا يمر به الشجاع فيفرع ! ؟

فالتاء في فارقة لزيادة المبالغة ، مثلها في (امرأة ملولة ، إذ يقال أيضا رجل ملولة)
أما إذا كان بمعنى مفعول فتلحقه تاء التأنيث . يقال (جمل ركوب وناقاة ركوبة

وحلوبة) وإذ قد تقرر ذلك علمنا أن (غيور، وثوم، وصبور، وغفور، وغفور) لا يفرق بين مذكرها ومؤنثها بناءً على التأنيث.

هذا ومن شروط الوصف الذي يصح جمعه جمع مذكر سالم: ألا يستوى فيه المذكر والمؤنث؛ ولذلك لا يصح جمع المذكر السالم في تلك الأوصاف الآتية الذكر وأشباهاها؛ ولكننا نلاحظ كثيرا في الصحف مثل هذا التعبير (أوئك قوم غيورون على مصلحة الوطن).

وفي افتتاحية (روز اليوسف اليومية بتاريخ ٥ مايو سنة ١٩٣٥: «إذا كانت هذه هي الوطنية المشودة أيها الأبطال الغيورون فاطمئنا واستريحوا»

وفي الرسالة الغراء العدد الخامس والثمانين ص ٢٦٩ في ١٨ فبراير سنة ١٩٣٥:-
إنا نثومو الضحا، ليست تزايلنا أحلامنا، وهو في جنح الدجى سهد
نما تقدم نرى أن كلمتي (الغيورون، وثومو) لا تسيعهما قواعد اللغة العربية. قالوا جب - والحالة هذه - أن يجمع جمع تكسير على غير - ونثوم. قال في شذا العرف: الثاني (من جموع الكثرة) فعل بضمين، ويطرد في وصف على فعول بمعنى فاعل كغفور وغفر، وصبور وصبر،

قال الشاعر:

فيئ، إليك، فإننا معشر صبر في الجذب لاختفة فينا ولا ملق

وقال الشاعر:

ثم زادوا أنهم في قومهم غفر ذنبهمو غير فخر

وقال طرفة:

فضل أحلامهم عن جارهم رجب الأذرع، بالخير أمر

وقال زياد بن حمل:

وحبذا حين تسمى الريح باردة وادى أشي وقتيان به هضم

جمع هضوم: أي كثير الإنفاق - يصفهم بالكرم في جذب الشتاء.

ومن أمثلة ذلك قوله المرحوم (شوقي بك) في رواية مجنون ليلي على لسان المجنون:

وذئاب أرق يا ليل من أهلك الغير

أنست بي فقلبت في يدي الناب والظفر

وإنما سقنا كلام أمير الشعراء على سبيل الاستئناس ، وليان الوقع الموسيقى الجميل لكلمة (الغَيْرُ) في البيت الأول ؛ فهي كلمة مأنوسة تذبذبة ، غير حوشية ولا جافية ؛ فإذا تناولتها أقلام الكتاب كان من السهل جدا إحيائها والاستغناء بها عن ذلك الجمع الذي ظهر ميله عن قواعد اللغة الصحيحة ظهورا يئنا .

(٢) مَصُونٌ وَمَصُونَةٌ

وقد سرب في بعض الأذهان أن الوصف (مصون) على وزن فعول ، فتجعله بعض الصحف وصفا للثبوت من غير أن تزيد فيه تاء التأنيث ؛ فتقول : السيدة المصونة ؛ والحق أنه ليس من الباب المتقدم - فالواجب أن يفرق بين مذكرة ومؤنثة بالتاء ، فنقول : كتاب مصون ، وأمانة مصونة ؛ وذلك لسببين :

(١) أنه ليس بمعنى فاعل

(٢) أنه ليس على وزن فعُول . بل هو (مفعول) من صان ، مثل مفعول ، ومروم ، ومخوف ، وملوم ، من قال ، ورام ، وخاف ، ولام . فالميم في أوله زائدة ، وقد حذفت منه إحدى الواوين ، إذ أصله مَصُونُون ؛ ولذلك لا يصح أن يقال في (مَدِين . ومَبِيع) إنها على وزن فَعِيل .

قال في شد العرف : « وينحصر الاعلال بالنقل في أربعة مواضع ... »

الرابع صيغة مفعول كقول ، ومبيع ، بحذف أحد المديتين فيهما ، مع قلب الضمة كسرة في الثاني ... وبنو تميم تصحح اليائي فيقولون : مبيوع ومديون ... وربما صحح بعض العرب شيئا من ذوات الواو ؛ فقد سُمِعَ ثوب مصوون ... » وفي المصباح المنير مثل هذا الكلام (ص ٩٦٩ الجزء الثاني - الطبعة السادسة بالمطبعة الأميرية سنة ١٩٢٥) غير أنه اعتبر أن مثل مصون ومبيع على وزن فعول وفَعِيل ؛ وفي هامشه استدراك هذا نصه :

(١) قوله وزان فعول وفَعِيل ؛ المراد توضيح الهيئة كما في موازين الشعر لا الميزان الصرفي . حمزة

من ذلك كله نعلم أن (مصون) ليس من الأوصاف التي يستوى فيها المذكور

والمؤنث ؛ فالواجب أن تلحقه تاء التأنيث إذا وصف به غير مذكر ؛ فنقول مثلا :-
سافر فلان ومعه عقيلته المصونة ؛ وقد عادت السيدة المصونة فلانة من
الآقطار الحجازية .

(٣) النفي والاستثناء ؛ وإنما

من المعلوم أن النفي مع الاستثناء ، وإنما - طريقان من طرق التصر ، معناهما
واحد ، ولهما بحث مطول في موضعه من كتب البلاغة . تقول : ما زارنى
إلا سعيد . وإنما زارنى سعيد ؛ وما نحن إلا إخوانكم ، وإنما نحن إخوانكم .
ولكن بين هذين الطريقتين فرقا فى الاستعمال ؛ من ذلك أن الطريق الأول لا يأتى
بعده منفي بلا ؛ ولكنه يجيء بعد الثانى . فنقول إنما أنت بشر لا ملك ؛ وإنما
تكرّم الأمة المخلصين لها لا الخارجين عليها . ولا يستعمل النفي والاستثناء فى
مثل هذا .

وهنا يجمل أن أذكر - باختصار - ما قاله السعد على التلخيص فى باب القصر
خاصا بموضوعنا - ويجمل قول المتن والشرح ما يأتى : إن النفي بلا العاطفة لا يجامع
النفي والاستثناء ؛ فلا يصح ما زيد إلا قائم لا قاعد ؛ وقد يجيء مثل ذلك فى كلام
المصنفين ؛ وذلك لأن شرط النفي بلا العاطفة ألا يكون المنفى بها منفيا قبلها بغيرها
من أدوات النفي ؛ فإنها موضوعة لنفى ما ثبت للتبوع ، لا لأن تعيد بها النفي فى
شئ . قد نفيت من قبل ؛ وغير المقصور عليه منفي صراحة فى (طريق النفي والاستثناء) ؛
إذ إن ما النافية فى مثل قولنا : (ما زيد إلا قائم) قد نفت كل صفة متنازع فيها غير
القيام ، فإذا قلت لا قاعد نفيت بلا العاطفة شيئا هو منفي قبلها بما النافية - وليس
المنفى بفحوى الكلام (كما فى إنما) مثل المنفى صراحة ؛ فيصح : إنما أنا تميمي
لا قيسى . لأن النفي غير مصرح به . انتهى كلام السعد .

وقال ابن يعقوب فى شرح التلخيص أيضا - بعد أن قرر هذا الرأى - :
« ووقوع مثل هذا الكلام فى كلام المصنفين لا يدل على الجواز فى أصل
العريّة . فانظر بعد ذلك فى هذه العبارة التى وردت فى حديث عيسى بن هشام

للرحوم المولى بك ، ص ١٤٦ بالطبعة الرابعة . قال : ويتقيد المسكين بمعيشة لا تناسب غريزة البنية ، ولا فطرة البدن ، ولا طبيعة الاقليم ؛ ولا توافق إلا من جمدت عروق آبائه تحت جليد لوندرة ، لا من ذابت مفاصل أجداده تحت هجير القاهرة .

ثم انظر معى فى هذه العبارة من مذكرة مشيخة الأزهر بشأن الطلبة (أهرام ١١ - ٤ - ١٩٣٥) « لم يعودوا إلى الدراسة إلا فى اليوم الذى أعلنه لهم اتحادهم ، لا فى اليوم الذى حددته المشيخة ،

ولعلك ترى معى بعد ما قرره السعد أن الصواب فى مثل هاتين العبارتين : « وإنما توافق من جمدت عروق آبائه . . الخ ، وإنما عادوا إلى الدراسة فى اليوم . . الخ » . ويصح هنا استعمال طريق العطف فيقال : « ولا توافق من ذابت مفاصل أجداده تحت هجير القاهرة ، بل (أو لكن) من جمدت عروق آبائه تحت جليد لوندرة ، وكذلك فى العبارة الثانية وأشباهاها .

(٤) جمع معجم

من يطلع على العدد الأول من مجلة مجمع اللغة العربية الملكى ، يجد من حضرات أعضائه إصرارا - أو شبه إصرار - على جمع (معجم) جمع مؤنث سالم ، فتراهم يقولون فى جمعه (معجمات) - وإيثارهم هذا الجمع على (معاجم) مع ذبوعه وخفته ، يحمل على الظن بأن الجمع الذى آثروه هو الصواب ، وأن الذى تركوه ، أو كادوا يتركونه خطأ لا يجوز أستعماله ؛ فخدانى ذلك إلى بحث الموضوع ، حتى وصلت إلى رأى يخالف استعمالهم ؛ وهأنذا أعرضه عسى أن يطلع عليه حضراتهم ؛ فإن رأوه مقبولا ، وإلا تفضلوا ببيان رأيهم إرشادا إلى الصواب .

قال فى المصباح : « أعجمت الحرف أزلت عجمته بما يميزه عن غيره بنقط وشكل ؛ فالهمزة للسلب ،

وفى المختار : (العجم) النقط بالسواد كالتاء عليها نقطتان . يقال (أعجم) الحرف ، و (عجمه) أيضا (تعجما) ، ولا يقال عجمه . ومنه حروف (المعجم) (١٠ - صحيفة دار العلوم)

وهي الحروف المقطعة التي يختص أكثرها بالنقط من بين سائر حروف الاسم، ومعناه حروف الخط المعجم... الخ. وكلام المختار (في معناه) هو كلام المصباح، فالنقط يميز الحرف عن سائر الحروف، ويزيل إجماعه أى إبهامه. والاعجام هو الإبهام، كما أن الاستعجام بمعنى الاستبهام (استعجم عليه الكلام استبهم) مختار. واستعجم الكلام علينا مثل استبهم (مصباح).

وكما يسمى الحرف معجماً لازالة إبهامه، نستطيع أن نسمى الكلمة (معجمة) إذا اتضح معناها، وعُرف شكلها، وزال اللبس بينها وبين غيرها في الضبط والمعنى. فالكلمات المشروحة المضبوطة الموضح معناها في كتب اللغة معجمة بهذا المعنى، فهي اسم مفعول. وكتاب اللغة نفسه مكان لهذا الاعجام - أى لازالة اللبس، وإيضاح المعنى، وضبط الكلمات، وتميز بعضها من بعض، وبيان بنيتها وصيغتها. ولذلك صح أن يسمى الكتاب (معجماً) بمعنى أنه مكان للاعجام - فهو اسم مكان، مثل مصيف، ومُقام، ومستشفى، ومستنقع - وبذلك تكون الكلمة على حقيقتها - ولا داعي لتكلف المجاز المرسل في إطلاق المعجم بمعنى اسم المفعول على الكتاب، على أنه صفة للكلمة الذي يحتويه ذلك الكتاب ثم نقل من الحال إلى المحل. فالخلاصة - إذاً - أن كلمة (معجم) اسم مكان لا اسم مفعول. بقى البحث في جمعه. ولنبداً بجمع المؤنث السالم؛ فنقول: إنه مقيس في كل محتوم بعلامة تأنيث مثل سجدة، وذكرى، وصحراء، وفي اسم غير العاقل المصغر، وفي وصف غير العاقل مثل أيام معدودات، والعلم المؤنث ولو بغير علامة كزئب، وهو مقصور على السماع فيما عدا ذلك.

ولا نستطيع أن نزعّم ورود السماع بهذا النوع من الجمع في (معجم) فانه حديث الوضع لمعناه، متأخر عن العهد الذي يحتج بعريته، فليس للعرب أنفسهم عهد بهذه التسمية في المعنى المقصود، ولا يصح اعتباره وصفاً لغير العاقل بعد أن عرفنا أن حقيقته اسم مكان، وكونه اسم مفعول مجاز لا داعي إليه مع إمكان الحقيقة بغير ضعف ولا إبهام، ولذلك لا يصح أن يجمع جمع مؤنث سالم. هذا وهو ليس مستوفياً لشروط جمع المذكر السالم؛ فقد ضاق به جمع

التصحيح ، وليس له إلا التكسير . وقواعد جمع التكسير لا تأباه ، بل ترحب به وتنص صراحة على اطراد صيغة (مفاعل) في مثل هذا اللفظ من ألفاظ اللغة وهاك البيان :

في شذا العرف : الثالث والعشرون (أى من جموع الكثرة) شبه فَعَالِل ، وهو ما مائه تددا وهيئة ، وإن خالفه وزناً . وذلك كفاعل ، وفواعل ، وفياعل وأفاعل ، ويطرد في مزيد الثلاثي غير ما تقدم من نحو أحر ، وسكران ، وصائم ورام ، وباب كُبْرَى ، وسَكْرَى ؛ فإن لها جموع تكسير تقدمت (أى جموعها على الترتيب : كُحْر - سَكَرَى - صَوَمَ - صَوَامَ - رُمَاة - كُبَر - سَكَرَى) ولا يحذف الزائد إن كان واحداً - كأفضل ، ومسجد ، وجوهر ، وصيرف ، وعلقى - بل يحذف ما زاد عليه ، سواء كان واحداً كما في منطلق - ومستخرج . ويؤثر بالبقاء ماله مزية على الآخر معنى أو لفظاً . . . الخ .

وفيه أيضاً : الثانية (أى المسألة الثانية من مسائل الخاتمة في جمع التكسير) : كل ما جرى على الفعل من اسمى الفاعل والمفعول وأوله ميم فبابه التصحيح ؛ ولا يكسر لمشابهة الفعل لفظاً ومعنى . . . الخ .

ومن المسألة الثانية نعلم أن اسم المفعول يجمع جمع مذكر سالم إن كان لعاقل وجمع مؤنث سالم إن كان لغير عاقل .

وليس اسم المكان مثل اسم المفعول ، فالمسألة الأولى تصرح بأن (مفاعل) جمع لما زاد على ثلاثة وأوله ميم ، وقد مثل له بمسجد وهو اسم مكان .

ونحو مسجد ألفاظ كثيرة جداً لا يمكن جمعها إلا تكسيرا على مفاعل . منها : منزل - موضع - مجلس - منار - مغاصر - مجتمّع - مستنقع - مستشفى - وكثير غيرها . بعد هذا البيان نجد أن (معاجم) هو الجمع المقبول لمعجم ؛ وأن معجمات لا وجه له ؛ فهل لحضرات الأعضاء الأعلام أن يذيعوا في مجلة المجمع حجة رأيهم ردّاً للشبهة وهداية للصواب ؟

للبحث بقية

التولى فاسم

على هامش التعليم الإلزامي
في ظلال الهرم

بقلم الأستاذ زكي المهندي

مدرس التربية بدار العلوم

« لا يسعني بكل أسف أن أقبل هذه المعاذير ، فيجب أن يكون لك مقال في الجزء التالي . » تلك هي الكلمة الهادئة الرصينة الحازمة ، التي أجابني بها صديقي رئيس التحرير ، حين ضرعتُ إليه أن يعفني من الكتابة في هذا الجزء التالي من الصحيفة . وكـم قدمت في سبيل ذلك من معاذير ، وأثقت من حجج ، ودعوت من شهود ، ولققتُ من حوادث ونوازل ، فلم أدع مرضاً من الأمراض إلا ألحقته بنفسى وولدى ، ولم أترك مُلِمة من الملهمات إلا أنزلتها بالأقارب والأباعد من أهلى وأصهارى ، ثم جهدت في شيء من الدهاء أن أرشو صديقي الرئيس باستعدادى للقيام بما يتطلبه هذا الجزء من أعمال إضافية .

حاولتُ هذا كله ، وطمعتُ فيه ، واحتلت له ، ولكنى عبثاً حاولت ، ومحالاً رجوت ، فقد ظهر أن صديقي رئيس التحرير لا تقبل عنده الشفاعة ، ولا تنجع فيه الرشوة .

إن له نظرة ثاقبة ، يكاد يستشف بها ما وراء الحجب ، وحساً دقيقاً ، يوشك أن ينفذ به إلى قرارة النفس ، ومستودع السر ؛ هذا إلى عزم مضاء يتحطم حياله أقوى المعاذير ، ويقضى من دونه كل تأثير .

وإذا فلا بد أن أكتب ، ولا مفر من أن يكون لى في هذا العدد مقال ، ولكن ماذا أكتب وأى الموضوعات أختار ؟ هذا موطن الحيرة والقلق . لقد كتبت في قضية الأطفال يوم كان للأطفال قضية ، وأحسبني قد أضجرت نفوس القراء بما فيه كفاية ، فليس لى في هذا الدفاع من مزيد ، ثم أية قضية تلك التي تحوم المدافعة فيها تسعة أشهر أو تزيد ؟ لا ، لن أكتب كلمة واحدة في قضية

الأطفال . هذا عهدٌ على قراء الصحيفة ، فليطمئنوا .
 لأمناس إذاً من أن أكتب في موضوع جديد ، ولكن فيم أكتب ؟ حقا
 إن اختيار الموضوع أشق من الكتابة فيه . فما للخيال في هذه المرة يعُقني ، والقلم
 يستعصي على ! الكتب مبعثرة حولي ، مشورة بين يدي ، ولكني أكره أن
 أحشو مقالاً بما يُسَطَّر في الكتب ، وبما يستطيع الناس جميعاً أن يقرءوه في غير
 الصحيفة ، هذا إلى أني لست بطبعي جماعاً للآراء ، فأنا لا أحسن الاستعارة ،
 ولا أسينغ الرواية ، ولا أطبق النقل ، ولا أصبر على الترجمة . أنقيصة هذه أم
 فضيلة ؟ فسرها بما شئت ، وكيف شئت ، ولكنه طبعي الذي فطرت عليه والذي
 لا أستطيع أنا ولا أنت أن نغير منه ، أو نبذل فيه . عجباً ! عشر ليال تمر عجلى
 مسرعات ولماً أهتد إلى موضوع مقال ! كم استلهمت شعوري ، واستوحيت
 خيالي ، ولكن الشعور راكد ، والخيال مجذب . هأنذا أعتصر الذهن فلا يُجدي ،
 وأندح زناده فما يُوري ، وقديما تحدث علماء الأدب عن شيطان الشعر ، فقالوا
 إن لكل شاعر شيطانا يلهمه المعاني ، ويُجزى بنانه بالقوافي ، وإن صح ما يقولون
 فما أهنا الشعراء بشيطانهم ! من لي بمثل هذا الشيطان النشط يستجيب لندائي كلما
 ألح في الطالب صديق رئيس التحرير ، وأبى أن يقبل مني المعاذير .

آه ! لقد وجدتها وجدتها . هذا محضر الجلسة ممتعة من جلسات « جماعة
 الأصدقاء » ، تناول الحديث حول فكرة التعليم الإلزامي في خطبتين شائقتين ،
 فلم لا أجعل هذا المحضر موضوع مقال ؟ ثم هو محضر فياض خصب ، يستنفد
 عدة صفحات من الصحيفة ، فماذا على لو نشرته برمته ، وكفيت نفسي مؤونة
 الشرح والتعليق ؟ فليكن .

طبقاً لقرار الجماعة في الجلسة السابقة عقدت جماعة الأصدقاء جلستها الرابعة
 في الأهرام في اليوم الثالث والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٩٣٤ م .

وما انتصفت الساعة الرابعة حتى اكتمل عقد الجماعة ، لم يتخلف منهم سوى
 حضرة صاحب العزة محمد فهمي بك ، الذي اعتذر عن عدم حضور هذه الجلسة
 بعذر قاهر .

وفي تمام الساعة الرابعة قرئ على الأعضاء محضر الجلسة السابقة ، ثم أخذوا في عملية الاقتراع لتعيين العضو الذي يختار موضوع الحديث ، وبدأ فيه الكلام ، فأصابت القرعة حضرة صاحب السعادة الشيخ الجليل محمد راغب باشا ، فهض سعادته ، وألقى الخطبة الآتية :

أصدقائي :

لقد قضى نظام جماعتكم أن تختاروا من بينكم واحدا يقترح موضوع الحديث ، وبدأ فيه القول ؛ ولا ريب عندى ، أنكم تدركون أن تبعة الاختيار ثقيلة ، والبعض بالحديث تكليف شاق ، والمرء في هذا الموقف خليق أن تدركه الحيرة ، ويتولاه الشك والقلق ، إذ يرى أن المسائل الحيوية التي يعنى الأمة أمرها في الوقت الحاضر كثيرة متنوعة ، وهو لا يدري ما يأخذ منها وما يدع ، فهناك أمور وأحداث تشغل أذهاننا جميعاً في هذا الطور الجديد ، الذي ندرج فيه ، ونحن خلقاء أن نقف منها موقف الذى يقول :

تكاثرت الظباء على خراش فلا يدري خراش ما يصيد
غير أنني لحسن الحظ قد أصابتنى القرعة في وقت تفيض فيه الصحف ، وتشعب الآراء ، ويكثر اللجاج ، ويحتمد الخصام فيما أسماه الكتاب : مشكلة التعليم الإلزامي . هذه هي المسألة العظيمة الشأن والخطر ، التي أصبحت حديث المجتمعات ، وسمر المنتديات في هذه الأيام ، وما أتم أولاء ترون اللجان تجمع ، والمؤتمرات تعقد ، والميزانيات تقرر ، والضرائب تجبى ، وكلما كثر البحث ، واشتد الجدل ، أظلم وجه الحق ، وتضاعفت الشبهات ، وعميت الغاية ، وتعمدت السبل . ولكن العجيب في هذا كله أننا نحن الذين صنعنا هذا المشكل بأيدينا ، ثم أخذنا نعمل الحيلة في حله ، وتلصص صواب الرأي فيه ، فكنا بذلك أشبه الملاح الأحق ، الذي عمّد إلى زورقه نفيره ، ليرى كيف يجرى الماء في داخله ، فلما اشتد عليه الأمر ، تولاه الذعر والجزع ، فحاول أن يصلح ما أفسده ، ولكن بعد أن اتسع الخرق على الراقع . ذلك مثلاً - أيها السادة - فقد أينا إلا أن ننسج من أوهامنا مسألة ، ونحوك من أخيلتنا مشكلة ، من غير أن يكون ثمة حاجة تقضيها ، أو حاجز

قوى يحفزنا إليها. انتزعنا مسألة التعليم الإلزامى من العدم. ثم وضعناها بين أيدينا، نقلب الطرف في جوانبها ونعصر الذهن في كشف معيبتها. فلما أعجزتنا أخذنا نصيح ونولول، ونبكي ونستبكي، فإذا قدر لكم أن تتساموا عن الغاية من هذا النوع من التعليم أيا كان نظامه وخططه ومناهجه، وإذا قدر لكم أن تجدوا لسؤالكم هذا مجيبا، سمعتم كلاما كله هراء وهذر ولغو.

صدقوني — أيها الأصدقاء — إذا قلت إن هذا الشغف الظاهر، والحماسة المتأججة في صدورنا لهذا النوع من التعليم، ليست إلا مظهرا من مظاهر تلك العاطفة الجالحة القوية، التي سادت نفوسنا في السنوات الأخيرة، تلك العاطفة التي دفعتنا إلى تقديس الأمم الأوربية تقديسا كان له أثره في أفكارنا وأعمالنا وسلوكنا، لقد خيل إلينا أن حياة أوربا هي المثال الأعلى، الذي يجب أن نحتذيه ونهتدى به، فهم يفكرون على أسلوب خاص، فيجب أن نحاكيهم وهم يؤثرون نوعا من الثياب، فيجب أن نتزيا بأزيائهم، وهم يفضلون ألوانا من الماء كل والمشارب، فيجب أن يكون طعامنا مثل طعامهم، ثم هم يعنون بتعليم فلاحهم وصناعهم، فكذلك يجب أن نفعل بفلاحينا وصناعنا، تلك هي العاطفة التي استهوت قلوبنا، وملكنا علينا نفوسنا، وهي التي تترامى لنا اليوم في صورة خادعة فتانة، فتحفزنا إلى استحداث هذا النوع من التعليم، ولا ريب عندي أنكم — أيها الأصدقاء — ستلقون حديثي اليوم في شيء غير قليل من الدهش، بل الجزع، فستقولون: «يا الله! من ذا الذي تبلغ به الجرأة في القرن العشرين أن يقوم بين طائفة من ذوى الثقافة العالية، يحاول أن يجعل فكرة التعليم الإلزامى موضع نقاش أو جدل؟ أليس تعليم الشعب غنيه وفقيره، فلاحه وصانعه؛ فرضا وطنيا مقدسا؟ أليس التعليم في ذاته من أقوم الوسائل لتوفير السعادة للأفراد والجماعات؟ ومن ذا الذي لا يود أن تمتد به الحياة ليرى فلاحينا سائرين خلف ماشيتهم في الصباح، وكل منهم يتأبط كتابا، أو يمسك بصحيفة؟ ألا إن هذا هو الأمل المنشود، وإن مصر المتعلبة المثقفة لى الفردوس المفقود». أجل ستقولون هذا — أيها السادة — وسيهمس بعضكم بأكثر منه. غير أنى أؤكد

لكم أن كثيرا مما تقولون وما تهمسون به ليس إلا مظهرا آخر لتلك العاطفة الجائعة القوية ، التي تعمى اليوم أبصارنا عما في هذا النوع من التعليم ، من آثار وبيلة ، وعواقب وخيمة .

وأنا لا أحب هنا أن أتناول فكرة التعليم الإلزامي في جملة وعمومه ، بل أوثر أن أترك لكم المُدُن في صحتها وجليتها وضوضائها . سأترك لكم المدن بعيوبها وشروها ومفاسدها ، فهذا رجل المدينة أمامكم ، فاصنعوا به ما شئتم ، وزيدوه بالتعليم تعسا وفاقة إن أردتم ، أطفئوا فيه غليل تلك العاطفة الجائعة في صدوركم ، أشبعوا في حياته هذه الشهوة المتأججة في نفوسكم ، فليكن رجل المدينة كما شئتم أن يكون ، فما أنا بلاءكم فيه ، أو محاسبكم عليه .

ولكن يشق على - وإيم الحق - أن أراكم تتجاوزون بهذا التعليم حدود المدينة إلى تلك القرى الهادئة الوادعة المطمئنة . تنتزعون منها ذلك المخلوق الحر الكريم ، تُلْقُوْا به في حجرات مظلمة ضيقة ، وبين يدي معلم ساذج يقتل فيه خيرا ما وهبت له الطبيعة من صفات نبيلة ، وهمم شماء ، وخلال كريمة ، وكل هذا في سبيل ثقافة (استغفر الله بل في سبيل أشتات وقشور من المعلومات) نافهة ناقصة مضطربة ، لا تجديه نفعا ، ولا تصلح من حياته أمرا .

لقد افترضتم - أيها السادة - أن تعليم الفلاحين يجلب لهم السعادة ، ويدر عليهم أخلاف الرزق ، كما افترضتم كذلك أن هذا التعليم يكفل للأمة ما تصبو إليه من مجد ورفعة ، وأراكم والله قد أخطأتم في الأولى خطأ لا يعدله إلا خطؤكم في الأخرى ، فأية سعادة تلك التي يجلبها هذا التعليم للفلاحين أو الصناع ؟ وهل السعادة إلا انسجام واتساق بين المرء وبيئته ؟ أو ما تحدث حكماؤكم وفلاسفتكم عن السعادة بأنها القناعة بما قسم ، والرضا عما وقع ، وأن المرء لا يزال بخير ما قنع ، فإن طمع في منزلة فوق المنزلة التي هيأها له القدر ، كان خليقا بالشقاء حريا بالتعس ؟ أو ليست هذه الحكيم المأثورة التي ورثناها عن الآباء والأجداد ؟ وهل كان شاعركم عابثا أو هازلا حين يقول :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

ناشدتكم الله - أيها الأصدقاء - هل رأيتم فيما رأيتم رجلا أرضى بما لديه ، وأقنع بما عنده ، وأهنأ بما قسم له ، من هذا المخلوق الصابر الوداع ؟ هل عرفتم - فيما عرفتم - نفسا أكثر اطمئنانا ، وأشد ثقة بالله وبقضائه من هذه النفس البريئة النقية ، التي تستكن تحت تلك الأطوار البالية ؟ هذا هو فلاح مصر بين أيديكم ، وبرأى منكم ، فتشوا في ثوبه الخلق ، فهل ترون إلا جلدا لا يعتره ملال ، وصبرا لا يتطرق إليه وهن ! وبقينا لا نعتوره الشبهات والريب ، وإيماننا صادقا لا نزعزع المطامع والأهواء ؟ هذا هو فلاح مصر كما صنعتها الطبيعة ، وكما يجب أن يكون كل فلاح ، بل كما يجب أن يكون كل رجل ، فماذا دهاكم من عيوبه وأخلاقه ، حتى تحيثونا اليوم تُحدثوننا عن سعادته وهناءته ؟ الحق أن تعليمكم الفلاح - أيها السادة - يمكن أن يجلب كل شيء إلا تلك السعادة الوهمية التي تملئون بها صحفكم ولجانكم ومجالسكم .

إنكم لتأبئون إلا أن تصنعوا الفلاح بأيديكم ، ولكن هل تدبرتم الأمر ، ورويتم في العاقبة ؟ تقولون : إن تعليم الفلاح يزيد في معارفه ، ويوسع من خياله ويغنى من وجدانه ، ويرهف من عقله ، فليكن هذا كما تريدون أن يكون ، ولكن هل دريتم أنكم إلى جانب هذا تخلقون فيه المطامع ، وتوقظون فيه النزعات والشهوات ، وتزيدون في تكاليف حياته ، وتفسدون عليه ذلك الجو الروحي البديع الذي ينعم الآن به ، وتُلقون به في ذلك اليم المضطرب الأمواج ، المتراعى الأطراف ؟

ثم خبروني - يا سادة - ماذا جئتم من تعليم غير الفلاحين سوى تلك الأخيصة الشاردة ، والعواطف الجائحة ، والنفوس الضعيفة القليقة ، التي أفقدها التعليم كل صبر وجلد على مقاومة تصارييف الحياة ، وأحداث الدهر ، حتى أصبحت لا تبغى بغير المناصب الحكومية بدلا ، أو تطلب عن غير العمل المريح عوضا ؟ اذهبوا وأصلحوا أولا نظم مدارسكم ، وأساليب ثقافتكم ، في غير التعليم الإلزامي ، قبل أن تتحدثوا عن تعليم الفلاح ، وقبل أن تعرضوه لتلك التجاريف العسة التي ما زلتم تعرضون لها أبناءنا وبناتنا في مراحل التعليم الأخرى ، فاذا كنتم إلى الآن

عاجزين - كما يبدو لنا - عن تعليم غير الفلاح ، فأتمم والله عن تعليم الفلاح أعجز لا ، لا ، اتركوا رجل الطبيعة كما أرادت الطبيعة أن يكون . هذا هو الواجب المقدس الذى تفرضه عليكم الوطنية . اتركوا الفلاح للطبيعة ، فهى أهدي له ، وأحتج عليه ، دعوه يعالج بنفسه شئون حياته الساذجة ، ويحتمل ثمرات هذا العلاج من خير أو شر . كتاب الطبيعة مفتوح أبدا أمامه . فدعوه يقرأ هذا الكتاب الذى لا يكذبه ولا يخدعه .

ماذا تنشدون فى الرجل غير ذى الخلق القويم ، والإرادة الصادقة ، والقلب البرى الطاهر ، والضمير النقي ، والسلوك الحسن ؛ فثقوا معي بأن هذه الصفات موفورة فى الفلاح لا يعوزكم أن تشهدوها بأعينكم وتلمسوها بأيديكم ، ولكن فى المواطن التى لا يغشاها المدرسون ، ولا المفتشون ، ولا الأدباء والمفكرون . لا أسألكم - أيها السادة - سوى أن توازنوا بين هذا الفلاح المائل أمامكم ، وذلك الفلاح الجديد ، الذى تحاولون اليوم أن تصنعوه بأيديكم ، وازنوا وانظروا كم فروق بين الرجاين . إني مؤمن أشد الايمان بأن فلاحكم الجديد سيكون أسوأ من عرفت أرض مصر من الفلاحين ، فى تاريخها الطويل . وإني ليعرونى الأسى ، ويتولانى الحزن والخوف ، كلما تصورت ذلك الفلاح الذى ستشهده مصر بعد بضع عشرات من السنين إني لا أخال فلاح المستقبل رجلا غضوبا ملولا برما بكل شيء ، متدمرا من كل شيء . يُخلد إلى الراحة ، فلا يبكر إلى حقله . ولا يعنى كل العناية بماشيته ، يترقب كل فرصة لينصرف عن أرضه وعمله ، إلى صحيفة يتبع أخبارها أو رواية يتقصى غرائبها ، يشعر بأنه مهبط الجناح ، أو مهضوم الحق ، فلا يفتأ يطلب مزيد الأجر ، فإن عز عليه ذلك أقام الدنيا وأقعددها ، وقد ينزع إلى الخصام ، ويلجأ إلى العنف ، فإن أياسه ذلك كف عن العمل ، وهجر بلده إلى حيث يجد ما يسد مطامعه ، ويرضى شهواته ، هذا هو فلاحكم الجديد كما تصورته . ولا ريب عندي أن الواقع سيكون أكثر مما ظننت ، وقوق ما تصورت . أتلك هى السعادة التى تحاولون أن توفروها للفلاح !

فإنى لا أتردد فى أن أعترف معكم بأن حياة فلاحينا فى أشد الحاجة إلى إصلاح

يوفر لهم السعادة ، ويحقق لهم طيب العيش . ولكنى أؤكد لكم أن وزارة المعارف هي آخر ما تحتاج إليه قرانا وأهلونا . وإنما مصلحة الصحة ، وقسم البلديات ، ووزارة الزراعة ، هي التي يجب أن تلتقى عليها تبعة الإصلاح ، فأقيموا للفلاح المشافى ، وأكثروا الإسالة ، عالجوا مشربه الرنق مما يرتع به من جراثيم وحشرات ، أبعدوا عنه البرك ، ارموا له المستنقعات ، شقوا له الطرقات ، شيدوا له المساكن الصالحة ، ثم أرشدوه إرشادا عمليا في زراعته ، وفي تربية ماشيته وطيره .

وإذا فعلتم هذا تكونون قد أنصفتم الفلاح ، ووفرتم له حياة طيبة وعيشا رغدا . وإن أعجب العجب (فيما ترضونه للتعليم الإلزامي من غايات) ادعواكم بأن تعلم الفلاح سيرقى بالآمة صُعدا إلى المجد ، ويسير بها قُدُما إلى العظمة والشرف ، ويجرى بها طلقا في سبيل السعادة والطمأنينة . ولكنى أراكم هنا أيضا تتحدثون عن سعادة المجتمع ، وهناءة الآمة ، بأسلوب خادع فتان ، ظاهره فيه الرحمة ، وباطنه من قبله العذاب . فهل تصورتم ما تكون عليه حال المجتمع المصرى بعد عشرات السنين إذا قدر لكم أن تستمروا فيما أخذتم فيه من تعليم الفلاحين . آه ، لو تستطيعون أن تقهجموا جوف المستقبل بأبصاركم وبصائركم إذا لأدر كنتم ما يحمله لهذه الآمة الهادئة الوادعة من أرزاء ونكبات ، ويومئذ تعرفون أية حال من القوضى والاضطراب والفرع تعانيه مصر وأهل مصر .

انظروا — أيها السادة — هؤلاء الفلاحون المتعلمون الغاضبون قد ثاروا على أصحاب الأراضي ، وأقبلوا يحملون قؤوسهم ومناجلهم ، هؤلاء الفلاحون المتعلمون يهجرون حقوقهم ودوابهم استمعوا إليهم إنهم يطالبون بزيادة الأجور ، ونقص ساعات العمل ، ويقررون الاضراب حتى تجاب مطالبهم .

وتلك هي نقابات الفلاحين تؤلف ، ومؤتمرات الفلاحين تعقد ، هاهي ذى الحكومة تدخل في الأمر وتواجه أسوأ مشكلة اجتماعية عرقها حكومة مصرية . ثم هذه هي المجاعة والفقر والفاقة تهدد التجار والصناع والموظفين من إضراب الفلاحين ، وهذا المجتمع المصرى صغيره وكبيره غنيه وفقيره خاصته وعامته يعاني من ثورة الفلاحين ما يعاني ويكابد منها ما يكابد .

هذه الصورة البشعة التي تحاولون أن تدفعوا إليها مصر بأيديكم وباختياركم ، ثم تجميئون اليوم فتحدثون عن العظمة والمجد والشرف والسعادة .

ان التاريخ — أيها السادة — يضرب لكم أبلغ الأمثال ، فسلوه يحدثكم بما يعرفه كل إنسان من أن تلك المبادئ الهادمة الفتاكة من بلشفية واشتراكية . إنما وجدت منبتها الصالح ومرتعها الخصب في تلك البيئات التي ارتفع فيها مستوى المعيشة لطبقات العمال والصناع والفلاحين ، مما أفضى إليه التعليم . سلوا التاريخ يقص عليكم أن هذه الزلازل والعواصف الاجتماعية في العالم ما كانت لتجد سبيلها الى النفوس لو ظلت هذه الطبقات العاملة قانعة بحياتها ناعمة بجهالتها .

ولا أريد أن أختم كلمتي هذه من غير أن أعود فأكرر لكم — أيها الأصدقاء — إنه لا يعني موقع حديثي من قلوبكم ، ومنزلته من نفوسكم ، وإنما الذي أحب أن تذكروه دائماً هو أن هذا الصوت الذي ارتفع اليوم بينكم ، هو صوت فلاح وابن فلاح ، هو صوت رجل يعاشر الفلاحين ، ويقاسمهم حياتهم ، ويعرف ما ينفعهم وما يضرهم . اذكروا هذا واذكروا فوق هذا أن طائفة كبيرة من ذوى الاراضى الواسعة ، ممن خبروا الفلاحين ، وبلّوا حياتهم ، يشاطروننى رأى ، ويذهبون مذهبي ، وحسبى هنا أن أكون قد نهيتكم إلى ما يكتنه المستقبل لهذه الأمة من نكبات لا يعلم إلا الله مدى عواقبها وآثارها ، فهأنذا قد أندرتم ، وقد أعذر من أنذر .

ثم قام على إثر ذلك الشاب النابه أحمد لطفي بك ، ورد على خطبة سعادة الباشا بالكلمة الآتية :

ربّاه ! ما للأرض ثابتة لا تميد وتضطرب ؟ وما للهرم راسخاً لا يميل ويتحطم ؟ وما لأبى الهول يرمقنا صامتا لا يتكلم ؟ وما للنيل يجري رفيقاً لا يفيض ويطنّى ؟ هذه معالم الخلود حولنا تفتخر الدهر بما شهدت من دول ، ورأت من أقوام وأحداث ، وعرفت من شرائع وقوانين ومذاهب وآراء ، فليت شعري هل رأت كالיום فيما رأت ، وهل سمعت كهذا الصوت فيما سمعت ؟

ايه بناء الأهرام ، ايه فراغة مصر ، وسادة الشعوب ، وقادة الملوك ، ألا هبوا

من مراقدكم وانفضوا غبار الموت الأبدى عن أجفانكم، هُبُّوا يا سادة، وأرهفوا من أسماعكم وأطلقوا ألسنتكم. حدثونا ولو ساعة من نهار: ماذا صنعتُم بمصر، وماذا صنعت مصر بكم؟ خبرونا عما استحدثتم في عهودكم السحيقة من نظم ومبادئ في هذا البلد الأمين الخالد.

نُصُّوا علينا - يا سادة - كيف استطعتم أن تقرنوا فلاح مصر بمعبوداتكم، فتجعلوا منه إلهاً تسجدون له من دون الله؟ نبئونا كيف استطاع قساوستكم وكهنتكم أن يلقوا في روع العامة أن التعليم شرط للنجاة من عذاب الآخرة، وأن (ازوريس) العظيم الجبار لن يرضى أن يصطحب في زورقه المقدس نفساً أمية جاهلة لا تستطيع أن تقرأ كتاب الموقى أو تذوق مواعظ (فناح حوتب) العالم الحكيم.

عرفونا كيف كان ذوو اليسار من قومكم يرعون أبناء الفلاحين، ويؤوونهم في مساكنهم، ويقومون بنفقات تعليمهم في تلك المعابد المظلمة الرهيبة، ليتخذوا منهم بعد ذلك خدماً لبيوتهم، وزراعاً في حقولهم، وأمناء لمخازنهم.

تحركوا - يا سادة - من نواويسكم، وانظروا ماذا صنع الدهر بمصركم العزيزة الغالية، التي حرصتم كل الحرص على أن تكتبوها لها صفحة من الخلود، لا يطاؤها الزمن، ولا تنال منها صروفه وأحداثه. هل دَرَيْتُمْ أن صوتاً سيرتفع بعد أربعين قرناً بجوار مقابركم المقدسة ينادى في غير رهبة أو حياء بأن الفلاح المصرى يجب أن يظل أمياً جاهلاً، لأنه ناعم بجهالته، سعيد بأميته؟ ترى لو ارتفع مثل هذا الصوت في أيامكم المجيدة السعيدة ماذا كنتم صانعين بصاحبيه وسامعيه، والآخذين به، والعاملين عليه؟

عقوا - سادة مصر - لقد غفرتُم لأهل هذا البلد كثيراً من الذنوب والسيئات التي تَجَنَّوْا بها على أشخاصكم المقدسة، وتاريخكم الخالد. غفرتُم لهم أن يتركوا الغرباء عنكم وعن أرضكم. أهليكم يعيشون في ماء هذا النيل المقدس، الذي كنتم تحرّمونه على غير أهل مصر، وتحرّصون على ألا يمسّه إلا المطهرون، غفرتُم لهم أن يدعوا تلك اليد الأجنبية تنتهك حرّمت مقابرهم، وتعبث بجسومكم وجسوم

نسائكم وإمائكم تعرضها للمارة والسائحين يتفككون بهرآكم . غفرتم لهم هذا ،
وعفوتهم عن كثير مثله . فهل تغفرون اليوم لفريق من أبنائكم يأبون إلا إذلال
الفلاح واستعباده ؟

من لي بهذا الصوت القوى الرهيب صوت (لوتر) الذي كانت ترجع صداه
آفاق أوروبا وهو ينادى بأن التعليم فرض على كل انسان ليكون عونته في فهم الدين
على وجهه الحق ، وتخليص روحه من ترهات الكنيسة وأباطيلها .

ألا رعى الله جدث ذلك المربي العظيم (قسيس مورافيا) الذي طالما نادى
بأن التعليم حق لكل انسان ، لأنه انسان بغض النظر عن مكانته وطبقته وثروته
وجنسه ؛ وكل أهلب بحكومات القرن السابع عشر أن تغنى بتعليم أفرادها حتى
لا يكونوا في كل انقلاب اجتماعي أو سياسي كالحمر المستنفرة ، يتبعون أول ناعق ،
ويسرون وراء كل ضال .

ومن منا لا يذكر هذا المصلح الاجتماعي العظيم (باستالوتزى) ، الذي ضحى
بكل ما يملك من مال ونسب في سبيل تعليم الفقراء من أبناء الفلاحين ، فجعل منهم
رجالا مثقفين ، يدركون ما لهم من حقوق ، وما عليهم من واجبات . أنصت
إليه وهو يقول : « خير خدمة يقدمها المرء لقومه ووطنه هي أن يعلم الفقراء كيف
يعتمدون على أنفسهم » . أين هؤلاء وأمثالهم ، بل أين دعاة الديمقراطية ورسول
الانسانية الذين نادوا وما يزالون ينادون بأن التعليم حق الفرد على الحكومة أو
المجتمع ، وأنه لا يقل شأننا عن حق الحياة ، وحق الملك ، بل لقد أصبح في حياتنا
الراهنة من الحقوق الطبيعية الأولية ، كالماكل والمشرب والكساء .

أين هؤلاء وأولئك ليسمعوا السيد المحترم يقوم بيننا فليسكر من تعليم
الفلاحين وينذرنا في ذلك بالويل والثبور ، وعظائم الأمور .

أصدقائي :

لقد سمعنا اليوم حديثا عجبا ، وكان من الهتين علينا أن نجعله دبر آذاننا ،
بل تحت أقدامنا ، لو لم يكن صادرا عن شيخ عالم مثقف مجرب ، قضى شطرا من
شبابه في أوربة ورأى بعينه هاتين ، كيف يعنى القوم هناك بتعليم فلاحهم وصناعهم ،

وكيف يحنون من ذلك ثمارا شبيهة . ولكن أدهى من هذا وأمر أن يؤكد لنا سعادة الباشا المخترم أن هذا رأى الذى أبداه اليوم ليس خاصا به ، ولا مقصورا عليه ، وإنما هو رأى فريق من الناس يدعون أنهم يتكلمون باسم الفلاح ، ويدافعون عن مصلحته .

لقد كنا نحسب أن هذا الصراع الدائم بين القوة والضعف ، بين الغنى والفقر ، بين الديمقراطية والارستقراطية ، قد انتهى أمره فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، عصر المدنية والنور ، ولكن يلوح أننا كنا واهمين ، فإن هذا الجلاذ ما يزال ناشبا بين الفلاحين وأصحاب الأراضى فى مصر ، وعلى ضفاف هذا النيل الوادع . وهل أناكم — أيها السادة — نبأ ذلك السائح الأمريكى ، الذى راعه أن يرى مدينة القاهرة قد خلعت ذلك الرداء العتيق ، وأخذت بنصيب من المدنية جدد شبابها ، وزاد فى روائها ، فأدركته من ذلك سوزة ، وأخذته عزة ، ومضى إلى سفيره محتجاً بأنه إنما أنفق فى رحلته ما أنفق ، ولقى فى سفره من النصب ما لقى ، ليرى القاهرة بلدا شرقيا كما كانت ، وكما يجب أن تكون كل مدينة شرقية . أما الآن وقد أخذت زخرفها وازينت ، فليس فيها ما يشوق النفس ، ويمتدح الخيال . فهل ترون هناك كبير فرق بين موقف الباشا المخترم من الفلاح ، وموقف ذلك الأمريكى الأحمق من القاهرة وسكان القاهرة ؟ . حقا إن هؤلاء السادة من الأغنياء إنما يستطيعون أن يلهوا بالفلاح ، ويجدوا فى حياته ما يشوقهم ويمتعهم إذا ظل كما هو الآن شقيا تاعسا جاهلا غنيا ، أما ذلك اليوم الذى يصبح فيه هذا المخلوق ذا كرامة وإباء وعزة ، فهو ولا شك يوم عسير ، على الموسرين غير يسير .

أجل . سيكون لدينا بعد عشرات من السنين فلاح جديد ، وسيكون له مع هؤلاء السادة شأن غير شأنه اليوم ، نحن أول من يدرك هذا . ويؤمن به . سيكون فلاحنا الجديد عزيز الجانب ، أبى النفس ، سيكون حريصا على حقوقه ، حرصه على القيام بواجباته ، سيكون شاعرا بأنه مخلوق مستقل ، له إرادة ، وفيه قوة ، وسيأبى فلاحنا الجديد أن يسرح مع الهمل أو يُحشَر فى زمرة البهائم . وسيعرف فوق هذا كيف يحطم تلك الأغلال التى يود أصدقائنا الأغنياء أن يظل مكبلا

بها، راسفا فيها . ويؤمئذ يدرك سعادة الباشا ومن لف لفه ، وذهب مذهبه ،
أن الفلاح لا بد أن ينصف ، وأن يقام له وزن . ماداموا يعيشون على حسابيه ،
ويفضل قوة ذراعه وعرق جبينه .

نحن لا نلومكم — أيها السادة — فيما تذهبون إليه ، ولكن نرثى لكم ، فأنتم
والله أحق بالثناء منكم باللوم . إنكم لتدركون أكثر مما ندرك أن تعليم الفلاح
سيضطركم إلى تغيير تلك الأساليب التي ألفتوها حتى اليوم في معاملته ، سيرغمكم
على أن تتبعوا طرائق أرقق وأعدل ، ستفقدون شيئا من هذا الجاه العريض ،
والسلطان الواسع ، ستحرمون لذة الاستمتاع بهذا النفوذ المطلق الذي تبسطونه
اليوم على عمالكم وفلاحكم ، ستحرمون كل هذا ، وستحرمون مع هذا شيئا من
التقديس لذواتكم وأشخاصكم ، أى شئ أشق على النفس وأوجع للقلب مما تُحرمون ؟
ليس عجيبا أن تكونوا أعداء لكل إصلاح حق يتناول الفلاح ، بل العجيب
ألا تكونوا كذلك . كيف تنتظر منكم أن تعينوا بإرادتكم وباختياركم على تعليم
الفلاح ، فوقظوه من سباته ، وتنبهوه من غفلته ؟ أنتم لا تستطيعون أن تنسوا
ذواتكم ومصالحكم . ما أشبهكم برجل يعيش في غرفة من المَرَايا فخشا ولئ وجهه
لا يرى إلا نفسه . أنتم لا ترون في الفلاح سوى مخلوق تافه حقير ، سخر لكم ،
فلكي تنالوا أطيب طعام على موائدكم يجب أن يموت الفلاح جوعا ، ولكي تستمتعوا
بلذيق الشراب يجب أن يقتله الظمأ ، ولكي تخفوا إلى الأقصر كل شتاء ، وإلى
أوربا كل صيف ، يجب أن يكذب ويكدح في الهجير وفي الزمهرير ، ولكيلا يشعر
بأنه مهض الجناح أو مهضوم الحقوق يجب أن يظل — كما هو الآن — جاهلا أميا .
هذه هي الحقيقة التي تجيش بها نفوسكم مجردة من هذا الزخرف البراق
الفاتن ، الذي تحاولون أن تخدعونا به ، لتلقوا في روعنا أنكم إنما تتبعون سعادة
الفلاح ، وتناضلون عن مصلحة الفلاحين .

ولكن العجب لكم — أيها السادة — حين تخوضون في المستقبل ، تنزعون
من جوفه المخاوف ، وتبلسون في طياته الثورات والمهالك ، وما أراكم والله
في هذا إلا ضالين أو مضلين ، من سواكم يعتقد أن التعليم أيا كان نوعه يولد

بين الناس الفتن ، ويربى الأحقاد ، وينبت السخائم ؟ ما كان التعليم لينتج شيئاً من هذا ، وإنما الذى يولده ويعين عليه ، بل يغرس شراً منه ، تلك الجهالة الجاهل ، والامية العمياء ، التى يتمرغ الفلاح الآن فى حمايتها ، والتى تأبون لمصلحتكم إلا أن يظل غارقاً فيها ، شقيماً بها . سلوا رجال الأمن ورجال الاحصاء ينبئوكم بأرقام حاسمة ، هى فوق كل نزاع أو جدل ، بأن الأمن لا يُستقر ، والطمانينة لا تسود ، إلا فى تلك البيئات الريفية ، التى أخذت من التعليم نصيباً موفوراً . بقى ذلك الخصام الذى تؤكدون لنا أنه لا محالة واقع فى الغد القريب بين الفلاح المتعلم وبينكم . وأنا فى الحق لا أدرى كيف تقع تبعة هذا الخصام على التعليم . هاكم بعض طوائف الصناع والعمال فى القاهرة وغيرها من المدن الكبيرة المصرية . فقد بدأ النزاع يخدم بينهم وبين أصحاب الأعمال على الأجور وساعات العمل ، مع أن صناع مصر وعمالها على ما نعلم من الجهل والغباء ، بل إن مكتب العمل فى وزارة الداخلية ليستطيع أن يؤكد لكم أن جهالة هؤلاء العمال هى التى تورت نيران العداوة ، وتزيد هذا الخلاف قوة وعنفاً . وليس ذلك بعجيب . فأنما الرجل الجاهل الضعيف الإرادة هو الذى يعمد فى شئونه إلى الخصام ، ويلجأ إلى القسوة والعنف ، ويخطط فيما له من حق ، وما عليه من واجب ، ويخطئ فى فهم الصلوات والعلاقات التى تربطه بغيره من الناس ، أبعد هذا تصرؤن على أن التعليم علة كل خصام إن وُجد ، وأن الجهالة لها الفضل فى منعه إن لم يُوجد ؟ يجب أن تدركوا - أيها السادة - أن لتلك الخصومات التى تقع هنا وفى أوروبا بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال عللاً وأسباباً ، ليس التعليم واحداً منها ، وإنما السيطرة الغشوم ، والاستبداد المطلق ، والشره القتال ، هى التى تغرس الضغائن ، وتولد سوء الظن بين الناس .

صدقونى - أيها الصحاب - أنكم لا شك مدركون بتعليم عمالكم أكثر مما تدركونه اليوم بجهالتهم وأميتهم ، فالفلاح المتعلم سيكون أرغى لمصالحكم ، وأحرص على أموالكم ، وأكثر إنتاجاً لغلاتكم ، وأبصر بترية ماشيتكم (١١ - صحيفة دار العلوم)

ودوا بكم ، وأقدر على استئصال العلل والآفات التي تلحق مزروعاتكم .
 وستجدون فيه من هذا كله رجلا تعتمدون عليه ، وصديقاً تثقون به ، وتركوا
 إليه ، فأى خير يخبر بكم تعليم الفلاح ! وأى جزاء يُستغنى عليكم تعليم الفلاح !
 بل أية راحة وطمأنينة يُعقبها لكم تعليم الفلاح ! وبعد . فاعلموا - أيها
 السادة - أن نشر التعليم الإلزامى بين طبقات الفلاحين والصناع ، هو قضاء
 الطبيعة ، وحكم التطور ، وأن للطبيعة صوتاً أقوى وأروع من أصواتكم ، وأن
 للتطور نفوذاً فوق نفوذكم ، وأن للحياة ناموساً لا يشذ من أجل مصالحكم ،
 فهو لا بد بالغ مبلغه ، ومدرِك غايته ، فليس في وسعكم - (أية كانت ثروتكم
 ومنزلتكم) - أن تعكسوا دورة الفلك ، أو تؤخروا سير الزمن . فالفلاح لا بد
 أن ينال قسطه من التعليم ، وأن يستمتع بنصيبه من الحياة ، هذا حكم الطبيعة
 الذي يجب عليكم وعلينا أن نسلم به ، ونخضع له . هداًنا الله وإياكم سبل الرشاد .
 وقد انتهى العضو المحترم من خطبته في منتصف الساعة السابعة ، وقد جن
 الليل ، وساد الظلام ؛ فقررت الجماعة أرجاء النقاش في هذين الخطابين إلى الجلسة
 المقبلة ،

(صورة طبق الأصل)

زكى المهندس

نظر بعض الحكماء إلى رجل يرمى هدفاً وسهامه تذهب يمينا وشمالا ، فقعده
 في وجه الهدف ؛ فقليل له في ذلك ، فقال : لم أر موضعاً أسلم منه .

إصلاح التعليم الثانوى

دراسة تقرير التعليم الثانوى الذى أصدره معالى وزير المعارف

بقلم الأستاذ عبد الحميد حسن

المفتش بوزارة المعارف

أصدر حضرة صاحب السعادة أحمد نجيب الريحانى بك وزير المعارف تقريراً، أوضح فيه عيوب التعليم الثانوى، وضمنه وجوه الاصلاح. وهو تقرير شامل يدل على درس عميق، وخبرة واسعة بالتعليم وشؤونه، وبما هو ذائع فى مدارسنا من نظم ومناهج، وطرق وأساليب، وبما تجرى عليه الوزارة من وسائل فى إدارة التعليم، وتعقب الطلاب بالامتحان، والمعلمين بالمحاسبة على كمية النجاح، وإصدار النسب المثوية، وغير ذلك من الشؤون التى تدور حول التعليم، ولا تصل إلى أبه، ولا توصل إلى الثقافة المنشودة، ولا إلى التكوين الصحيح، الذى نسمع به ولا نرى له أثراً فى متعلينا.

أوضح الوزير كل ذلك بأسلوب متمتع، ارتكزت فيه النتائج على مقدماتها المقننة، فى صراحة أنماجت الصدور، وأطربت المشتغلين بالتعليم من رجال المعارف وغيرهم، ودلت على همة حاسمة، ورغبة صادقة فى الاصلاح والنهوض والتجديد. وإنا نحمد للوزير هذه السنة الحسنة، وهى إصدار تقرير عن التعليم يذيعه أبلج ناصعاً على الملأ. ونحمد له أيضاً ترحييه بأبداء الآراء، وتمحيص البحث، حتى يتجلى الحق، وننهض بالتعليم على الأسس الصالحة.

وما أجدر التعليم وإعداد النشء بأن نوالى فيه البحث، ونتهج له أقوم الخطط وأوضح السبل المبنية على التجربة والرأى الحصيف. وإنا إذا كنا نرى كل عام أو بعض عام تقارير عن الشؤون المختلفة للدولة، كالزراعة والتجارة والأمن والصادرات والواردات والصحة وغير ذلك، فما أجدر التعليم بمثل هذا. وقد

ضرب لنا الوزير المثل الأعلى بإصدار تقريره . وإنا نأمل أن تسير الوزارة ورجالها ومعلموها ومفتشوها ونظار مدارسها على هذه السنة ، فيبدى كل رأيه ، مينا ما يعن له من مواطن الضعف أو النقد ، ووجوه الارشاد والاصلاح ، بعد التجربة والخبرة العملية . وبذلك ينشط الجانب الفنى فى وزارة المعارف ، ويحل تعليمنا من قيوده ، وتتضاءل تلك الاقاويل التى ذاعت ، وهى أن نظامنا التعليمى وجهود المعارف ورجالها تتجه فى طريق آلى جاف ، مركز فى الامتحانات والاحصاءات وغير ذلك ، مما هو بعيد عن الترية الصحيحة . وحسبنا من أمثال هذه التقارير ، أنها ستوقظ الازهان ، وتثير من وجوه البحث ما أثاره تقرير الوزير فى جميع البيئات التعليمية على اختلافها . وإنا نرجو أن يكلل إصلاح حياتنا التعليمية والاجتماعية بالنجاح .

نعرض بعد ذلك لما تضمنه التقرير من وجوه الاصلاح ، وهى كثيرة شاملة تمس نواحى شتى من نظامنا التعليمى وحياتنا الدراسية والمدرسية . ونستطيع أن نجمل ما سنخصه بالبحث منها فى عوامل ثلاثة . وهى :

(١) الهيكل الدراسى التعليمى — ويشمل خطة الدراسة والمواد والمناهج .

(٢) الإشراف على التعليم — ويرجع ذلك إلى التفتيش وإلى جمعيات المدرسين للمدرسة ولل مواد المختلفة ، وإلى الامتحانات .

(٣) الحياة المدرسية — ووجوه إصلاحها حتى تكون منبعاً للتكوين الصحيح الخلقى والاجتماعى والعمل .

أما العامل الأول ، فقد كان هو الهدف الذى صوب نحوه الرماية من قصدوا بالبحث فى إصلاح التعليم ، ولا يزال هو العامل البارز الذى يعتبر محور الاصلاح . غير أنى لست على هذه العقيدة من اعتبار هذا العامل هو الأول ، أو المحور الذى يدور حوله الاصلاح ، وأرى أن العاملين الآخرين لها الشأن الاكبر فى الاصلاح ، ولا سيما فى حالتنا التى نحن عليها من قصور فى معالجة الشؤون العملية . واضطراب فى حياتنا الخلقية ، وتفكك فى نظامنا الاجتماعى . لهذا سأعرض للعاملين الآخرين بادئا بالآخر منهما :

الحياة المدرسية :

لقد ألفنا فيما مضى أن نعتبر المدارس مكانا لتلقى الدروس ، والاستزادة من الحقائق العلمية ، وإتمام المناهج المسطورة ، والتنافس في الاستظهار ، وإحراز الدرجات الرفيعة في الامتحان .

ولم يكن للحياة المدرسية النصيب المنشود ، على ما لها من أثر قوى في التكوين الخلقي والاجتماعي والعملی .

ألفنا ذلك ودرجنا عليه حقة من الزمن ، ولا يزال فريق من المتعلمين وغيرهم على هذا الرأي . وكانت نتيجة هذا الاجحاف بالحياة المدرسية ، والغض من شأنها ، ذلك العجز العملی في الطلاب : وفقدان الطابع الشخصي فيهم ، والقصور التهديبي الشامل ، والركود في وجوه النشاط في المدرسة ، أو في الحياة العملية بعد ذلك . ولا غرابة أن تكون هذه هي النتيجة ، وأن تتصاعد الشكوى من أرباب الأعمال ، ومن المصالح المختلفة ، ومن الهيئات الحرة ، من عجز خريجي المدارس الثانوية عن حسن القيام بالأعمال التي تعهد اليهم ، بل الغريب أن تصل مدارسنا بالطلاب الى المقدرة العملية ، وتكوين الشخصية الكاملة ، والقدرة على الاندماج في الحياة ، وهي خلو من هذا ، وليس فيها من الوسائل إلا ملء الآذان بالألفاظ ، وتأبط الكتب لالتهم أسطرها .

هذه هي حال مدارسنا ، وهي تتطلب العلاج . وقد أشار الوزير في تقريره إلى طائفة صالحة من وسائل الاصلاح ، حين تكلم في الرحلات والجمعيات المدرسية ، واشترك التلاميذ في الحياة الاجتماعية ، والسيطرة الروحية عليهم ، واتصال المعلم بالطلاب في خارج حجرة الدراسة ، وعلاقة المدرسة بآباء التلاميذ وأولياء أمورهم ، إلى غير ذلك مما تجلي في التقرير في مواضع شتى ، ودل على بصر بمواطن الداء . ورجاؤنا أن تنال هذه الوجوه من النشاط الاجتماعي قسطها من العناية في المدارس ، فهي دعامة قوية من دعائم الاصلاح المدرسي ، وفي ثناياها من الاعداد للحياة الصحيحة وقدر كبير . وأملنا أيضا أن تكون العناية بها مثمرة موجهة للصميم ، حتى يتحقق الغرض منها . فانا نشاهد الآن في بعض المدارس شيئا من هذا النشاط ،

فيما تنشيء من جمعيات مدرسية، للتمثيل وللتصوير وللموسيقى وغير ذلك، ولكنه نشاط قاصر الغاية، ضيق النطاق، لا يتعدى طائفة ضئيلة من الطلاب، ولا يتغلغل في الحياة المدرسية، ولا يصل إلى لها. على أن كثيرين ينظرون إلى هذا النشاط نظراً إلى العمل الدخيل، أو العبء الثقيل، الذي يطغى على الدرس والتحصيل والاستعداد للامتحان، فتراهم إذا اقترب موعد الامتحان يطوون صفحته، ويضنون عليه بالزمن، ولو أنصفوا لاستزادوا من هذا النشاط كلها توغل التلاميذ في الدرس، وكادت الكتب تنسهم الحياة الصحيحة. وبعض المدارس لا ترمى من وراء هذا النشاط إلا إلى الظهور، فلا يصلون إلى الغرض المنشود.

وبما أراه نافعا في هذا الصدد أن تبادل المدارس التزاور، والاختلاط في حفلات سمر، أو مطارحات علمية وأدبية، أو مراسلات في بعض الشؤون المدرسية أو غيرها. ولتكن هذه الحفلات مدرسية يقصد منها فائدة التلاميذ من الوجوه المختلفة، لا أن ترمى إلى حسن العرض أو تفكهة المدعوين.

وبما يزيد الحياة المدرسية قوة أن يدعى المتخرجون القدامى إلى حفلاتها، وأن يطلب إلى فريق منهم آناً فآناً التحدث إلى التلاميذ في ماضيهم وحاضرهم وذكرياتهم المدرسية، وفيما صادفوا في الحياة من صعاب تغلبوا عليها بالصبر والثبات، وفي الأعمال التي سلكوا سبيلها في الحياة، وفي وسائل النجاح التي تدرعوا بها، إلى غير ذلك؛ ففي كل هذا تاريخ حافز للهمم.

وبما له أثر عظيم كذلك، دعوة بعض أرباب الأعمال، ورجال الاقتصاد، وذوى الرأي، لالقاء محاضرات على الطلاب في الشؤون الحيوية والعملية، وإن ظهور هؤلاء الرجال في ساحة المدرسة بين طلابها، وتحديثهم إليهم في الشؤون الحيوية، فيه من الفائدة العملية والاجتماعية، ومن حفز الهمم، وربط المدرسة بالحياة الخارجية، مانرجو من ورائه عظيم الأثر.

كل هذا وأمثاله من وجوه النشاط المدرسي ينبغي أن ينال عناية وتشجيعاً من الوزارة ورجالها. وإذا كانت التربية العقلية قد التهمت كل جهود رجال التعليم، وكانت التربية البدنية قد نالت اهتماماً، وأصبحت لها مراقبة ترعاها، وتبث المنافسة الرياضية في التلاميذ، وتحفز هممهم إلى المسابقات، وتجزئ الفائزين منهم أفراداً

وجاعات ، بالكؤوس الفضية ، وسمات البطولة ، لاحتراز السبق في الألعاب الجسمية على اختلافها ؛ فما أشد احتياج التربية الخلقية والاجتماعية إلى مثل ذلك . ولعلنا نرى من الوزارة عناية صادقة بهذا الجانب فليس له مناهج مسطورة ، ولا طرق للاختبار ولا ينال من جهود المشرفين على المدارس إلا بقدر ماله من شأن في الامتحانات العامة أو المدرسية . ولذا نخشى أن يظل مهملاً لا ينال العناية التي يستحقها .

الإشراف على التعليم :

لاحظ الوزير في تقريره أن هذا الإشراف مركز في الوزارة ورجالها تركيزاً يشل جهود المعلمين ونظار المدارس ، ويحول بينهم وبين الابتكار والاصلاح . ولبت هذا التركيز كان موجهاً للشؤون المهمة ، فإن الوزارة قد شغلت بأصغر الشؤون المدرسية : من عقوبات التلاميذ ومواظبتهم ، وإعادة قيدهم ، واعتماد جداول الدروس ، وغير ذلك ، مما لم يبق زمناً للتفرغ للشؤون الفنية ، ودراسة السياسة العليا للتعليم .

وأهم عبء تتحمله الوزارة ، ويشغل معظم وقتها وجهودها ، هو الامتحانات . وقد تكفل التقرير بوجوه الاصلاح في هذا الصدد ، وذلك بالغاء امتحان القسم الأول من الشهادة الثانوية ، وبإبطال امتحانات الدور الثاني .

ولعل النية تتجه كذلك إلى الغاء امتحان اتمام الدراسة الابتدائية الذي يجري على النظام الحاضر ، وإلى تحويله إلى امتحان مدرسى للقبول بالمدارس الثانوية تقوم به كل مدرسة ثانوية لمن يتقدمون لها . أما المدارس الحرة فيمكن أن يسن لها نظام على النمط الذي اقترح في التقرير لامتحان الانتقال بالمدارس الثانوية .

وإن قيام المدارس الثانوية بامتحان القبول لاضررفيه ، فالمدارس الثانوية - كما جاء في التمرير - هي الهيئات التعليمية المشرفة على الثقافة العامة وعلى تخريج الطبقة المهذبة . وإذا كنا قد وثقنا بها في الإشراف على امتحان الانتقال في القسم الثانوى ، أفلا نطمئن إليها في الإشراف على امتحان القبول بالمدارس الثانوية ؟

على أننى لا أريد أن تنقطع صلة الوزارة بالاشراف الاختبارى على المدارس الابتدائية ، ولأمانع من أن تصدى الوزارة لامتحان القبول ، على أن تقوم بوضع الأسئلة فقط ، أما طبع أوراق الأسئلة ، وإدارة الامتحان ، وطرق التصحيح وغير ذلك من النظم والأعمال ، فإنها تترك للمدارس نفسها .

وسيتضح السبب فيما أرى من إشراف الوزارة على وضع الأسئلة حينما أعالج الموضوع فيما يلى :

إن إشراف الوزارة على التعليم يرجع إلى عمليتين تسيطر عليهما ، وهما :

(١) الامتحانات (٢) التفقيس

أما الامتحان — فإنه إذا اتجه اتجاهها صحيحاً كان عظيم الأثر فى قيادة الحياة العقلية ، ورسم الطريق القويم لها ، وأصبح وسيلة للإرشاد ، وتوجيه طرق التعليم الوجهة الصالحة . أما إذا سار سيرها جامداً منحرفاً عن الجادة ، فإنه يكون من معاول هدم التعليم ، وإفساد طرقه ، وتحويل جهود رجاله إلى نظام تعليمى عقيم . والدليل على هذا واضح أمامنا فى كتب الأسئلة التى تجمع ، وفى المختصرات الدراسية التى يتنافس طلاب المنفعة فى إخراجها ، وفى سير المعلمين والطلاب وراء ما يتطلبه الامتحان من حشد للحقائق ، واستظهار للألفاظ .

إن الامتحان ليس عدواً للتعليم ، بل هو أحد عوامل ثلاثة ، إذا تضامنت واثلت جنتنا من تضامنها خيراً كثيراً للتعليم ، وكفينا — إلى حد كبير — شر المناهج المثقلة . وهذه العوامل هى :

الامتحان — التفقيس — التدريس

أو

المتعلم — المفتش — المعلم

فالمتعلم والمفتش عضوان متممان لإصلاح التعليم ، متضامنان فى إعداد الطلاب ، وعملهما الأساسى هو الإرشاد والنهوض بالتعليم وطرقه ، وتوجيه التدريس الوجهة

الصالحة . وأعتقد أن أسئلة الامتحان نستطيع بها أن نرسم الطريق القويم للتدريس، وأن نوجه المناهج الوجهة التى نريدها .

وينبغى أن يكون الممتحن شريكا للمعلم فى وجهة النظر التى يجب رسمها، مترسما الغاية التعليمية التى يعمل هو والمعلم لتحقيقها . فليس هو بالجلوسوس على المعلم، ولا بالشرطى الذى يتعقبه، وإنما هو عون له، وهما معا يعملان للوصول إلى غاية واحدة . وهى إنهاض التعليم واعداد الطلاب على أكمل الوجوه، ورسم أمثل الطرق للثقافة التامة والحياة الصحيحة .

على أنه لا يعزب عنا أن الامتحانات إنما هى مقياس على عقلى إلى حد كبير . وليست المادة العلية، ولا الترية العقلية التى يقيسها، هى كل شئ فى إعداد الفرد إعدادا كاملا، فهناك الترية الاجتماعية والترية الخلقية، ولهذين شأنهما فى كل نظام مدرسى تام . فالإشراف بالامتحان ليس إشرافا تاما، ولا بد من الالتجاء إلى وسائل أخرى . وليس لدى الوزارة إلا وسيلة واحدة لاتمام الإشراف والارشاد من جميع الوجوه، وهى التفتيش الفنى . غير أن هذا أيضا قد اتجهت به الوزارة اتجاها آليا، لبابه الاختبار، وتدوين النتائج، والنسب المئوية، والإشراف على ما درس من المناهج وما سطر من موضوعات كتابية . وما يلاحظ أن النواحي الخلقية والاجتماعية والعملية ليس لها فى المناهج نصيب وليس فى الزمن المدرسى متسع لها، فالإشراف عليها لاحظ له، والنتيجة المحتومة لكل هذا هى اهمالها، وكيف تكون الترية كاملة بدونها ؟

من هذا يتضح أن الوسيلة التى تتخذها الوزارة للإشراف على المدارس - وهى التفتيش - مغلوطة اليد، محدودة الميدان، مثقلة بالأعباء الآلية، وهى لهذا تتطلب السير على قواعد جديدة . وإن المفتشين ورجال المعارف أعرف بما يجب فى هذا الصدد، فنترك لهم إصلاح شؤونهم .

وهناك عامل من خير الدعائم فى الإشراف التعليمى والخلقى بالمدرسة، وفى السمو بالروح المدرسى، وتكوين شخصية المدرسة، واستمداد قوة ذاتية من

الداخل . وهذا هو جمعيات المدرسين . وقد جاء في تقرير الوزير بهذا الصدد ما يأتي :

« فينبغي أن يكون لكل مدرسة جمعية من المدرسين ، وأن يكون لكل مادة جمعية من مدرسيها ، وأن يكون لهذه الجمعيات رأى محترم ، واهتمام بشؤون المدرسة . وهذا الاقتراح له في الاصلاح التعليمي والمدرسي شأن عظيم ، ونرجو ان تحققه الوزارة ، وأن تمنحه قسطا من عنايتها ، وأن تكل للمفتشين تعهد هذا الجانب بالتغذية والارشاد والنقد والتشجيع ، والتوجيه به في تقارير خاصة أو عامة ، وأن تمنح هذه الجمعيات قسطا واسعا من الحرية والاعتداد بالرأى ورسم خطط الاصلاح العلمى والاجتماعى والخلقى والعمل فى المدرسة . وبهذا يقوى الروح المدرسى ، ويصبح للمدرسة شخصية قوية تفيض على الطلاب ، وتنهض بالمعلمين .

بما تقدم يتضح أن هناك عوامل أربعة ذات أثر فى الاصلاح ، وهى :

المعلم والمعلمون وانفسهم وجمعيات المدرسين فاذا تضامنت هذه العوامل فى حدود واسعة من الحرية والتجديد والابتكار أفادت ، وأغنت عن كثير من التغيير ، وكانت خير مرشد إلى أقوم السبل وأجداها .

الربط بين الدراسة والتعلم :

هذا هو الجانب الذى يتطلع لاصلاحه الجميع ، فقد عمت الشكوى من ثقل المناهج وازدحام خطة الدراسة ، حتى لم يبق للعوامل ذات الشأن فى اعداد الطالب للحياة العملية الصحيحة نصيب من العناية ، فازداد الضعف واستفحل القصور ، وأصبح التعليم شكليا سطحيا .

وفى تقرير الوزير ما يدعو الى الاطمئنان بان التغيير سيكون تجديدا فى حدود قويمة ، وسيضمن تقليل المواد الدراسية ، وتعديل المناهج تعديلا يكفل للمعلم التمكن من التدريس ، وللطالب اكمال ثقافته ، وللحياة المدرسية وفرة فى الوقت ، وسعة فى ميدان العمل المجدى .

ولسنا ندرى من أمر التعديل فى الخطة أو فى المناهج شيئا الآن ، ولكن الروح الذى تجلى فى التقرير يدل على تجديد ونهوض واصلاح ، وسيكون التغيير من غير شك متمشيا مع هذا الروح الطيب .
على أننا نأمل أن تحقق الخطة ما يأتى :

(١) العناية بوجوه النشاط المختلفة ، وتحديد أوقات لها فى صلب الخطة .
(٢) أن يكون للاشغال اليدوية نصيب ، فهذه المادة من الطرائف التى يملأ بها الشاب أوقات فراغه ، وهى أيضا من عوامل التنشيط والتنويع فى الجوامد المدرسى . وإذا كان للعقل وللخلق وللجسم وللحياة الاجتماعية شأن فى التربية فهناك أيضا اليد ، فتربيتها ذات صلة بالتربية العقلية وبالحياة العملية ، ولسنا فى حاجة إلى التدليل على هذا .

(٣) أن يكون إلى جانب الخطة المحدودة خطة أخرى فى أوقات الفراغ وأن يشير المنهج إلى تنظيمها فى حدود تقترح ، وبذلك يكون إلى جانب الخطة المرسومة ، والمنهج الذى سيوضع ليقوم به المعلمون فى أوقات العمل خطة أخرى ومناهج أخرى للعمل فى أوقات الفراغ لتغذية وجوه النشاط المختلفة . وإن هذا الجانب عظيم الأثر ، والاهتمام به هو الذى سيخرج بجاتنا المدرسية من ركودها إلى نشاط واسع المدى ، متصل بالحياة الصحيحة . ولا يغيب عن الأذهان أن ما هالك من فروق تحدث بها بين مدارسنا والمدارس الأجنبية لا يرجع الى الجانب العلى وحده ، بل جلّه راجع الى الجانب الاجتماعى ، وإلى تلك المناهج غير المسطورة ، وإلى ما فى المدرسة من حياة فى أوقات الفراغ وغيرها .

(٤) أن يتجه تثقيف البنات اتجاها خاصا بهن ، وأن تكون الحياة المدرسية فى مدارس البنات الثانوية متمشية مع مطالبهن ، وما ننشد للبنات المصرية من ثقافة وحياة .

(٥) قد أشار التقرير إلى أربع مواد ، وهى : التربية الوطنية ، والاخلاق ، والمنطق ، وعلم النفس ، ويبدو من خلال الاشارة اليها الموافقة على إبقائها فى خطة الدراسة .

أما التربية الوطنية ، فأتى أرى إبقاها ، لأنها معلومات قومية ووطنية لا غنى عنها في الثقافة العامة .

وأما المواد الثلاث الأخرى فلا أرى ضرورة لبقائها .

(أ) أما الأخلاق فإن قصد بها الجانب العملي التهديبي ، فليس هذا مما يغرس بالتلقين ولا بالدراسة التي تملأ الأسماع ، ولا بالمناقشة في الحقائق ، وإنما تغرس بالقدوة الحسنة في البيئة الصالحة ، وباعداد الجوارح المدرسي ، ولتنمية بذور الخير ، وطبع المتعلم على حميد العادات ، وبملاء قاب المتعلم بالفضيلة لا ملء سمعه ولا حافظته . وكل هذا مما لا يعتمد فيه على الكتب ، ولا على الموضوعات المسطورة . أما إذا قصدنا الجانب النظري أو الناحية العلمية ، فلا أرى غاية كبيرة تجنى من تدريس ذلك للطلاب في المدارس الثانوية ، وليست هذه النظريات من ضروريات الثقافة التي ننشدها في هذه المرحلة من الحياة .

(ب) والمنطق كذلك ، إذا قصد به التفكير السليم ، فليس هذا نتيجة دراسة لقواعد المنطق ومبادئه ، وإنما هو نتيجة الحوار المنظم ، والنظر الصحيح فيما يحيط بالطلاب تحت إشراف المعلم القدير في المواد المختلفة .

(ج) وقواعد علم النفس هي بالمعلم أحق فهو الذي يحتاج إلى أن يعرف أصولها وطرق الاتقاع بها في أعداد الطلاب وتكوين نفوسهم أما الطالب فحسبه أن نطبعه بالطابع السليم وأن نشحنه خياله ونسموه بمداركه وتقوى إرادته ونهذب وجدانه وعواطفه متبعين في ذلك الطرق العملية المجدية .

هذا ما ألاحظه بشأن الخطة . أما المناهج ، فانا نرغب جهود واضعيها ، ولنا فيهم بعد هذه الوجهة القويمة التي نُجَلَّت في التقرير ، الأمل العظيم .

هذا وإن النظر في إصلاح التعليم الثانوي يستتبع النظر في عدة أمور ، منها :
(١) التعليم الابتدائي ومدته وخطته ومناهجه .

- (٢) ثقافة البنات وهل تسير كثقافة البنين فى جميع المراحل .
- (٣) المدارس الفنية المتوسطة كالزراعة والصناعة والتجارة وصلتها بهذا الإصلاح ، وحاجة طلابها إلى المزيد من الثقافة عامة والاستعداد العملى خاصة .
- (٤) النظر فى شعبة فرض عليها منهج القسم الأول من المدارس الثانوية فى معظم المواد ، وهذه الشعبة هى مدارس المعلمين والمعلمات الأولية ، فهى فى حاجة إلى الإصلاح فى حدود الغاية من هذه المدارس ، وما يحتاج إليه طلابها وطالباتها من ثقافة عامة ، واستعداد خاص لمهنة التعليم والقيام بها على أكمل وجه . كل هذا من المسائل التى سيثيرها إصلاح التعليم الثانوى والنهوض بالثقافة العامة .

ولنا بعد كل هذا رجاء وأمل ، وهو ألا يقتصر إصلاح التعليم الثانوى على تقليل المواد ، وتخفيف المناهج ، لانا نخشى ، إذا اقتصرنا على هذا ، أن تتحول الحال إلى دراسة موجزة ليس بجانبها شئ من مقومات التربية التامة ، ولا من الاعداد الاجتماعى والخلقى والعملى الذى نشده ، وتصبح الحال الجديدة صورة مصغرة من الحال القديمة .

ولا يتم الإصلاح ينبغى العمل على تحقيق ما جاء فى التقرير بشأن الحياة المدرسية ، وجمعيات المعلمين ، ووجوه النشاط المختلفة ، وإطلاق الحرية للمدارس ونظارتها ومدرسيها للبراعة فى تحقيق ما تتطلبه التربية الصحيحة ، فهذا الجانب هو موطن الضعف فى حياتنا التعليمية وهو الذى يمتاز به المدارس الأجنبية ، كما أشرت إلى ذلك .

وبعد ، فإن إصلاح التعليم يرجع الى المدارس ونظامها ، ومقدار الاهتمام بالحياة المدرسية الصالحة فيها ، وإلى الروح التى ستوضع بها المناهج والتى ستنفذ بها ، وإلى ربط التعليم ومواده بالحياة ، وإلى التضامن بين المدرسة والامتحان والتفتيش . وسنرغب الإصلاح فى جميع هذه النواحي شاكرين للوزير اهتمامه ، وما يبذل من جهد ، وما أظهر من عناية بالدرس والتحصيل ، وما أتاح من فرص للبحث الشامل فى التعليم وشؤونه .

عبد الحميد حسن

البيئة وأثرها في التربية

بتفلم الأستاذ مامد عمر القادر

أستاذ علم النفس بكلية أصول الدين

معنى البيئة وأقسامها:

يراد بالبيئة الانسانية كل ما يحيط بالانسان ، أو كل ماله وجود خارج عن وجوده . وبالنظر إلى البيئة الانسانية نجد أن بعضها داخلي وبعضها خارجي ، فالبيئة الداخلية بالنسبة للانسان تشمل جميع المؤثرات البيئية التي تؤثر في النطفة من ساعة تكونها إلى أن تصبح جنيناً كاملاً فوليداً ، وذلك كحالة الأم العامة من صحة أو مرض ، وحركة أو سكون ، وجوع أو شبع ، وحرارة أو برودة ، وكأحوال الرحم الخاصة من ضيق أو سعة ، وطول أو عرض ، وحرارة أو برودة . وتشمل البيئة الخارجية كل ما يؤثر في الانسان من وقت ولادته إلى ساعة موته . والبيئة إما طبيعية وإما صناعية أو اجتماعية ؛ ويدخل في الطبيعية جميع المؤثرات التي تعمل عملها في الانسان باعتباره فرداً تاماً بنفسه ، كالماء والهواء والطعام وطبيعة الأرض والجو .

ويراد بالبيئة الاجتماعية الانسانية كل ما يؤثر في الانسان باعتباره فرداً من أفراد مجتمع من المجتمعات الخاصة أو العامة ، كالبيت والمدرسة ومحل المهنة والمساجد والمتنديات .

البيئة والوراثة:

لقد كان القدماء من العلماء يرفعون من شأن البيئة ، ويعتقدون أن آثارها أظهر من آثار الوراثة في نمو الأفراد ونشوء الأنواع ، بل إنهم كانوا يعتقدون أنه من المستطاع تحويل الأنواع الحيوانية ، واستبدال بعضها ببعض بإحداث بعض تغييرات في البيئة . ثم ذهبوا أبعد من ذلك فقالوا بإمكان تحويل المادة اللاعضوية

مادة عضوية أو كائنا حيا بتأثير الظروف الخارجية الملائمة . ولقد قالوا إذا كان من الممكن أن تؤثر البيئة في الأنواع الحيوانية بتحويل بعضها إلى بعض ، وأن تحول المواد اللاعضوية مواد عضوية فمن الممكن من باب أولى أن تؤثر في نمو الأفراد إلى حد أبعد . ولا يزال فريق من العلماء يعتقدون أن لون البشرة الانسانية يرجع إلى مقدار شدة الضوء ، وأن طول القامة أو قصرها يتوقف على مقدار كمية الطعام وكيفيته ، وأن نوع الجنين إن ذكر أو أنثى يتحدد بطعام الأم ودرجة حرارة الرحم ، وأن التربية تحدد العقلية فتزيد فيها أو تنقص منها ، وأن جميع مميزات الأفراد على العموم ترجع إلى اختلاف البيئات .

وقد كان تيار الفلسفة في القرنين السابع عشر والثامن عشر متجها نحو هذه العقيدة ، مائلا إلى القول بأن الانسان ابن عاداته ، خاضع لبيئته وتربيته ، وأن الناس يولدون سواسية وإنما يختلف بعضهم عن بعض باختلاف الظروف والفرص التي تصادفهم في حياتهم .

ويؤخذ من بعض أقوال الغزالي أنه كان يميل إلى هذا الرأي ؛ إذ أنه يصف الطفل بأنه جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما ينقش عليه .

وقد عقد ابن خلدون في مقدمته فصلا خاصا يبرهن فيه على صحة هذه النظرية . ويبدأ ديكارت مقالته الشهيرة عن « الطريقة » بكلام معناه : « أن الفكر الجيد أكثر الأشياء توزعا على الناس توزعا عادلا ، وأن اختلافنا في الرأي ليس ناشئا عن أن بعضنا منح من العقل نصيبا أوفر من نصيب البعض الآخر ، وإنما ينشأ هذا الاختلاف عن أننا نسلك بأفكارنا مسالك مختلفة ، ولا تتجه بأفكارنا نحو غايات متحدة . »

ويعتبر روسو وجون لك و آدم سميث من المذيعين لهذا الرأي ، ولم يكن اعلان استقلال الولايات المتحدة الا بمثابة « لروح العصر » الذي أعلن فيه ، فلقد كانت الفكرة السائدة في ذلك الوقت : « أن جميع الناس في الحلقة والاستعدادات

سواسية ، وكانت هذه الفكرة دائما أساس الديمقراطية ، والمبدأ الأساسى لانشاء الحكومات الشعبية الممثلة للجمعية ، كما كانت الحافز الأكبر لوجوب نشر الترية بين طبقات الناس على السواء ، ولدعوة الناس جميعا - من الملوك إلى الصعاليك - إلى اتباع دين من الأديان .

ولم يكن يفهم من معنى الحضارة إلا تحسين البيئة ، ولا من التقدم فى الحضارة إلا التقدم فى إصلاح البيئة .

ولم يزل الناس يرفعون من شأن البيئة ويهملون أمر الوراثة إلى أن جاء العصر الحاضر بخبره وشره ، وانتشرت العلوم الاجتماعية ، واتسع نطاق المباحث والتجارب الانسانية ، ودرس العلماء أحوال الأسرات وتاريخ حياتها وحياة الأفراد المتمين إلى كل منها . وبهذه الدراسات المختلفة أدرك علماء العصر أهمية الوراثة ومنزلتها وآثارها فى نمو الأفراد والنوع معا ، ولم يعد أحد يعتقد اعتقادا جديا أن من المستطاع تحويل المادة اللاعضوية مادة حية باحداث تغيرات فى البيئة .

وبكثرة تجارب البيولوجية فى السنوات الأخيرة أخذت عقيدة المتقدمين فى منزلة البيئة فى التدهور ، وصار العلماء يقرنون البيئة بالوراثة فى هذا الصدد ، فاعترفوا بمنزلة كل منهما فى نمو الأفراد والأنواع وتوصلوا إلى القول الفصل فى ذلك وهو : . أن الوراثة المسئولة عن القوى الكامنة فى الخلايا التناسلية ، وأن البيئة مسئولة عن اخراج تلك القوى من عالم القوة إلى عالم الفعل ، ثم تنميتها إلى الحد الذى تصل إليه من حدود النمو .

وإذا ليس من المعاصرين من ينكر أثر البيئة فى تكيف قوى الأفراد ؛ وربما كانت حالة الولد الذئب أكبر برهان على مالم البيئة من أثر فى الترية ويان ذلك أن فى المقاطعات الشمالية الغربية من بلاد الهند غابات تأوى إليها الذئاب ، وهذه الذئاب تغير على السكان المجاورين لهذه الغابات فختطف أولادهم ، وتقضى على حياتهم ؛ ولكنها مع ذلك تشفق على بعضهم وتبقى عليهم وتعهدهم كما تعهد أولادها .

ولما عرف بعض محبي الإنسانية الأماكن التي تأوى إليها هذه الذئاب خاطروا بأنفسهم ، وذهبوا إليها رغبة في إنقاذ ما يمكن إنقاذه من هؤلاء الأولاد . هناك عثروا على بعض الأولاد وهم على قيد الحياة فانتشلوهم ، واختطفوهم اختطافاً من أيدي هذه الذئاب بعد الجهاد العنيف . ويسمى هؤلاء المساكين بالأولاد الوحشيين (Wild Boys) أو أولاد الذئاب (Wolf Boys) .

ومن المشاهد أن هؤلاء الأولاد يسلكون مسلك الذئاب ، فيقلدونها في أصواتها ، ويأكلون كما تأكل الحيوانات المفترسة آكلة اللحوم ، ويذوقون ملابسهم قطعاً ، ويميلون إلى العزلة والالتجاء إلى الأماكن المظلمة ، ويربضون ربضة الذئاب سواء بسواء . وقد حاول الناس أن يربوهم أو يعلموهم أن يتكلموا ، أو يعملوا كما يعمل بنو الإنسان ، ويعودوهم الحياة الإنسانية ، فلم يفلحوا .

وكل ما أمكن عمله معهم هو تعويدهم الطاعة ، وتعليمهم كيف يتحدثون أصواتاً خاصة ، يعبرون بها عن أغراضهم ، أو عما يشعرون به من ألم أو سرور أو راحة أو غضب .

ولقد ذكر الأستاذ فورتين بول صاحب كتاب « الحياة في أدغال الهند » ، (١) في وصف أحد هؤلاء الأولاد المسمى سنيخار (الذي عثر عليه بعض الهنود في كهف فخلوه إلى أحد ملاجيء الأيتام في ٤ من فبراير سنة ١٨٦٧) ما يأتي :
لقد كانت تظهر عاياه علامات العته ، التي يشاهدها الإنسان في المعتوهين العاديين ، كانخفاض الجبهة . والقلق والاضطراب في الحركات والسكنات . وكثيراً ما كان يكشر عن أنيابه كما يفعل الحيوان المفترس ، لا كما يفعل الإنسان عند الغضب ، وكان أثر ذلك يشتد إذا صحب الكشر حركات عصبية في الفك الأسفل . وكان يعتمد في تعرف الأشياء على حاسة الشم أكثر من اعتماده على حاسة الذوق ، مشابهاً في ذلك الوحوش من الحيوان . ولم يكن من الممكن استمراره في أي عمل بدون مراقبة شديدة مستمرة ؛ فكان مثلاً يحمل سلة ، ولا يزال يحملها مادام

(١) Jungle Life in India by Prof. V. Ball.

هناك من يراقبه ، فإذا انتهت المراقبة أسقط السلة من يده بلا ريث . وكان طول ذراعه نحو ٧٤ سنتيمترا بما يدل على أنه كان يمشى على أربع . ولم يستطع المشى على رجليه إلا بعد بضعة أشهر . وكان إذا مشى يقف وقفات فجائية ، ويسير سير المتعثر بأذياله . وكان دائما يحرك رأسه بسرعة يمنة ويسرة ، ويحدق بنظره ، كأنما يترقب هجمة عدو خفيف .

وقد ظلت هذه حاله حتى قضى نحبه سنة ١٨٩٦ - هذا وقد قام علماء البيولوجيا بتجارب مختلفة على الخلايا التناسلية قبل التلقيح وبعده ، وعلى أجنة الحيوانات مختلفة في أدوار نموها وبعدها ، فوصلوا إلى نتائج خطيرة ، كلها تشهد بما للبيئة من آثار في حال الحيوان قوة وضعفا .

وقد ذكر الأستاذ كُنكلين ، في كتابه القيم المسمى « الوراثة والبيئة (١) » أمثلة كثيرة لما تقدم ، وقال في أثناء كلامه على المؤثرات الصناعية التي تؤثر في خلايا التناسل أو في الجنين : « إن العلماء باتباعهم الطرق المختلفة ، وبإحداث تغيرات في البيئة الخارجية ، استطاعوا أن يصلوا إلى نتائج غريبة ، منها : تكون حيوانات يصير ظاهرها باطنها ، وداخلها خارجها ، وجانبها الأيسر جانبها الأيمن ، وحيوانات أخرى ينقصها الرأس ، أو الجهاز العصبي ، أو العضلات ، أو العمود الفقري ، وحيوانات أعضاؤها في غير مواضعها الطبيعية .

وقد أمكن — فيما أمكن — الحصول على أجنة مزدوجة ، وأخرى جزئية غير كاملة ، وعلى أقزام قصار قصرا ظاهرا ، أو على عمالقة طوال أطولا مفرطا .

البيئة الطبيعية والطائى الحى :

إن هذه التغيرات التي ذكرناها آنفا ترجع إلى مؤثرات مصطنعة مؤقتة ، أما تلك التي ترجع إلى مؤثرات طبيعية دائمة فكثيرة محسوسة مشاعدة ، وكلها ترجع إلى قانون يسمى قانون البيئة ، ومواده : « أن الكائن الحى لا بد أن يعد نفسه للبقاء في بيئته ، أى أنه لا بد أن يعدل من سلوكه وأحواله العامة إذا تغيرت بيئته ، كي يقدر على الحياة فيها . »

(١) Heredity and Environment, by E. G. Conclin.

وهذا التعديل أو التغيير يحصل بطريقة سماها دارون : « المجاهدة في سبيل الحياة ، أو ما يسمى أحيانا : « تنازع البقاء » (Struggle for Existence.)
وفي هذا المعنى يقول هيرت سبنسر : « إن معنى الحياة تغير مستمر في العلاقات والأحوال الداخلية ، لمناسبة العلاقات والأحوال الخارجية ، ؛ أى أن حياة الكائن الحى لا تكون إلا بوجود رابطة تتفق مع أحوال ذلك الكائن الداخلية وأحواله الخارجية ، أو بعبارة أوضح : لابد أن يكون الكائن الحى مستعدا لمكافئة الأحوال الخارجية كى يستطيع البقاء فى بيئته الخارجية ، لأنه - إذا لم يستطع مقاومة تلك الأحوال ، ولم يتهيأ له تغييرها - لاحتالة يضعف ، ثم ينقرض فى سبيل تنازع البقاء .

ومن هنا يتبين لك أن هناك علاقة بين الكائن الحى وبيئته ؛ فهى تؤثر فيه ، وقد يؤثر هو فيها ، وتكون النتيجة أن يحصل بينهما تماثل وتشابه .

البيئة ومذهب الفسوء :

وهذا القانون السابق الذى قد يسمى قانون الإعداداد (Law of Adaptation) أى إعداد الكائن الحى لبيئته ، هو القانون المسئول فى رأى دارون وأشياعه عن النشوء والارتقاء فى تكوين الكائن الحى ، وفى تنوع الأنواع ؛ فإن هؤلاء يقولون : إن المادة الحية كانت فى أول الأمر بسيطة تكاد تكون مؤلفة من نوع واحد ، له خاصة واحدة واحدة هى الحياة فقط ، وبمرور الزمن تغيرت هذه المادة بتأثير البيئة ، وكلما زاد تأثير البيئة فى تلك المادة زاد تغيرها وازدادت تعقدا وتركبا ، فحدث ما يسمى فى عرف البيولوجيين بالتخصص أو التميز (Differentiation) أى أن كل جزء من أجزاء تلك المادة الحية المركبة يأخذ فى أن يتميز عن غيره ، ويتخصص بعمل خاص ، بالإضافة إلى كونه جزءا لا يتجزأ من ذلك الكل الذى هو الكائن الحى . أما الأجزاء الزائدة على حاجة الكائن الحى أو المضرّة بوجوده فإنها تضعف ثم تنقرض وفق قانون : « الزوال أو الانقراض » (Extirminatin) .

أثر الطائن الحى فى بيئته :

قلنا إن هناك علاقة مزدوجة بين الكائن الحى وبيئته . وقد تبين لك أثر البيئة فى الكائن الحى ، أما العكس — أى أثر الكائن الحى فى البيئة — فمحدود جداً بالنسبة للنبات وغير الانسان من أنواع الحيوان . مثال ذلك فى النبات : أن يخرج الأكسوجين بتأثير الخضير (١) فيلطف الهواء ؛ ويقلل ما فيه من ثانى أكسيد الكربون ، وفى الحيوان : أن تبني الطيور أوكارها ، وتختار الأسماك أوطانها ، وأن تخرج بعض الحيوانات والحشرات روائح كريهة تعكس صفو الجو . أما تأثير الانسان فى بيئته فظاهر ، إذ هو الذى سخر لنفسه البيئة ، وأخضعها لإرادته ، وجعلها طوع مشيئته . فشق فى الجبال طرقا ، وركب متن الهواء ، وغاص فى الماء ، وتسرب إلى مسابح الأسماك ، وانتفع بالطبيعة وما فيها من عناصر ، وتجلت إرادته وسيطرته على بيئته فى كل ماترى من مظاهر الحضارة التى لا تحصى ، ومن ذا الذى يعرف مدى هذه الإرادة البشرية ، أو يستطيع أن يتنبأ بمصير هذه المساعي الانسانية ؟ .

مماثلة الحيوان لبيئته :

مما لا شك فيه إذا أن الكائن الحى يؤثر فى بيئته ، كما أنه من البين أنها تؤثر فيه إلى حد أبعد . وقد قلنا إنه ينشأ عن ذلك التأثير المزدوج حدوث توافق بين الطرفين قد يؤدي إلى مماثلة الكائن الحى لبيئته ، وهذه الحقيقة أشد ظهوراً فى أنواع الحيوان الدنيا .

انظر إلى بعض الطيور تجد لون أجنحتها يشبه لون أوكارها . ثم اعتبر ذلك فى بعض الحيوانات تجد أن لها فراء يتغير لونها بتغير لون الجو ؛ فالحيوانات القطبية لها فراء بيض ، وبعض الأرانب التى تسكن الجهات الجليدية يكون لونها فى الصيف غيره فى الشتاء . ويعمل العلماء ذلك بأن الحيوانات الضعيفة لكى تعيش

(١) الخضير : لفظ وضعه مجمع اللغة العربية الملكى للبادة الخضراء فى النبات التى تسمى (Chlorophyl)

هادئة مطمئنة تلون بلون بيئتها ، فيخفي موضعها على أعدائها ، ويشكل عليها أمرها فتكفي شرها . ولذا يسمون هذه المشابهة بالمشابهة الدفاعية (Protective Mimicy) إذ بها يدافع الحيوان عن نفسه دفاعا سلبيا .

ومشابهة الكائن الحي لبيئته بالطريقة التي شرحناها تضعف كلما ارتقت مرتبة الحيوان حتى تصل إلى مرتبة الانسان فلا نجد مشابهة ظاهرة بين نبي الانسان وبين بيئتهم إلى الحد المذكور . ذير أننا نشاهد ما للبيئة الطبيعية من آثار في جسم الانسان وعقله وخفقه ؛ فأهل البدو وسكان الجبال وسواحل البحار أقرب إلى الشجاعة من غيرهم ، وسكان المناطق الحارة أقرب إلى الكسل والتهيج الانفعالي من سكان المناطق المعتدلة والجهات الشمالية الباردة . وللضوء والطعام وهواء المكان وسعته المكان وطبيعة الأرض والموقع الجغرافي آثار فعالة في سلوك الانسان . ولا داعي للإطالة في بيان تلك الآثار التي أصبحت معروفة لا يمكن إنكارها ولا ينبغي لأحد أن يجهلها .

عناصر البيئة الاجتماعية :

كما يتأثر الانسان ببيئته الطبيعية كذلك يتأثر ببيئته الاجتماعية التي تشمل البيت والمدرسة ومحل العمل والمجتمعات العامة كالمساجد والكنائس والحدائق والأندية والمقاهي ودور اللهو واللعب . والعوامل الاجتماعية التي تؤثر في أخلاق الانسان وسلوكه هي الآداب المنزلية وتقاليد الأسرة ، والنظم والقوانين والآداب والعلوم المدرسية ، وقوانين المهنة ونظم الزمالة ، والقوانين الحكومية ، والدين وتعاليمه .

فالمنزل هو الركن الأول للحضارة ، ونواة المجتمع الأصلية التي تظهر فيها المواهب الخفية والعقلية والاستعدادات الجسمية بصورة مصغرة . تلك المواهب والاستعدادات التي تنمو وترعرع ويطيب زرعها وينضج ثمرها في مستقبل الحياة والمدرسة هي في الحقيقة بيت ثان واسع النطاق ، وهي مثله بيئة من البيئات الاجتماعية ، غير أنها خاضعة لأنظمة متشعبة ، وقواعد اجتماعية متعددة تحدد علاقة الطفل أو التلميذ أو الطالب بغيره من أمثاله وبأمثاله وبأساتذته

وبرئيس الهيئة المسئول عن نظامها مباشرة. وفي المدرسة يقوم المدرس مقام الوالد في رعاية شؤون تلامذته .

والمهنة هي الميدان الكبير الذي يظهر فيه المرء ، وتعطى فيه الفرصة لمواهبه التي اكتسبها منذ الصغر ونماها بالتعلم والتجارب ، ويطلق لها العنان كي تعمل وتؤتي أكلها ، وتؤدي قسطها الواجب عليها نحو صاحبها ونحو بني جنسه .

وإن المرء لا يستطيع أن يقوم بمهنته حق القيام إلا إذا كانت هناك حكومة تحميه وتمكنه من أداء الواجب عليه وهو آمن مطمئن .

والعامل المسيطر على هذه العوامل الأربعة هو الدين الذي هو الرقيب الأكبر الذي يدلنا على العلاقة الصحيحة التي يجب أن تكون بين الإنسان وبني جنسه ، وبين الخلق وخالقهم .

وكل من هذه العوامل يقوى نوعاً من أنواع الروابط الاجتماعية التي تربط الإنسان بمن حوله من مهده إلى لحده . وهي على الترتيب السابق في التأثير .

ففي البيت تظهر علاقة الإنسان بأبيه وأمه وإخوته وبقية أفراد أسرته . وفي المدرسة تنسج دائرة حياته الاجتماعية ، وتظهر روابط كثيرة بينه وبين من معه ، أهمها رابطته بأساتذته ، ورابطته باخوانه التلاميذ بمدرسته أو بغيرها ، ورابطته برئيس مدرسته . والمهنة تسبب للإنسان علاقات جديدة ، وتربطه بأشخاص آخرين ، هم إخوانه في المهنة وأعداؤه على اتقانها وإعلاء شأنها . والحكومة تحدد علاقة الإنسان بالمجتمع الذي يعيش فيه على العموم سواء أكان بالبيت أم بالمدرسة أم خارجهما .

أما الدين فإنه يبين علاقة الإنسان بسكان هذا العالم وواجبه نحوهم ، كما أنه يبين علاقته بخالقه والواجب عليه نحوه . وهذه أكبر العلاقات وأوسعها نطاقاً وأعظمها منزلة .

على أن لكل من هذه العوامل ميزة خاصة . وفكرة أساسية عليها يرتكز ، وهي التي تبرر وجوده وتعد مقياساً لمقدار تقدمه في عمله ونجاحه في العمل على ترقية شؤون الفرد وتقدم الحياة العامة .

فمبدأ الحياة المنزلية الطاعة ، التي يجب أن يسعى المرء لجعلها عادة من عادات

الطفل بالطرق المشروعة ، وطاعة الطفل لولى أمره المحب له ، الذى يتجهج سبيل الصواب فى تولى شؤونه ضرورية جداً لبناء المجتمع ، لازمة جداً لتأسيس الحياة الاجتماعية الخلقية على أساس متين ، إذ لولا الطاعة المعقولة ما قامت المدنية ، وما سار المجتمع الإنسانى فى طريق التقدم . فأكبر مساعدة يقدمها البيت للمجتمع الإنسانى العام هى أخذ الناشئين بالطاعة ، التى هى ركن الفضيلة الركين ، وأساسها المتين . والعمل الأساسى الذى تقوم به المدرسة هو التنمية التى بدونها لا يكون لوجود المدرسة أى مبرر ، ولا لتأسيسها أى فائدة . ويقصد بالتنمية :

- (١) تقوية الجسم بحيث يكون خاضعاً لآشارة العقل معبراً عن إرادته .
 - (٢) تربية العقل بحيث يكون المسيطر على الجسم المسير له ، الضابط لحركاته وسكناته ، والمصدر الأساس للطلبات القويمة والميول الرشيدة .
 - (٣) تقويم الأخلاق وجعلها بحيث توجه الجسم والعقل إلى النواحي الصالحة .
- والمبدأ الأساسى الذى لا تنهض المهنة بدونه هو مبدأ التعاون والتآزر ، الذى لولاه لفقد الإنسان الركن الأساسى للمدنية ، بل لفقد الأساس نفسه ، وما كانت له منزلة ولا قيمة تذكر فى هذه الحياة ، فالإنسان المتمدين عاجز عن أداء كل ما يحتاج إليه ، والقيام بكل ما يتطلبه وتتطلبه حياته المتشعبة النواحي ، المتعددة الأغراض ، ولا يستطيع كل فرد أن ينتفع بكل ما تخرجه يده ، بل إنه محتاج إلى مساعدة غيره . حاجة الإنسان إلى غيره مزدوجة ؛ إذ أنه فى حاجة إلى مساعدة الناس . من حيث كونه مستهلكاً ومن حيث كونه منتجاً مخرجاً . وكل إنسان فى هذه الحياة منتج ومستهلك ، ومعط وأخذ وخدام ومخدوم . وهذا الأصل الذى يسمى أحياناً توزيع الأعمال ، (Division of Labour) هو الأصل الأساسى لل عمران ، والسبب الرئيسى فى تقدم المجتمع ونظامه . والغاية التى يجب أن تسعى نحوها الحكومة هى انتشار العدل بين الرعية ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، وإثابة المحسن ، معاقبة المسىء ، والأخذ من الظالم للظالم ، ومن القوى للضعيف ، حتى يودى كل

واجباته ، ويتمتع بحقوقه . فالعدل هو أساس التشريع ، ووضع القوانين ، وإقامتها بين الناس هو أكبر داع لوجود الحكومات .

والفكرة المركزية التي يدور حولها الدين هي الخضوع لإرادة الله تعالى التي هي فوق كل إرادة في جميع الظروف والأحوال ، تلك الإرادة العليا التي تحدد علاقة المرء بغيره من أبناء جنسه وبخالقه الأكبر جل وعلا ، إرادة فوق القانون البشرى تأمر الناس أن يعامل بعضهم بعضاً بالرفقة والمحبة والعطف ، أو بالعدل على الأقل ، وتدعوهم إلى العمل للدنيا والآخرة سراً وعلانية ، وتحثهم على خوف الله قبل خوف القانون البشرى ، وعلى النظر إلى الحياة المادية البحت نظرة احتقار وازدراء ، حتى لا يتهافوا عليها ولا يتغاضوا عن الفضيلة في سبيل الاستمتاع بها .

مامر عبر القادر

— ١٣ —

قال رجل : يا رسول الله ، إن لى جاراً يؤذنى ؛ فقال : انطلق فأخرج متاعك إلى الطريق . فانطلق فأخرج متاعه ، فاجتمع الناس عليه فقالوا : ما شأنك ؟ قال : لى جار يؤذنى ، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : انطلق فأخرج متاعك إلى الطريق . فجعلوا يقولون : اللهم عنه ! اللهم أخزه ! فبلغه فأناه فقال : ارجع إلى منزلك فوالله لا أؤذيك .

عجائب الوراثة

« الوراثة المتحددة الأزمنة » و « الوراثة بالتأثير »

و « وراثة الصفات العارضة وقت العلوق » (١)

بقلم الأستاذ على عبد الوارث والى

أستاذ التربية وعلم النفس بدار العلوم العليا وأقسام التخصص بالأزهر

من الوراثة أنواع تبدو شاذة غريبة لأول وهلة ، ولكن غرابتها لا تلبث أن تزول إذا ما بُحث بحثا عميقا على ضوء النظريات الحديثة للوراثة . ومن أشهر هذه الأنواع : « الوراثة المتحددة الأزمنة » و « الوراثة بالتأثير » و « وراثة الصفات العارضة وقت العلوق » . وسنتناول فيما يلي كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة على حدة فنصفه ، ونوضح مافيه من غرابة في الظاهر ، ثم نبين كيف يمكن رجعه إلى النواميس العامة التي يخضع لها انتقال الصفات من الأصول إلى الفروع .

الوراثة المتحددة الأزمنة : قد تظهر لدى الفرع في مرحلة من مراحل حياته صفة وراثية جسمية أو نفسية ، كانت قد ظهرت عند أصله في سن مماثلة لسن ظهورها لديه . وقد أطلق العلماء على هذا النوع من الانتقال اسم : « الوراثة المتحددة الأزمنة » .

وأكثر ما تحدث هذه الظاهرة في الصفات المرَضِيَّة . وقد كتب فيه كثير من العلماء وبخاصة دارون وهيكيل ، وذكروا لها عدة شواهد نبجزى منها بما يلي :

(١) قد تعرضت بايجاز للنوعين الأولين في كتابي : « في التربية » (الطبعة الثانية ، صفحات ١٣٨ - ١٤٤) . وقد زدتهما هنا بسطا وتوضيحا وأضفت إليهما النوع الثالث .

قرر العلامة ريبو أن داء الرقص (La Chorée) يصيب الفرد عادة في الطفولة والسن في المرحلة الوسطى من الحياة، والنقرس (La Goutte) في الشيخوخة، وأن هذه الأدواء إذا أصيب بها الأصول كثيرا ماتصيب الفروع بطريق الوراثة، وتصيبهم عند ما يبلغون نفس السن التي أصيب بها أصولهم عند ما بلغوها.

وقرر الأستاذ لوкас Lucas، أن بعض الأمراض الخفية كداء النقطة (Apoplexie) والصرع (Epilepsie) تظهر لدى الفروع وراثيا في نفس السن التي ظهرت فيها لدى الأصول.

وروى الأستاذ سدجويك Sedgwick، أن خنصر رجل قد أخذ لسبب مجهول، عند بلوغه سنا معينة ينحني إلى باطن كفه، وأن هذه الظاهرة نفسها قد بدت عند ولديه في نفس السن التي بدت فيها عنده.

وروى داروين، أن شخصا قد أصيب بالعمى لسبب غير معلوم وسنه سبع عشرة سنة، فأصيب به سبعة وثلاثون فرداً من أولاده وأحفاده في نفس السن التي أصيب فيها به، وأن آخر قد أصيب بالعاهة نفسها وسنه إحدى وعشرون سنة فأصيب بها أربعة من أولاده وسنهم إحدى وعشرون.

وروى داروين، كذلك أن أخوين قد أصيبا بالصمم وسنهما أربعون سنة، وظهر أن أباهما وجدتهما قد أصيبا بالعاهة نفسها وسن كل منهما أربعون.

وروى الأستاذ سكيرول Squirol، عدة حالات ظهرت فيها بعض أمراض عصبية عند الفروع في نفس السن التي ظهرت فيها عند أصولهم. ومن هذه الحالات أن رجلا قد انتحر وهو في أواخر العقد الخامس من عمره، وظهر أن أباه وجدته قد انتحرا في أواخر العقد الخامس من عمرهما؛ وأن أسرة قد أصيب جميع أفرادها بالجنون في سن الأربعين.

واستنبط الأستاذ ريبو، من أمثلة كثيرة تتعلق بانتحار الفروع في نفس السن التي انتحرت فيها أصولهم أن الوراثة المتحدة اللازمة، تكاد تكون مطردة في انتقال الميل إلى الانتحار من الأصول إلى الفروع.

وروى الأستاذ مورو Moreau، في كتابه: علم النفس المرضي، أن رجلا

قد دُعر من الثورة الفرنسية (ثورة سنة ١٧٨٩) فأصيب بجنون قضى عليه أن يحبس نفسه في حجرة من منزله، وظل كذلك مدة عشر سنين، وأن بنته عند ما بلغت السن التي أصيب فيها أبوها بهذا المرض أصيبت به كذلك وحُبست نفسها في حجرتها، بدون أن يكون هناك أى سبب خارجي يحملها على ذلك.

ومن هذا النوع ظاهرة انتقال الصلع بطريق الوراثة في الأسرات المصرية وغيرها. فقد لوحظ أن الفروع يصابون به في نفس السن التي أصاب فيها الأصول.

وهذا النوع من الوراثة يبدو غريبا. فإن الصفات التي تنتقل بوساطته كثيرا ما تكون قد ظهرت عند الأصل في وقت لاحق للوقت الذي ولد فيه الفرع. ومن الواضح أن سبب الوراثة ينحصر في المادة المكوّنة للجنين التي تتألف من البيضة واللقاح، فكيف يعقل إذن أن يرث الطفل صفة لم تكن موجودة في أحد أصليه وقت أن تكون من مائهما؟! وما السبب الذي اقتضى أن تظهر هذه الصفة عنده في نفس السن التي ظهرت فيها عند أحد أصليه؟!.

ولكننا إذا تأملنا مليا تبين لنا أن هذا النوع من الوراثة لا يختلف مطلقا عن الأنواع العادية. وذلك أنه إذا أصيب شخص في سن ما بعاهة جسمية أو بمرض عقلي من غير أن يكون ثمة سبب خارجي يترتب على مثله إصابة كذه، فما ذاك إلا لأن تركيبه الداخلي الأصلي، أى تكوينه الطبيعي، كان يقتضى أن يصاب بتلك العاهة أو بذلك المرض بعد مرور زمن معين: قد كان لديه مثلا جراثيم مَرَضِيَّة كامنة ينجم عنها بعد مرور زمن معين الغمى، أو الصمم، أو انحناء بعض الأصابع إلى باطن الكف، أو الصلع، وما إلى ذلك من العاهات الجسمية؛ أو كان فيه استعداد عصبي كامن ينجم عنه مثلا أن يصاب بعد كذا من السنين بنوع خاص من الجنون يحمله على عدم مغادرة حجرته أو على الانتحار... وهلم جرا. — فإذا ولد لهذا الشخص ولد انتقل إليه، في المادة الحيوية المؤلفة أجزاؤه منها، ذلك التكوين الطبيعي الخاص الذي كان كامنا في أصله، والذي يترتب على

انتقاله إليه بطريق الوراثة أن يصاب هو بالعاهة أو بالمرض بعد مرور نفس الزمن الذي أصيب أصله بواحد منهما بعد مروره .
وهذه الحالات تبين لنا مقدار أثر الوراثة ودقة قوانينها ، وأن ويلاتها تحقيق .
بكثير من الناس من حيث لا يشعرون .

هذا . وليست « الوراثة المتحدة الأزمته » مقصورة على الصفات المرضية . بل تظهر كذلك في كثير من الصفات الصالحة . فظهور الأسنان اللبنية في الشهر السابع من العمر ، وسقوط هذه الأسنان في نهاية السنة السادسة ، والإبغار (ظهور الأسنان الدائمة) في السنة السابعة ، وظهور كل من القواطع والانياب والأضراس الصغيرة والكبيرة والنواجذ في مواعيدها المعهودة ، وظهور شعر اللحية والشارب والعانة في دور المراهقة ، وميل الطفل إلى المشي وإلى تقليد الأصوات اللغوية ، وإلى تحطيم الأشياء وتركيبها عند بلوغ السنة الثانية ، وكلفه في السنة الثالثة من عمره وفي السنين التي تليها باقتناء ما يعثر عليه من صغير الهنات ، وبسؤال الكبار عما يحمله من عالمه الحسى والمعنوى ، ورغبته في الاختلاط الجنسي في دور البلوغ ، وظهور كل غريزة من غرائزه في إبانها المعروف . . . ، وميل أفراس الطيور إلى الطيران عند ما تنمو أجنحتها ، وإلى بناء أعشاشها عند ما تبلغ سنا معينة كل أولئك وما إليه من الأمور غير المكتسبة التي تظهر متقطعة في مراحل الطفولة . وبعد ما يصح اعتباره من ظواهر « الوراثة المتحدة الأزمته » ، لظهورها عند الفروع في نفس السن التي سبق أن ظهرت فيها عند أصولهم .

ولا تتحقق « الوراثة المتحدة الأزمته » في الصفات التي يرثها الفرع عن أصله المباشرين فحسب (الوراثة الخاصة المباشرة) ، بل تتحقق كذلك فيما يرثه عن أجداده وجداته من الدرجة الأولى أو من الدرجات التي تليها من الصفات التي لم تظهر في أبويه المباشرين (الوراثة الخاصة غير المباشرة) ، وتتحقق كذلك فيما يرثه عن الفصيلة الحيوانية أو النباتية التي ينتمى إليها من الصفات المميزة لنوعه (الوراثة النوعية) . أما فيما يتعلق بالصفات التي تنتقل إليه عن أجداده ،

وجداته . فقد ثبت أن كثيرا منها يظهر عنده في نفس السن التي ظهرت فيها عندهم ، والأمثلة على ذلك تجل عن الحصر . وأما فيما يتعلق بالصفات التي يرثها عن فصائمه فلا أدل على خضوعها لقانون « الوراثة المتحدة الأزمته » من نظرية هيكيل (١) أو نظرية التلخيص العام ، التي تقرر أن المراحل التي يجتازها الكائن الحي في أي فرع من فروع حياته في أثناء طفولته تمثل بشكل مختصر ومرتب نفس المراحل التي اجتازتها فصائمه في أدوارها المختلفة . فحالته العامة في أول مرحلة من مراحل حياته تمثل في مجملها الحال التي كانت عليها فصيلته في دورها الأول ؛ وصفاته في المرحلة الثانية تشبه من وجوه كثيرة صفات فصائمه في دورها الثاني وهكذا دواليك ، فلا ينتهي من طفولته حتى يكون قد فرغ من « تلخيص » المراحل التي اجتازها نوعه . — ومن الواضح أن سير الكائن في أثناء ارتقائه من الطفولة إلى ما بعدها على غرار ما سارت عليه فصيلته ، ليس إلا نتيجة لازمة لما ورثه عن نوعه من صفات . فإذا ثبت من « قانون هيكيل » السابق ذكره أن هذه الصفات النوعية تظهر في الكائن مرتبة حسب ترتيب ظهورها في فصائمه ، فلا ريب إذن في أن « الوراثة المتحدة الأزمته » التي نحن بصدد بحثها ليست مقصورة على ما ينقل إلى الكائن عن أصوله المباشرة وغير المباشرة ، بل تتحقق كذلك فيما ينقل إليه عن نوعه (٢) .

الوراثة بالتأثير : وهي أن ينتقل إلى الطفل بعض صفات من ذكر قد لقح أمه وولدت منه قبل أن تتصل بأبيه .

وقد لوحظت حالات كثيرة من هذا النوع من الوراثة عند بعض الحيوانات

(١) هيكيل (Hoeckel) من أشهر علماء « البيولوجيا » الألمانين ومن أظهر المؤسسين لنظرية الشوء والارتقاء .

(٢) غير أن تسميتها في حال تحققها في الصفات النوعية « بالوراثة المتجانسة المراحل » أوضح من تسميتها « بالوراثة المتحدة الأزمته » .

الراقية وعند الانسان . وقد كتب فيها كثير من قدامى المؤلفين على الأخص مثل فان هلمونت (Van Helmont) وهالير (Haller) وبورداش (Burdach) وكلود برنار (Cl. Bernard) وهوزو (Houzeau) وذكروا لها شواهد عديدة نختزى منها بما يلي :

قرر بورداش في كتابه : « علم النفس » أنه إذا لقم حمار فرسا فتجت بغلا ثم لقمها بعد ذلك حصان فانها تنتج مهرأ به بعض صفات من فصيلة الحمار . وروى معظم المؤلفين في هذا النوع من الوراثة أن فرساً إنكليزية قد علفت سنة ١٨١٥ من حمار وحشى فجاءت منه بيغل لون جلده يشبه لون الحمار الوحشى ولم تر بعد ذلك هذا الحمار . وفي سنة ١٨١٧ لقمها جواد عربى فجاءت منه بمهر لون جلده يشبه تماما لون الحمار الوحشى الذى كان قد لقمها سنة ١٨١٥ . وتكررت هذه الظاهرة مع هذه الفرس سنة ١٨١٨ و سنة ١٨٢٣ .

وروا كذلك أن خنزيراً مستأنسة قد علفت من خنزير وحشى فجاءت منه بصغار فيها لون أبيها ، وبعد موت هذا الخنزير الوحشى بزمن طويل لقمها خنزير مستأنس فجاء من بين صغارها واحد يشبه لونه كل الشبه لون الخنزير الوحشى . وتكررت هذه الظاهرة عند هذه الأنثى مرة أخرى .

وروا أيضاً أن كلبه قد لقمها كلب من غير فصيلتها فولدت منه ، ولم يلقمها بعد ذلك إلا كلاب من فصيلتها ، ولكنه كان يوجد من بين الأجراء التى تلدها كل مرة جرو واحد به صفات الكلب الأجنبى عن فصيلتها الذى كان قد لقمها أولاً وذكر « هوزو » عدة حالات من هذا النوع لاحظها عند طائفة كبيرة من الحيوانات المنزلية .

وذكر « بورداش » : أن الطفل الانسانى قد يشبه أحياناً زوج أمه الأول ، الذى قد يكون متوفى من منذ زمن طويل ، أكثر مما يشبه أباه ، ولكنه لم يورد أى مثال من هذا القبيل .

وروى ميشليه Michelet ، فى الجزء الثالث عشر من كتابه : « تاريخ فرنسا » : « أن مدام دو منتسبان قد جاءت بولد من زوجها دو منتسبان ثم صارت

صفية اللويس الرابع عشر وجاء منها بلويس - أوجيست (الملقب بالدوق دومين ، وقد ادعاه لويس الرابع عشر ، الذى كان يشبه فى كل صفاته النفسية زوج أمه الأول (ميسو دومنتسان) .

ولم نعث فيما يتعلق بانتقال الصفات النفسية عن طريق الوراثة بالتأثير ، على غير هذا المثال الذى ذكره « ميشليه » ؛ ومثال واحد لا يكفى لإثبات قاعدة ؛ على أنه غير موثوق بصحته ومن الممكن تأويله تأويلاً آخر يجعله عديم الدلالة فى هذه الناحية . وهذا ما دعا العلامة ريبو إلى عدم الاعتراف « بالوراثة بالتأثير » فى الصفات النفسية .

والوراثة بالتأثير من أشد أنواع الوراثة شذوذاً ، فإن الصفات التى تنتقل بوساطتها إلى الطفل هى صفات كائن لم يتدخل مطلقاً فى تكوينه وإنما اشترك فى تكوين أخ له من قبل ، ومن الواضح أن سبب الوراثة ينحصر فى المادة المكونة للجنين التى تتألف من البويضة واللقاح .
وأشهر النظريات التى قيلت فى تعليلها نظريتان :

الأولى نظرية « كلود برنار » التى تتلخص فى أن كمية الحيوانات المنوية إذا لم تبلغ قدراً معيناً لا تلقح البويضة إلا تلقحاً ناقصاً غير كاف لتكوين جنين ولكنه كاف لترك آثار فى البويضة ، فإذا ما لقحت هذه البويضة بعد ذلك تلقحاً كاملاً من ذكر آخر نشأ الجنين وبه بعض صفات من الملقح الأول ، لأنه قد اشترك فى تكوينه . فكل حالات الوراثة بالتأثير ، سببها فى نظر « كلود برنار » أن كمية كافية من لقاح الذكر الأول قد صادفت ببيضة أو ببيضات فلقحتها تلقحاً كاملاً وكمية أخرى كافية قد صادفت ببيضة أو ببيضات أخرى فلقحتها تلقحاً ناقصاً ، فالبيضات الملقحة تلقحاً كاملاً تتكون فيها الأجنة ، والملقحة تلقحاً ناقصاً لا تتكون فيه الأجنة حتى يكمل تلقحها ، فإذا ما كمل تلقحها من ذكر غير الذكر الأول تبدو ظاهرة الوراثة بالتأثير ، فنشأ الطفل مشبهاً للذكر الأول الذى قد اشترك فى تكوينه . ولكن هذه الظرية غير واضحة ، لأننا

علم أن الذي يلقح البيضة إنما هو حيوان منوي واحد، ولعل كلود برنار يعنى بما سماه « التلقيح الناقص » أن يكون الحيوان الملقح غير متوافرة فيه كل العناصر الحيوية اللازمة .

والنظرية الثانية نظرية « هوزو » التي ذكرها في كتابه : « دراسة القوى العقلية في الإنسان والحيوان » ، والتي تتلخص في أن التلقيح قد يترك أحيانا في رحم الأثني آثارا جراثيمية دائمة تؤثر في كل ما تعلق به بعد ذلك أو في بعضه . وهذه النظرية أدنى إلى المعقول من النظرية السابقة .

وراء الحالات العارضة وقت الملوحة : لقد ثبت أن كثيرا من الحالات العارضة المؤقتة المتلبس بها الأب أو الأم في أثناء تلقيح الحيوان المنوي للبيضة ، تنتقل إلى الجنين كما تنتقل إليه الصفات الثابتة المستقرة في أبويه .

ومن أشهر هذه الحالات حالة السكر . فقد كاد المشتغلون ببحوث الوراثة يجمعون على أن الجنين الذي يتكون في حالة سكر أبيه أو أمه ينشأ غالبا مصابا بالبله أو بالذهول الدائم أو بالصرع أو بضعف الحواس أو بالجنون . . . أي بصفة من الصفات العارضة التي كان أحد أصليه — تحت تأثير الخمر أو غيرها — متلبسا بها وقت تكونه . وقد فطن لهذه الظاهرة كثير من قدامى الباحثين وذكروا لها عدة شواهد ؛ وجاء المحدثون من بعدهم فأقروهم على رأيهم هذا وزادوا تأييدا . ومن بينهم طائفة كبيرة من الثقات الذين عرفوا في هذه الحلة بدقة البحث وشدة التحري والنظر بعين الرية إلى كل ما يعوزه الاستقراء الصحيح كالاساتذة سيجون ولوكاس ومورل وديمو وديهو وفوجيه وريو ودوكترفاج Seguin, Lucas, Morel, Demeaux, Deliaut, Vouagier, Ribot, de Cuatrefages. . . فقد أثبت الاساتذة ديهو وديمو وفوجيه في تقريرهم الذي قدموه إلى « أكاديمية العلوم » بباريس ، أن الجنين الذي يتكون في حالة يكون فيها أحد أصليه متأثرا تأثرا كبيرا بخمر أو مخدر كثيرا ما ينشأ أبله أو ضعيف القوى العقلية أو مجنونا أو

مصابا بالصرع . وأيدوا حكمهم هذا باحصائيات دقيقة واضحة هدتهم إليها ملاحظاتهم وتجاريهم . وذكر الأستاذ د. دوكترفاج ، في كتابه د. وحدة النوع الانساني ، مانصه : « لوحظ أن الأطفال الذين يتكونون في حالة سكر آبائهم يولدون غالبا مزودين ببعض صفات دائمة مشبهة الصفات العارضة المؤقتة الملازمة لحالة السكر ؛ فينشون ضعاف الحمص أو ضعاف التفكير . وقد أتى لي ، في أثناء المدة القصيرة التي زاولت فيها مهنة الطب بمدينة تولوز ، أن ألاحظ بنفسى ظاهرة من هذا القبيل في أسرة مؤلفة من ستة أفراد : أبوين وأربعة أولاد لها . أما الأبوان فقد كانا صحيحى الجسم سليمى العقل ؛ وقد تبين لي بالبحث عدم وجود أى مرض وراثى ، جسمى أو عقلى ، فى أصولهما ولا فى أفراد أسرتهما . وأما الأولاد فقد كان ثلاثة منهم (الأول والثانى والآخر) لا يختلفون فى شىء عن أبويهم ، ولكن الرابع (الثالث بحسب ترتيب السن) كان مصابا بشىء من البله والصمم . وقد ظهر لي من التفاصيل التي حصلت عليها من والديهم أن هذا الطفل الشاذ قد علق به فى وقت كان أبوه فى أثناءه فى أشد حالات السكر . حقا إن هذه الظاهرة وحدها لا تهض دليلا قاطعا على ما نحن بصده ؛ ولكن تأييدها لما ورد من هذا القبيل فى مؤلفات كثير من الباحثين من قبل كلوكاس ومورل وغيرهما يجعلها كبيرة الدلالة . »

وليس هذا النوع من التأثير مقصوراً على حالات السكر ، بل يتحقق فى كثير من الحالات الأخرى غير العادية ، التي يكون أحد الأبوين متلبسا بها وقت العلوق . ولا أدل على ذلك من حادثة غريبة رواها العلامة د. لوкас ، وتلخص فى أن امرأة كان بينها وبين طبيب أسرتهما علاقات غير شريفة . وقد حدث مرة فى أثناء اتصالها بعشيقها أن خشيت مباغته زوجها وهما على هذه الحال ، فعراها رعب شديد ظل جسمها ينتفض من جرائه طوال مدة المقاربة . وقد كان من ثمار هذا

السفاح أن جاءت بنت ، وأن نشأت هذه البنت مصابة من منذ ولادتها بانتفاض دائم شامل لجميع أجزاء جسمها .

وهذا النوع من الانتقال يبدو غريبا ؛ لأن من المقرر أن الأمور القابلة للانتقال بطريق الوراثة من الأصول إلى الفروع لا تتجاوز طائفتين : طائفة متفق على قابليتها للانتقال عن هذا الطريق، وهي الصفات الفطرية ؛ وطائفة مختلف في قابليتها للانتقال عن هذا الطريق ، وهي الصفات المكتسبة الشبيهة بالفطرية ، أى التى تستقر فى جسم الكائن ، وفى مجموعه العصبى ، وتشكلهما تشكلا ماديا ثابتا تحت تأثير تقدم العهد ، أو تحت تأثير أى سبب آخر . أما الصفات المكتسبة غير المستقرة فلم يقل قائل بقابليتها للانتقال عن طريق الوراثة . فعلى أى أساس إذن تنتقل الصفات العارضة المؤقتة التى يكون أحد الأبوين — أو كلاهما — متلبسا بها وقت العلوق ؟ ١٩ .

ولكن هذه الغرابة لا تلبث أن تزول إذا لاحظنا أن الصفات التى يولد الطفل مزودا بها تصل إليه عن طريقين : أحدهما طريق الوراثة ، وهذا لا يكون إلا فى الصفات الفطرية وما فى حكمها ؛ والآخر طريق العدوى أو طريق التأثير ، وهذا يتحقق فى الأمور التى يتعرض لها الجنين فى أثناء تكونه الأول (كالأمور التى ضربنا أمثلة لها) أو فى أدوار نموه فى بطن أمه . فكما أن الحالات الجسمية أو النفسية التى تعور الأم فى أثناء حملها (كسوء تغذيتها ، أو إصابتها بمرض عارض ، أو سقوطها على بطنها ، أو حزنها ، أو اضطراب حالتها النفسية . . . وما إلى ذلك) يسرى أثرها إلى جنينها فيولد مزودا بصفات ثابتة لا نظير لها فى الصفات المستقرة لدى أبويه وأصوله ؛ كذلك الحالات التى يتلبس بها الأب أو الأم وقت العلوق ، تؤثر فى المادة الأولية التى يتكون منها الجنين ، وتكسبها صفة لم تكن موجودة فى عناصرها الطبيعية .

ومن هذا يظهر لك أن الصفات التي تطرأ على المادة الأولية وقت تكون الجنين، أو تطرأ على الجنين في أثناء نموه على أثر أمر عارض قام بأحد الآبوين، ليست من الصفات الوراثية في شيء، وإنما هي صفات يكتسبها الجنين اكتساباً قبل ولادته . وكل ما هنالك أن وجودها في الطفل وقت ولادته يجعلها تلتبس بالصفات الوراثية الفطرية .

وإذا علمت هذا تبين لك أن تسمية الظاهرة التي تتكلم عنها باسم : « وراثية الحالات العارضة وقت العلوق » مبنى على التوسيع في استعمال كلمة : « وراثية » ، وأن الأفضل تسميتها « التآثر بالحالات العارضة وقت العلوق » .

على عبد الواهر وافي

لسانيه ودكتور من كلية الآداب بجامعة باريس

— ١٤ —

عن زريابن أبي زائدة قال : كنت مع الشعبي في مسجد الكوفة إذ أقبل حمال على كتفه كودن ، فوضعه ودخل إليه فقال : يا شعبي ، إبليس كانت له زوجة ؟ قال : ذاك عرس ما شهدناه ؛ قال : هذا عالم العراق يسأل عن مسألة فلا يجيب ؛ فقال : ردوه ؛ نعم ، له زوجة ، قال الله عز وجل « أفستخذونه وذريته أولياء من دوني ، ولا تكون الذرية إلا من زوجة ؛ قال ، فما كان اسمها ؟ قال : ذاك إملأك ما شهدته .

التقديم

بقلم الأستاذ محمد علي مصطفى

المفتش بوزارة المعارف ، ورئيس تحرير الصحيفة

جری العرف الصحفي أن يكون لرئيس التحرير كلمة التقديم ، وأن تنشر تلك الكلمة — مهما كانت قيمتها — في صدر الصحيفة التي يشرف على إصدارها ، وما كنت أعتقد أن صحيفة دار العلوم في حاجة إلى أن يقدمها إلى جمهور القراء أحد ، فانما يقدم المجهول الذي لا علم للناس به ، وأغلب ظني أن زملائي أعضاء لجنة التحرير يشاركونني في هذا الاعتقاد ، ولكنهم — لسبب لا أفهمه — ائتمروا فيما بينهم ، وفي جلسة لم أشهدها ، واجتمع رأيهم على أن يتركوا لي ولحضرة الأستاذ مدير الصحيفة الكراسة الأولى .

ووجد مدير الصحيفة ما يكتب — وعنده دائماً مدد فياض لا ينضب معينه ، من حلو الكلام ، وممتع الحديث ، وشائق الأخبار ؛ ولكنه أني إلا أن يكون عادلاً في القسمة ، فاخص نفسه بنصف الكراسة ، وترك لي نصفها الآخر ، وفكرت في الخلاص من هذا المأزق ، الذي دفعني إليه زملائي دفعا لارحمة فيه ، ولا لين معه ، واتبعتني نوبة من الشجاعة ، وتناولت القلم ، أوخيل إلى أن القلم جرى إلى بنائي ، وقدم فروض الطاعة . والآن ماذا أكتب ؟ وما البضاعة الجديدة التي أستطيع أن أعرضها على جمهور القراء ؟ ليس عندي جديد ، ولكنني سأكرر وأعيد ، فقد ما قال الناس قد يحلو المكرر ، ويلد المعاد .

ويذكرني موقفى هذا موقف أستاذ من أساتذتنا الأجلاء ، الذين كنا نتلقى عنهم علوم الترية بانجلترا ، فقد دعى مرة من قبل جماعة عليية محترمة ، لها اهتمام بالحركة التعليمية فى البلاد الانجليزية أن يلقي محاضرة فى موضوع يهم المعلمين خاصة ، والمشتغلين بشؤون الترية عامة ، فلبى الدعوة ، وسمع بهذه المحاضرة خلق كثير ، فنفروا لاستماعها جماعات ، واجتمع بمدرج المحاضرات مئات من المعلمين ، الذين كانوا يمثلون مراحل التعليم المختلفة فى البلاد ، وغيرهم من طلاب العلم ، والباحثين عن الحقيقة حبا فيها . وافتتح المحاضر كلامه بقوله ما ترجمته « أنصح الذين كلفوا أنفسهم مشقة الحضور إلى هذا المكان ليسمعوا نظرية جديدة ، أو رأيا لم يسبقنى إليه أحد ، أن يتركوا أما كنهم ، ويذهبوا إلى ديارهم ، فاني أخاف عليهم لوعة اليأس ، ومضض الانتظار ، ومرارة الخيبة » .

وأنا لا بد أن أكتب ، ولكنى لن أسجع فى القول ، ولن أنمق الكلام ، ولن أُلجأ إلى الزخرف فيه ، ولن أهتم فى أودية الخيال . سأكون صريحا إلى أبعد حدود الصراحة ، وسأكون منطقيا ، أرتب المقدمات ، وأستخلص منها النتائج ، وسأرى الواقع فى لونه الطبيعى ، مجردا من كل صناعة . أماى وأنا أكتب هذه الكلمة الأجزاء الأربعة التى صدرت فى العام الأول من حياة الصحيفة ، يتردد فيها بصرى ، فينتقل من جزء إلى جزء ، فأشاهد صورة رائعة من صور النمو والتدرج فى مدارج الكمال ، ومثلا عاليا مما ينتجه الاخلاص فى العمل ، والرغبة فى إتقانه ، والتعاون فى القيام به ، وما كنت أحسب ونحن نعالج إصدار الجزء الأول أن الصحيفة ستصل إلى هذا المستوى فى مثل هذا الأجل القصير ، فشكر الله على توفيقه ، ولينهى أبناء دار العلوم تضافرهم ، واتجاه رغباتهم جميعا نحو غرض واحد - هو خدمة اللغة والبلاد ، بتقويم ما التوى من الألسنة ، وتصفية الألفاظ

والأساليب مما شابهها من عجمة ، ونشر الآداب العربية قوية صافية ، تفيض على القراء الحياة جديدة فنية ، ويتجلى لهم فيها ألوان الجمال في العالم ، وتبعث في الجيل الحاضر والأجيال المتتابعة - إن شاء الله - روحا طاهرة زكية باصلاح المعوج من شئون التعليم ، بما تذيع من نظريات التربية ، وأساليب التدريس ، ومبادئ الاجتماع .

تصفح الجزء الأول من الصحيفة ، ثم انتقل منه إلى الثاني والثالث والرابع ، تدرك مبلغ ذلك التضافر بين أبناء دار العلوم على اختلاف أقدارهم ، فهذا مقال طالب لا يزال بعد بين جدران المدرسة ، يرشف العلم من ذلك المعين العذب ، فان تقرأه تجد فيه الفتاء والقوة والطموح والآمال العذاب ، وأحلام الشباب ، وذاك مقال شيخ في الستين من العمر أو يزيد ، يمتزج فيه النشاط بحكمة الدهر ، وتجربة العمر ، والفكر الصائب ، والرأى السديد ، وهنا فضل ممتع في فنون الشعر التي تناولها الملك الضليل ، حامل لواء الشعراء وزعيمهم في العصر الخوالى ، وهناك تحقيق تاريخي يتجلى فيه طابع أسيخ دار العلوم رواد العلم والأمناء على الحقيقة . وبعده باب فيما استحدث أهل الجيل من مذاهب الأدب تظهر فيه استقامة الفكر وسلامة الذوق ، وقوة الحججة ، وبلاغة العبارة ، والتمكن من صناعة الكتابة ، وبجانبه قصيدة جاش بها صدر شاعر ، فجرت على لسانه حكمة خالدة ، ومثلا سائرا ، ووحيا صادقا ، وعاطفة شريفة . وهناك أغنية مرحة من أغاني الربيع ، أرسلها قلب كبير مليء بالجميل من اللحن ، يرى من فنون الجمال في هذا الوجود ما لا يراه شيخ أثقلت ظهره أعباء الحياة ، وذلك فصل دمجته يراعة تصدر فيما تكتب عن عقل راجح متزن ، عالم بشئون التربية ، بصير بمشاكلها ، خير بكل جديد فيها ، يعلمه ويرى أين من رأى العين وجوه تطبيقه في بلادنا المصرية .

لا تضلُّ الشعوبُ مصباحها العلمُ يُوَاخِيهِ. راسخُ الإيمانِ
 فإذا أطفئ السراجُ فمِنُّ وضلالٌ ما تبصرُ العيانِ
 أين آلُ العباسِ ريحانةُ الدهرِ وأين الكرامُ من مروان ؟
 خفت الصوتُ لا البلادُ بلادُ يوم بانوا ولا المغاني مغاني
 أزهرت في حمام الضادُ حيناً وذوت بعدهم لغير أوان
 إن أصاحت فالقولُ غيرُ فصيحٍ أورتُ فالوجوه غيرُ حسان
 فضت نحو مصر مثل قطاةٍ فزعتها كواسرُ العقبان
 يكدرُ العيش مرةً ثم يصفو كم لهذا الحياة من ألوان
 ثم هبت زعازعُ تركتها بين مرِّ الأسى وذلِّ الهوان
 وإذا نهضةٌ تدب بمصرٍ كديب الحياة في الأبدان
 وإذا اليومُ باسمُ والليالي مشرقاتُ والذهرُ ملقى العنان
 وإذا الضادُ تستعيدُ جمالا كاذ يقضى عليه ريب الزمان
 نزلت في حمى فؤادٍ فاضحت من أياديه في أعزِّ مكان
 ملك شاد للكنانه مجداً فسمت باسمه على البلدان
 كلَّ يوم يمدُّ للعلم كفاً خلقت للوفاء والإحسان

إن دارَ العلوم بنيةُ إسماعيل تزهي به على كل باقى
 من يسامى أبا المواهب والأشبال في فيض جوده أويدي ؟
 هي في مصر كعبةٌ بعث الشرُّ قوا إليها طوائف الركبان
 قد أعادت عهدَ الأعراب في مصر إلى ناعم من العيش هاني
 وأظلت بنتَ الفدافد والبيد بأفياء دوحها القينان

درجت بين فتيه وشيوخ كلهم ينتمى إلى سحبات
وأطلت من الحباء عليهم فسبتهم بسحرها الفتان
فُتِنُوا بِالْعُذَيْبِ وَالسَفْحِ وَالْجَزْعِ وَوَادَى الْعَقِيقِ وَالصَّيْهَانِ
يَتَلَقَّوْنَ وَحَيْهَا كُلَّ حِينٍ وَيَنَاجُونَ طَيْفَهَا كُلَّ آنٍ
وَيَغْنُونَ بِاسْمِهَا مِثْلَ مَا غَنَى زَهْرٌ بِسِيرَةِ ابْنِ سَنَانٍ
نَثَرَتْ دُرَاهَا الْفَرِيدَ فَكَانُوا أَسْرَعَ النَّاسِ فِي التَّقَاطُفِ الْجَمَانِ

رب شيخ أقى سواد الليالى ساهد العين جاهداً غير وانى
من بحوث إلى كتابة نقد ثم من معجم إلى ديوان
يقنص الآبدات عزت على الصيد فاست بين الربا والرعان
سارحات كأنها قطع الوششي يطرزن سندس القيعان
إن تسمعن نبأ غبن في الريح كسر يسان بالكتمان
فاذا ما أمن يخرجن أرسا لا كحل نسطن من أرسان
كل جزء في جسمهن له عين على الشر أو له أذنان
لم يزل صاحبي يعالج منهن نفاراً مستعصياً ويعانى
في فلاة لا تحمل الريح فيها غير رنات قوسه المرنان
كلما طار خلفهن تهربن هباء في غيب النسيان
فتراه حيناً كما وثب الليث وحيناً ينساب كالافعوان
وهي تلهو به فآنا تجافيه وآنا تعلّى له قدانى
مرة في مدى يديه وأخرى ماله باقتناصن يدان
لم يقف نادماً يقرب كفيه فعال المجوف الحيران

الوراثة والعادة عند أفلاطون وأرسطو

ووساطة الفارابي بينهما

بقلم ابراهيم بيومي مذكور

دكتور في الآداب والفلسفة

إن مشكلة الوراثة والعادة من المشاكل التي تشغل أذهان علماء الأخلاق والنفس والتربية إلى حد كبير . فهم يتساءلون : ألاخلاق كلها موروثية يأخذها الخلف عن السلف ، أم مكتسبة تنشأ وتنمو بالدربة والاعتقاد . وإذا صح أن الطفل يرث صفات آبائه وأجداده ، فعلى أى نظام يتم هذا التوارث ؟ وهل له قوانين ثابتة يعتد بها ؟ ثم إذا كنا نؤمن بالوراثة الخلقية ، فما قيمة وسائل التربية والتعليم ؟ وما مقدار نفوذها في الإصلاح والتقويم ؟

لأننا نحاول اليوم أن ندرس هذا الموضوع من جهة علم النفس التجريبي ، ولا من ناحية البحوث الحديثة الخاصة بالطبائع في أصولها وتكوينها وطريق علاجها ، وإنما نريد أن ندلى ببعض ملاحظات تاريخية قد تعيننا على فهم نقطة من أدق نقط علم النفس والتربية .

اختلف الناس ولا يزالون مختلفين في أمر الوراثة والعادة وتعارضهما ، ومقدار تغلب إحداها على الأخرى . وقد يما قرروا أن الولد سر آية ؛ كما قالوا : لكل امرئ من دهره ما تعودا . فمن مناد بالوراثة يعلى شأنها مدعياً أن الفضيلة فطرية لا مكتسبة ، وأن الوعاظ والمصلحين لا يقوون على انتزاع خلق سبي وتكوين آخر صالح ؛ ومن معتد بالعادة يظن أنها المنبع الوحيد لمختلف الطبائع والخصال ، والعلاج الناجع لتقويمها . ومشكلة كهذه ما كانت لتخفى على فلاسفة الإغريق ، وخاصة أفلاطون وأرسطو اللذين يعتنقان ، فيما يظهر ، رأيين متباينين في هذا الصدد . فينا يرى الأول أن للوراثة قوة لا تسمو إليها العادة ،

وأن الغرائز غير قابلة للتغيير ، إذا بالثاني يعان أن الأخلاق كلها مكتسبة ، وأن العادة أهم عامل في تكوين السجايا والخلال . لاحظ الفارابي هذا الخلاف الذي لم ينتبه اليه كثير من الباحثين السابقين ، وعرضه في دقة وأمانة تامة ، ولما كان يعتقد أن الفلسفة واحدة ، وأنه يجب أن يتفق الفلاسفة فيما بينهم ، اجتهد في أن يوفق بين الفيلسوفين الاغريقين في رسالته المسماة : كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون الإلهي وأرسطو طاليس (١) . وهانحن أولام تاركوه يشرح هذه المسألة التاريخية ، ومبينون إلى أي حد نجح في مهمة التوفيق التي حاولها .

يقول في رسالته الآتفة الذكر : إن « أفلاطون يصرح في كتاب السياسة (la République) وفي كتاب بوليطيا (le Politique) خاصة بأن الطبع يغلب العادة ، وأن الكهول حيثما طبعوا على خلق ما يعسر زوالهم عنه ، وأنهم متى قصدوا زوال ذلك الخلق عنهم ازدادوا فيه تماديا . ويأتى على ذلك بمثال من الطريق إذا نبت فيه الدغل والحشيش والشجر معوجة متى قصد خلاء الطريق منها أو ميل الشجر إلى جانب آخر ، فانها إذا خليت وسنيلها أخذت من الطريق أكثر مما كانت أخذت من قبل (٢) . »

على العكس من ذلك ، يصرح أرسطو في كتاب نيقوماخيا (l'Ethique à Nicomaque) أن الأخلاق كلها عادات تتغير ، وأنه ليس شيء منها بالطبع ، وأن الانسان يمكنه أن ينتقل من كل واحد منها إلى غيره بالاعتناء والدرية (٣) . لا يتردد الفارابي لهذه النصوص في أن يؤكد أنها تترجم عن نظريتين

(١) هذه الرسالة هي الجزء الأول من المجموعة التي طبعها ديتريتشى تحت العنوان الآتى : الثمرة المرضية في بعض الرسائل الفارابية ، لندن ، ١٨٩٠ ، وتوجد أيضا في مجموعة فلسفة أبي نصر الفارابي .

(٢) الفارابي ، الثمرة المرضية ، ص ١٦ - ١٧ . غنى عن البيان أن في أسلوب الفارابي شيئا من الالتواء تأبى علينا أمانة النقل تعديله .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٦ - راجع أيضا في — Aristote, l'Ethique à Nic. II, 111, 4, V, 2

متضادتين ؛ غير أن الفارابي يعتقد أن هذا التضاد في الحقيقة صوري . وأن أفلاطون ، وإن نادى بالورثة ، لا ينكر ما للعادة من يد في اكتساب خلقها ، كما أن أرسطو الذي يعتز بالعادة لا ينفي الأخلاق الموروثة . ولئن بدا في لهجة أفلاطون تمسكه بالغرائز الفطرية ، ما ذاك إلا لأنه يدرس النظم السياسية التي تعتمد اعتمادا أساسيا على هذه الغرائز . إذ من الواضح أنه يصعب كثيرا استبدال نظام سياسي بآخر ، فللعادة في هذا المضمار أثر محدود . ومن الصعب كذلك أن نحاول إحلال خلق جديد محل خلق قديم موروث . ولكن هذه الصعوبة لا تلغى عمل العادة وأثرها في اكتساب الأخلاق المختلفة ؛ فبين العسير والممتع مرحلة لا يستهان بها وعلى هذا يعترف أفلاطون ، في رأى الفارابي ، بأن للعادة والتربية مجالا في الحياة السياسية والخلقية ، وإن كان يُعوّل التعويل كله على الاستعداد الطبيعي . وكل ما يحاول إثباته إنما هو صعوبة الانتقال من خلق موروث إلى خلق مكتسب (١) وأرسطو نفسه لا ينكر هذه الصعوبة وإن عد العادة أكبر سلاح في تكوين الأخلاق المختلفة . فكل خلق في ذاته قابل للتحويل ولأن يستبدل به غيره ؛ ومع هذا قد تلاقى أحيانا عناء كبيرا في إحلال خلق محل آخر . ولم يفت أرسطو أن يلاحظ ، في دقة ، أن اكتساب العادات يختلف باختلاف الأشخاص ؛ فبينما يكتسب شخص عادة ما بسهولة تامة إذا بالآخر يعز عليه اعتيادها . (٢)

فأفلاطون وأرسطو يناديان إذا بالورثة والعادة ، ويعتقدان أن التربية ناجعة في التخلق بالفضيلة والخلوص من الرذيلة . وليست الغرائز الفطرية التي ينادى بها أفلاطون بمجهولة لدى تلميذه ؛ كما أن العادة التي يستمسك بها التلميذ ليست مهمة لدى أستاذه . بهذا الحل استطاع الفارابي أن يقف موقفا وسطا بين الفيلسوفين الاغريقين ، وأن يقرب المسافة بينهما إزاء هذه المشكلة الدقيقة .

إذا بحثنا عن قيمة هذا التوفيق ومقدار نجاحه ، وجدنا أن أفلاطون الاجتماعي والأخلاق يعلق كبير الأهمية على الاستعدادات الفطرية ؛ فهو يحاول أن يدعم السياسة والأخلاق على أسس صيكلوجية . فمن الوجهة السياسية يرى أن تقسيم

(١) الفارابي ، الثمرة المرضية ، ص ١٧ - ١٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٠ .

العمل والطبقات الاجتماعية يجب أن تتلاءم، لأمع الحاجات المادية وحدها، بل مع صفات الأفراد المختلفة. فكل عمل من أعمال الجمعية يستلزم استعدادات خاصة. فحب المال لدى الصانع، والجرأة النيلية لدى الجندي، وبعد النظر والتفكير العميق لدى حامي المدينة، كل هذه تعتمد على صفات فطرية لا يستطيع أى نظام اجتماعى خلقها (١). ولا بد أن يتوافر فى الرؤساء السياسيين بوجه خاص صفات غريزية، عنى أفلاطون بسردها سردا مفصلا فى كتاب السياسة أو (الجمهورية) (٢). ومن الناحية الخلقية يعتقد أفلاطون كذلك أن الفضيلة محتاجة إلى طبائع أولية غير مكتسبة بالدرس والنظر. (٣) ويحدثنا فى إحدى محاوراته المسماة مينون - (Ménon) - سماها العرب مانن - عن معونة إلهية (conours divin) لا بد منها لاكتساب الفضائل (٤). ولسنا ندرى بالضبط ماذا يعنى بهذه المعونة الإلهية؛ العبارة فى ذاتها مبهمة وإن استعملها مؤسس الأكاديمية غير مرة؛ ويخيل إلنا أنه يريد بها الاستعداد الفطرى (٥). وأن فيلسوفا يبنى نظرية المعرفة (la théorie de la connaissance) على أسس غريزية، ويعتقد أن التعلم ليس الا تذكرا لمعلومات عرفت من قبل (Réminiscence) فى عالم سابق لعالمنا هذا، لا يبدو غريبا منه أن يؤسس الفضيلة على دعائم موروثة. على أن أفلاطون يبالغ فى الاعتداد بالفطرة فى علم الأخلاق أكثر منه فى علم النفس؛ فهو يسمح للقضاة بأن يحكموا بالموت على كل شخص رأوه غير قابل للإصلاح، ويعلن أن الفضيلة التى تعتمد على العادة وحدها ليست إلا انقيادا آليا هو أشبه ما يكون بخضوع الأرقاء. (٦)

يبدو من هذا لأول وهلة أن أفلاطون يحارب العادة ويحمل عليها حملة شعواء،

(١) Platon, République, 455 b.

(٢) Ibid, 490.

(٣) Brochard, Etuder, r. 177

(٤) Platon, Ménon, 100 a.

(٥) Ed, Zeller, Die Philosophie der Griechen . . . , 11, I, 594

(٦) Platon, République, 410 d = Phédon, 82 a.

غير أنه لا يهاجم إلا العادة العمياء التي لا تستضيء بضوء الفلسفة والتفكير المنتظم. أما العادة الصحيحة النيرة فهي، في نظره، أساس تبنى عليه التربية والتثقيف. لذلك أخذ على نفسه أن يكون نظريات يداوجية عمادها العادات المتزنة. ونظرة إلى الجزء الثاني والثالث والسابع من كتاب الجمهورية، وإلى تحريرها في النواميس، وبخاصة الجزء السابع تحملنا على أن نعد أفلاطون بين كبار مربى التاريخ القديم. ومرب لا يعتقد نجاح العادة في مهمتها يناقض نفسه ويهدم أكبر عامل من عوامل دراسته. فلم يكن بدعا أن يجهد مربى الجمهورية نفسه في تنمية الغرائز التي ورثها الأطفال عن آبائهم، والتي تساعد على تنشئتهم تنشئة صالحة. وتليذ سقراط لا يستطيع أن ينكر أن الفضيلة ممكنة الا كتساب تنال بالدربة والمراة. نعم إنه يخالف أستاذه في بروتاجورا — Brota goras (أو فروطا غورس كما سماه العرب) حيث ينقض هذه النظرية؛ ولكن هذه المخالفة مؤقتة، وما هي إلا لحظة حتى يعود أفلاطون الى اثبات أن الفضيلة قابلة للتعلم مادامت موضوع علم مستقل بذاته. (١)

يد أن أرسطو - والحق يقال - هو أول فيلسوف أبان في جلاء أثر العادة في اكتساب الفضيلة، ودرس ذلك دراسة تطبيقية وتحليلية استنتج منها قوانين عامة فهو يقرر أن «العادة هي التي تنمي الفضائل وتمسكها من نفوسنا؛ فالمرء يصبح عادلا بتمسكه بالعدالة، وحكيما بتعلقه بالحكمة، وشجاعا بوقوفه مواقف الشجاعة» (٢)، لا شك في أن أفلاطون أرشد تلميذه إلى قيمة العادة في التربية، إلا أنه يرجع إلى التليذ الفضل في دراسة العادة، لأول مرة، دراسة نفسية وخلقية موسعة. فدراسته النفسية تدل على دقة وتعمق بالغين. وتحليله لبعض العادات الخلقية كان حليف الصواب في أغلب الأحيان. ورغبة أرسطو في رد الفضائل كلها إلى العادة تتفق مع مذهبه العام، فان من يعتمد أولا وبالذات على الوقائع والحوادث المحسوسة لا يؤمن كثيرا بالغريزة وقوتها. فذهب أرسطو الواقعي يسود في كل مكان: ففي

(١) Id., *Protagoras*, 316 d.

(٢) *Aristote, Ethique à Nicomaque*, 11, I, 3, 4.

الدائرة الصيكلوجية يحزم بأن المحسوسات أصل المعلومات العامة ومصدر تكوينها؛ والأخلاق في رأيه، لا تقل عن الطبيعة، في اعتمادها على الأفعال الملبوسة والأشياء المشاهدة. لذلك كانت فنا (art) ينمو ويضعف بنفس الوسائل والأسباب التي تؤثر في الفنون الأخرى (١). وعلى هذا هو أكبر فارق بين الأخلاق عند أرسطو وأفلاطون؛ فبينما يعتد الثاني بالغرائر اعتدادا كبيرا، إذا بالأول لا يعول عليها كثيرا. فالفطرة (l'innéisme) محدودة النفوذ في المذهب الأرسطي، سواء أكان ذلك في الأخلاق أم في علم النفس. وفي رأى أرسطو أن المرء يولد وفيه استعداد للخير كما أن فيه استعدادا للشر؛ ولكننا لا نستطيع أن نسعى واحداً من هذه الاستعدادات فضيلة أو رذيلة (٢).

وهنا يحق لنا أن نتساءل إذا كان أرسطو يؤمن بوجود استعدادات فطرية فكيف يلغى عملها؟. للاجابة عن هذا الاعتراض يلجأ الفارابي إلى فكرة القوة والفعل (l'acte et la puissance) التي هي من أعقد النقط في فلسفة أرسطو، والتي تدخل في نواحيها المختلفة دون أن تشرحها شرحا وافيا. يقول الفيلسوف العربي: «إن الطفل الذي نفسه تغد بالقوة ليس فيه شيء من الأخلاق بالفعل ولا من الصفات النفسانية. وبالجملّة فإن كل ما فيه إنما هو بالقوة؛ ففيه تهيؤ لقبول الشيء وضده؛ ومهما اكتسب أحد الضدين يمكن زواله عن ذلك الضد المكتسب إلى ضده» (٣). فعقلية الطفل عند الفارابي ليست لوحاً أملس خالياً من كل نقش أو صحيفة بيضاء لا أثر فيها؛ كلا بل على ذلك اللوح نقوش وفي هذه الصحيفة رسوم. بيد أن هذه النقوش غير واضحة، وهذه الرسوم شاحبة بحيث يمكن تغييرها وتبديلها بحسب الإرادة (٤). هي نقوش ورسوم في عالم القوة، فوجودها فرضي وحقائقها اعتبارية؛ ولا يمكنها أن تتجاوز أفقها هذا إلى عالم الفعل إلا بمؤثرات

Ibid., II 19, (١)

Ibid., 11, VI, 2 ; 3 VI, XI. (٢)

(٣) الثمرة المرضية، ص ١٧٠.

(٤) المصدر نفسه.

اخرى خارجية . هذا هو الحل الذى يتقدم به الفارابى ليحدد قوة الغرائز ومدلولها من الناحية النفسية بوجه عام وفي رأى أرسطو بوجه خاص . وهو حل خاطئ . فى جملة ؛ ذلك لأنه يعتبر الطفل صفحة غفلاً قابلة لكل ما يراد بها . ويكاد يقضى على الاستعدادات الفطرية ؛ فان الاستعداد الكامن فى عالم القوة أقرب الى العدم منه الى الوجود . نعم ان علم النفس التجريبي لم يصل بعد إلى أن يعين بالدقة الخصال الأولى لدى طفل ما ، غير ان هذه الخصال موجودة وتعارض أحيانا مع وسائل التربية والتعليم . هناك صفات فطرية قطعاً وثابتة بالفعل لا بالقوة ؛ وفى مقدورنا ان نبين الكثير منها لدى مختلف الأطفال .

فالفارابى وإن اخذ بالاستعدادات الطبيعية التى نادى بها أفلاطون هو إلى مذهب أرسطو اميل ، وما صيكلوجية الخصال ، فى عرفه ، الا شبه بصيكلوجية المعرفة فكلنا يولد وهو مستعد لرؤية وفهم الأشياء الجزئية ، ولكن ذهنا فى أول لحظة نصل فيها إلى هذا العالم خال من كل فكرة عامة . كذلك يولد الطفل وفيه استعداد للتخلق بأى خلق أو تعود أية عادة ، دون أن يكون ذا خلق محدود أو عادة معينة ؛ وفى وسعنا أن نوجه استعداده حيث نريد . بل ، وأكثر من هذا ، الأخلاق المكتسبة - مثل المعلومات المكتسبة - تعادل فى رأى الفارابى الأخلاق الموروثة وقد يسميها أحيانا أخلاقاً موروثة ، إذا ما وصلت إلى درجة خاصة من الثبات والاستقرار ^(١) . فالعادة والتكرار تعمل فى علم الأخلاق ما تعمله الحواس فى علم النفس : الأولى تخلق فينا من عدم صفات جديدة ، والأخيرة هى سبيل تكوين أفكارنا العامة . وهكذا يقود المذهب التجريبي (l'empirisme) دائماً فى الأخلاق إلى مثل النتيجة التى يقود إليها فى علم النفس ، ومن العبث أن نحكم على آراء الفيلسوف الخلقية قبل أن نعرف نظرياته النفسية .

ابراهيم يوسى مذكور

دكتور فى الآداب والفلسفة

التعليم في الهواء الطلق

— ٢ —

بقلم الأستاذ محمد عطية البراشي

المفتش بوزارة المعارف

بيننا في الكلمة السابقة الغرض من التعليم في الهواء الطلق، والحاجة إلى الحياة فيه، وذكّرنا الطريقة التي بها يمكن تنظيم ذلك التعليم، وشرحنا المبادئ المتبعة في مدارس الهواء الطلق بألمانيا. واليوم نقول:

أه نظام التعليم في الهواء الطلق بألمانيا يتضمن:

أولاً: تخفيض زمن التعليم النظري إلى نصف الوقت المعتاد، وقضاء الوقت الباقي في الهواء الطلق في دروس عملية لها علاقة كبيرة بالحياة الخارجية؛ لأن ضعاف الأجسام من التلاميذ لا يستطيعون أن يمشوا وقتاً طويلاً في الدراسة النظرية. ثانياً: ألا يزيد الفصل على عشرين طفلاً لكل معلم؛ حتى يتمكن المدرس من العناية التامة بكل طفل.

ثالثاً: يستثنى هؤلاء الأطفال من النظام القاسي ومن العقاب.

وقد كانت النتائج الصحية محسنة؛ فقد شفي كثير من المرضى، واكتسبوا بعض الخشونة والتكشف، وقوة المناعة، وتحمل هجمات المرض. وقد استفادوا من الوجهتين: العلمية والخلقية بقدر ما استفادوا من الوجهة الصحية؛ فقد زاد نشاطهم واتباهم، وأصبحوا بعد نجاح العلاج قادرين على السير مع غيرهم في المدارس العادية، وأظهروا نجاحاً كبيراً في دروسهم، وحسن سلوكهم، وكسبوا الكثير من العادات الحسنة كالنظام، والنظافة، والمواظبة، والاعتماد على النفس،

وضبط الشعور، والحكمة والحزم. وجمعوا بين التربية الجسمية والطبيعية والخلقية والعلمية والعملية والاجتماعية.

والأطفال في تلك المدارس يعتبرون أنفسهم أسرة كبيرة، ويدربون على الأمور الضرورية في الحياة الاجتماعية المنظمة. وأساس ذلك كله التنويع، من عمل شائق إلى لعب، ومن لعب إلى عمل، ومن قراءة إلى غناء، ومن رياضة إلى نوم. وهكذا تكون حياتهم المدرسية في الهواء.

انتشار هذا المشروع في غير ألمانيا :

ولما انتشرت التقارير في جميع أنحاء ألمانيا عن فوائد التعليم في الهواء الطلق أخذت السلطات المدرسية تستكثر من هذا النوع من المدارس في المدن الألمانية، ثم انتقل المشروع بعد ذلك إلى إنجلترا سنة ١٩٠٧، وإلى أمريكا سنة ١٩٠٨. وفي فرنسا كانوا ينشئون في الأرياف مدارس يذهب إليها أطفال المدن أيام العطلة. ثم انتقلت الفكرة إلى اسكتلندا، وأستراليا، وإيطاليا، وكندا، والمكسيك، واليابان. ولذلك يمكننا أن نقول إن مشروع التعليم في الهواء الطلق قد انتهى من مرحلة التجربة، وأصبح في ألمانيا وأمريكا مثلاً يعد أمراً جوهرياً في النظام المدرسي في التعليم الأولى.

وفي أمريكا كانت تغير الحجرة العادية إلى حجرة ذات ثلاثة جوانب، أما الجانب الرابع فكان يترك مفتوحاً للهواء. ابتداءً التعليم في تلك الحجرة في البرد القارس، وكان الفصل المدرسي مقصوراً على المصايين بالدرن وفقر الدم. وكانت العناية بالتدفئة، وبالملابس الواقية من البرد كبيرة. وكان غذاء التلاميذ جيداً، وكانت الدروس قليلة فظهر التحسن على الأطفال من كل ناحية. والامريكيون ينشئون بعض هذه المدارس في المتنزهات العامة، والامكنة الهادئة، والجزائر التي يسهل الذهاب إليها بالقوارب، وفي معسكرات في الخلاء، وفي حدائق المدارس، وأقبيتها. وهم يشجعون تلك المدارس تشجيعاً عظيماً قل أن يوجد في البلاد الأخرى؛ لما وجدوه من النجاح الكبير في علاج المصايين بالدرن في الدور

الأول من المرض ، ويقصرون هذه المدارس على معالجة هؤلاء المرضى والعناية بهم .

أما في أوريطة فالغرض من هذه المدارس أعم ، فيقبل التلاميذ المصابون بأنواع مختلفة من المرض غير المعدى . ومن الإحصاء الآتى يظهر مقدار السرعة في انتشار حركة التعليم في الهواء الطلق بالولايات المتحدة في أمريكا . وسنين عدد المدن التى لديها مدارس من هذا النوع من سنة ١٩٠٨ إلى يناير سنة ١٩١٢ :

السنة المدرسية عدد المدن التى لديها مدارس في الهواء الطلق

٣	١٩٠٨ - ١٩٠٧
٧	١٩٠٩ - ١٩٠٨
١٥	١٩١٠ - ١٩١٠
٣٢	١٩١١ - ١٩١٠
٤٤	١٩١٢ - ١٠١١

النظام اليومي لمدرسة (مارلوتنبرج) الألمانية :

كما تعنى المدرسة بالملابس والوقاية من البرد كذلك تعنى بالطعام بحيث يكون صحيا ، وفيه العناصر الغذائية الكافية . ولنبين هنا النظام اليومي للمدرسة الألمانية في (خارلوتنبرج) فنقول :

(١) يصل التلاميذ إلى المدرسة في الساعة (٥ و ٧) صباحا ، ثم يشربون فنجانة من الحساء ، ويأكلون قطعة من الخبز والزبد .

(٢) تبدئ الدروس في الساعة الثامنة ، وكل حصه نصف ساعة ، تليها فترة مقدارها خمس دقائق للراحة .

(٣) في الساعة العاشرة يأخذ الأطفال فنجانة أو اثنتين من اللبن ، وقطعة من الخبز والزبد .

(٤) يتناولون الغداء في منتصف الساعة الواحدة بعد الظهر ، وهو يحتوى على ثلاث أوقيات من اللحم لكل تلميذ ، وعلى خضر وحساء .

- (٥) بعد الغداء يستريح الأطفال وينامون ساعتين .
- (٦) وفي الساعة الرابعة يتناولون لبناً سم خبزاً مع زبد ومرق .
- (٧) تحتوي الأكلة الأخيرة على حساء ، وخبز ، وزبدة ، ويكون ذلك في الساعة (٦ و٤٥) وبعد ذلك يعود الأطفال إلى منازلهم .
- وكان مقدار ما ينفق قبل الحرب على طعام الطفل الواحد في اليوم ١٦ سنتيماً على الأكثر . ويعطى الفقراء الغذاء بالمجان ، ويدفع غيرهم كل النفقات أو جزءاً منها بحسب يسرهم وعسرهم .
- وفي المنزل يأكل الأطفال عادة قبل ذهابهم صباحاً إلى المدرسة لبناً وخبزاً ويضاً وعند عودتهم مساءً يتناولون طعاماً خفيفاً .
- ويختلف نظام المدارس الأمريكية اختلافاً قليلاً عن نظام المدارس الألمانية ؛ فالיום المدرسي بأمريكة أقصر ؛ وعدد الأكلات أقل .
- وفي المدارس الإنجليزية يتناول التلاميذ ثلاث أكلات : الإفطار ، والغداء ، والشاي ؛ ثم يذهبون إلى منازلهم قبل الغروب ، ويعطون لبناً في الساعة الحادية عشرة صباحاً إذا أمر الطبيب بذلك . وبعد الغداء يستريحون ساعتين . وأنواع الطعام متنوعة ، موزعة توزيعاً حسناً ، وثمنها معتدل . وكان مقدار ما ينفق على الطفل الإنجليزي قبل الحرب شلنين وثلاثة بنسات في الأسبوع .

النظام اليومي في نيويورك :

يختلف النظام اليومي في الترتيب باختلاف البلاد والمدن . ولتثبت هنا الجدول اليومي لمدرسة الهواء الطلق في نيويورك ، وهو من أحسن الجداول لذلك النوع من المدارس :

من	إلى	
٨ - ٤٥	٩	يصل التلاميذ إلى المدرسة ، ثم يدفنون أنفسهم .
٩	٩ - ٣٠	يتناولون أيضاً ثم كوباً كبيراً من اللبن ، ويستريحون في الهواء مع التحفظ من البرد .
٩ - ٣٠	١٠ - ٣٠	أعمال مدرسية .

من	إلى	
١٠ - ٣٠	١٠ - ٤٥	فترة قصيرة لتناول لبن وخبز .
١٠ - ٤٥	١١ - ٣٠	أعمال مدرسية .
١١ - ٣٠	١٢	فترة للنظافة وغسل الأيدي ، والاستعداد لتناول الغداء .
١٢	١٢ - ٣٠	الغداء .
١٢ - ٣٠	٢	يستريح التلاميذ في أسرهم الخاصة ويشجعون على النوم .
٢	٣	أعمال مدرسية .
٣	٣ - ١٥	فترة قصيرة لتناول لبن وخبز .
٣ - ١٥	٤	أعمال مدرسية .
٤	٥	ألعاب .
٥	٥	العودة إلى المنزل .

المنهج في مدارس الهواء الطلق :

يعنى في المنهج بالأمور الآتية :

- (١) الرياضة البدنية وبخاصة تمارين التنفس التى تعمل مرتين كل يوم . ومدة التمارين خمس دقائق .
- (٢) الأعمال اليدوية التى تشغل ست ساعات فى الأسبوع ، وتشمل : فلاحه البساتين والعمل فيها ، والنجارة ، وصنع السلال ، ورفء الملابس ... الخ .
- (٣) دروس مشاهدات الطبيعة .

الملابس :

لقد برهنت التجارب فى البلاد الباردة على أن الأطفال لا يستفيدون من العلاج بالهواء الطلق إلا اذا شعروا دائماً بالدفء ، وذلك بإعطائهم ملابس كافية ملائمة للوقاية من البرد كالملابس الصوفية ، وعمل كل وسيلة للتدفئة . وتقوم المدارس وجمعيات التعاون بما يحتاج إليه الأطفال من الملابس إذا كان آباؤهم فقراء . ويعطى كل طفل مِدرعاً ولحافين وممطرة وكمة وقفازين . ويزود الأطفال فى كثير من المدن بحلل من حلل الاسكيمو المصنوعة من ملاحف ثقيلة تلبس على الملابس العادية . وفى المدارس أحمذية وجوارب تعطى لمن يحتاج إليها من الأطفال الذين يأتون إلى المدرسة وأقدامهم مبتلة من المطر .

محمد عطية الدبراستى

تربية الشخصية في مرحلة البلوغ

بقلم الأستاذ محمد خلف الله

عضو لجنة دار العلوم بالبحر

يجدر بنا ونحن في دور نهضة وانتقال أن نأخذ حذرنا، وألا نهمل تربية الشخصية في فتياتنا وفتياتنا، في سبيل الحرص على تنمية مواهبهم الذهنية، خصوصا بعد أن لمسنا بأنفسنا نقص الشبيبة المصرية في الناحية الأولى، وبعد أن شكت المصالح المختلفة ووزارة المعارف من عجز خريجي المدارس الثانوية عن حسن القيام بالأعمال التي تعهد إليهم، والتي ينبغي ألا يعجز عنها طوقهم فعظمهم فاقد الشخصية متردد، يهاب تكوين رأى له مستقل، فضلا عن إعلائه، وهم لا يكادون يبينون عن أفكارهم كلاما أو كتابة بعبارة موجزة بليغة صحيحة، عريية كانت أو أجنبية. (١)

هذه الشكوى صادقة، وبحيث أول واجب على المربين والمصلحين، والطريق إلى علاجها أصبح ميسورا، ولا سيما بعد أن ارتقت مباحث علم النفس الحديث، ووجهت نظرها إلى دراسة الشخصية بمختلف الطرق والأساليب العلمية، وبينت مثل النمو الطبيعي في الأفراد، ومظاهر الضعف والشذوذ عند بعضهم، ومصادر ذلك النقص والوسائل إلى تلافيه.

من المعروف أن الطفل يواجه في مرحلة التعليم الثانوى - والعالي - دورا من أدوار نموه له خطره وأهميته، اصطلاح علماء النفس على تسميته بمرحلة البلوغ

(١) من تقرير معالى وزير المعارف المصرية عن التعليم الثانوى - أهرام ١٠ من

مايو سنة ١٩٣٥.

وحددوا زمنه بالتقريب فيما بين الثانية عشرة والعشرين من العمر ، وأجروا عليه التجارب ، وكتبوا فيه المؤلفات ، وتناولوه من وجهاته المختلفة . وإذ كان ههنا فيما نحن بصدده أن نحلل هذه المرحلة من وجهتها النفسانية (١) ونقتصر من هذه على ماله ارتباط بالشخصية فلندع النواحي الأخرى لأوقاتها ولنقل إذاً ، إن الطفل يواجه في هذا الدور مشكلات ثلاثاً تفصل الكلام عليها فيما يلي :

المشكلة الأولى هي الخروج من وسط الأسرة إلى محيط المجتمع ، أو بعبارة أخرى هي معضلة النظام النفساني ، إذ يتجه المراهق في هذا الدور إلى تغيير عاداته والخروج عن مألوف طفولته ، والتحرر من رق الاعتماد على أبويه وأهله ، والرغبة في الاستقلال في حياته الوجدانية والعاطفية .

هذا الاتجاه طبعي ، وإذا سار سيرته الطبيعية وتغلب على ما يصادفه من عقبات لم يصل الشخص إلى سن العشرين إلا وقد استقل عن المنزل بشعوره ، وشب عن طوق استسلام الطفولة والتظلل بظل الأبوين ، وأعد نفسه لمواجهة الدنيا بما فيها من شؤون وصعاب .

غير أن التخلي عن صفات الطفولة ليس بالأمر السهل ، وكثير من الأشخاص يعجزون عنه فيبقون مرضى بحب المنزل طول حياتهم . وقد يشل هذا المرض إرادتهم فينشئون ناقصي الشخصية ، فاقدي الهمة والأمل . والذنب في هذا ليس ذنبهم وحدهم بل هو ذنب البيئة والآباء الذين لا يُعوِّدون الطفل من صغره الاعتماد على نفسه ، والذين ينظرون إليه على أنه ينتمى إليهم لا إلى نفسه ولا إلى الجيل الذي ينشأ فيه . وقد يغفلون في حبهم له فيكثرون من اهتمامهم الشديد به ووضعه في فراشه ، ومناداته بأسماء الطفولة ومساعدته في أكله ولبسه . وقد يسرف بعض الأمهات في تعلقهن الشديد بأولادهن ، فيسببن لهم كثيراً من المتاعب التي تحول بين الكثيرين منهم وبين النجاح إذا فارقوا منازلهم إلى جهات بعيدة . وبحوث علم

(١) قد يكون من المناسب في الكتابات الصيكلوجية أن نستعمل كلمة (نفساني)

لما هو خاص بعلم النفس - وكلمة (نفسى) لما هو منسوب إلى النفس .

الفكر، ناضجى التدبير، يعملون بعزيمة وجد، سائرين على الدرب الموصل إلى النجاح، إذا نحن نجد آخرين قد وقفت بهم المطى، وقصروا دون الغاية، فلم يهتدوا إلى ما يناسبهم من عمل. وظلوا يتراوحون بين تجارة وتجارة أو بين مدرسة وأخرى.

وأما النقطة الجوهرية الثانية فى مرحلة البلوغ فهى معضلة اتخاذ فلسفة فى الحياة، وتناول إِبصار الشخص فى نفسه، وتفكيره فيما خلق له، وفى الدور الذى سيلعبه على مسرح الحياة، وفى علاقته بالجماعة الملاصقة له، والمجموع الذى يعيش فيه، وبوطنه وحكومته، ونظرة فى ملكوت السموات والأرض، وفى معنى الوجود والخلود وسر الحياة والموت وماذا وراء الطبيعة من خفايا وأسرار.

هنالك فى بالغى كل أمة حوالى خمسة أو ستة فى المِئْة لا يرتفعون فى تفكيرهم إلى مستوى الطفل ذى الثانية عشرة. مثل هؤلاء لا يتعبون أنفسهم فى التفكير الفلسفى أو الدينى، ولا ينظرون وراء الأسبوع أو الفصل الذى يعيشون فيه، وإنما يأخذون الدنيا على علاتها يوماً بيوم، وينعمون بجهلهم فى الحياة.

وهناك من الجهة الأخرى نحو عشرة فى المِئْة من السكان يبدؤون فى سن الطفولة يتساءلون عن الوجود وأسراره سؤال الجاد الظامى، وهؤلاء هم أذكي جيلهم وهم عرضة أكثر من غيرهم للتعب والنزاع العقلى، ومن هؤلاء فيما بعد تنبعث المذاهب الفلسفية والأخلاقية. إلا أن المرحلة الطبيعية لتفكير غالبية كل أمة فى هذه المعضلات هى مرحلة البلوغ، ففيها تثور الشكوك الدينية، ويحتدم النزاع الداخلى ويكثر ولوع اليافع بالمناظرات السياسية والفلسفية، وتشغل البنت أو الولد جزءاً كبيراً من الوقت فى التفكير فى النفس، والاستعداد للمستقبل. أما نفس كل شخص فهى محور تجاربه، وهى تظهر فى نواح متعددة: فى منظر جثمانه، فى أخلاقه وعمله، فى تصرفه الاجتماعى... وهلم جرا، ثم هى تستمد قواها من بيئته التى نشأ فيها: من معهده ولغته، من دينه ووطنه. فنفس كل شخص إذاً هى مجموعة هذه الأنفس فيه، وهى تنمو من جذيرات صغيرة تنبثق فى عهد الطفولة

ثم تأخذ شكلها الكامل في مرحلة البلوغ ، وتتكيف بالصورة التي سيكون عليها الشخص طول حياته ، وفي مرحلة البلوغ يقوى شعور الشخص بنفسه فيطيل النظر إلى المرأة ، ويعتنى بهندامه ، ويتنبه لشعور الناس نحوه وطرق خطابهم له ، ويحلم في يقظته ومنامه بما تكنه له زوايا المستقبل .

وشأن البنات في ذلك شأن الأولاد ، إلا أنهن يفقهنه بالطبع في العناية بمظهرهن وملبسنهن وتجميل أنفسهن .

وإذ كانت مدارك الشاب العقلية تصل في هذه المرحلة إلى أقصى غايتها من النمو ، فمن الطبيعي أن يشغل إذاً بالتفكير في المغنويات بعد أن شغله عالم الحس والذات أيام الطفولة الأولى ، ومن الطبيعي ، وقد كملت رجولته ، أن يطلب لنفسه مكانها في هذا الوجود الشامل ، فهو يبحث عن الكمال لنفسه بين العطاء الذين يعيشون في عصره ، وبين النابغين الذين يحدثه عنهم التاريخ . وبين الأبطال الذين تصورهم له تراجم الحياة ومسارح التمثيل وصفحات الروايات .

من هذا يدرك القارئ مس الحاجة في هذه المرحلة إلى مساعدة الطفل على الحيلة في اختيار الكتب التي يقرأها : والروايات والأفلام التي يشاهدها ، ومن هذا يدرك زعماء الأمة وكبرائها مسؤوليتهم أمام الله والتاريخ . إذ يضربون بأعمالهم مثلاً سوف يقلده الجيل الناشئ ، فإن كان الكبراء بعيدى المهمة قوين الشخصية . ثابتى الايمان ، مخلصين للوطن ، ترسم الناشئون خطاهم ، وبنوا كما كانت أوائلهم تبني ، وإلا فقل على المستقبل ورجاله السلام . ومما يجب تنبه الآباء والمربين له أن يحتاطوا من أن يلبجوا الولد إلى تقليد شخص واحد واتخاذ مثله الأعلى . بل عليهم أن يوجهوه إلى الاختيار وانتقاء الصفات والمزايا الفاضلة ، فيقلد الشجاعة في واحد ، والأمانة في ثان ، والجلد والصبر في آخر ، وهلم جرا . ثم ليحذر المشرفون على الطفل أن يدعوه يقلد غير الجوهرى من الصفات والعادات كالطفل الذي اعتاد أن يستعين بالمنبه على القيام من نومه في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، فيخرج للرياضة مقلداً في ذلك ماقرأه من أن جوته الشاعر الألماني كان يفعل هذا أحياناً .

على أن التقليد وحده ليس كافياً في بناء الخلق، فأهم منه الاعتماد على النفس والاعتداد بها، واقتحام الصعاب ومعرفة الحد الذي تصل إليه طاقة الفرد في مغالبة هذه الصعاب.

وليكن القائمون على أمر الطفل رفقاء به، حراساً على نجاحه في فضاله حتى لا يسد عليه الإخفاق أبواب تفكيره السليم، فيدفعه في طريق الاجرام أو الجنون إذ أثبت علم النفس الحديث أن الاجرام والجنون والانتحار إنما تنشأ في الغالب من الخيبة في معرفة النفس، وفي العثور عليها وفي التوفيق بين مطالب الحياة المختلفة. ولهذا الأمراض مقدمات تظهر عادة في التحفظ الشديد، والصمت الزائد، والعزلة والجفاء. وانكسار البال. كذلك كثيراً ما يلجأ الأحداث في مرحلة البلوغ إلى عوائد السكر، وتعاطى المخدرات إذ يجدون فيها مخرجاً من معضلات الحياة ومصاعبها الوجدانية.

أما تحديد علاقة الشخص ببيئته فذلك يقوم على أساسين لا يقوم أحدهما إلا بالآخر، أولهما شخصية الفرد، وثانيهما عضويته في المجموع.

والمدرسة هنا تستطيع أن تكون عاملاً كبيراً في تحديد تلك العلاقة وتكييفها، والتوفيق بين حرية الفرد وسلطة المجموع، وذلك بما تقوم عليه المدرسة من وحدات اجتماعية صغيرة تسميها فصولاً، وبما تنظمه من حفلات وألعاب ورحلات ينمو فيها الشعور بروح الجماعة، ويتعلم فيها الفرد الولاء لرفاقه، والدفاع عنهم، والخضوع لقوانينهم. ثم يشعر فيها فوق ذلك أنه ينتمي إلى وطن صغير له دستوره وتقاليده، وهذا ينمي فيه شعوره بانتمائه إلى وطنه الأكبر، مهبط أبيه وجده ومصدر فخره ومجده.

من هذا نرى ضرورة احتفاظ كل معهد على بكيانه واستقلاله، وغرس حب ذلك المعهد في قلوب طلابه بمختلف الوسائل والأساليب، من اتخاذ شارة خاصة له، وإحياء أعياد سنوية، به وعقد حفلات يحضرها كبار خريجيهِ وصغارهم، وإقامة ألواح الشرف يخلد عليها أسماء النابهين منهم، وتنظيم المباريات العلمية والرياضية بين ذلك المعهد وأمثاله من المعاهد الأخرى.

على أن التقليد وحده ليس كافياً في بناء الخلق، فأهم منه الاعتماد على النفس والاعتداد بها، واقتحام الصعاب ومعرفة الحد الذي تصل إليه طاقة الفرد في مغالبة هذه الصعاب.

وليكن القائمون على أمر الطفل رفقاء به، حراساً على نجاحه في نضاله حتى لا يسد عليه الإخفاق أبواب تفكيره السليم، فيدفعه في طريق الاجرام أو الجنون إذ أثبت علم النفس الحديث أن الاجرام والجنون والانتحار إنما تنشأ في الغالب من الخيبة في معرفة النفس، وفي العثر عليها وفي التوفيق بين مطالب الحياة المختلفة. ولهذه الأمراض مقدمات تظهر عادة في التحفظ الشديد، والصمت الزائد، والعزلة والجفاء. وانكسار البال. كذلك كثيراً ما يلجأ الأحداث في مرحلة البلوغ إلى عوائد السكر، وتعاطي المخدرات إذ يجدون فيها مخرجاً من معضلات الحياة ومصاعبها الوجدانية.

أما تحديد علاقة الشخص ببيئته فذلك يقوم على أساسين لا يقوم أحدهما إلا بالآخر، أولهما شخصية الفرد، وثانيهما عضويته في المجموع.

والمدرسة هنا تستطيع أن تكون عاملاً كبيراً في تحديد تلك العلاقة وتكييفها، والتوفيق بين حرية الفرد وسلطة المجموع، وذلك بما تقوم عليه المدرسة من وحدات اجتماعية صغيرة تسميها فصولاً، وبما تنظمه من حفلات وألعاب ورحلات ينمو فيها الشعور بروح الجماعة، ويتعلم فيها الفرد الولاء لرفاقه، والدفاع عنهم، والخضوع لقوانينهم. ثم يشعر فيها فوق ذلك أنه ينتمي إلى وطن صغير له دستور وقيائده، وهذا ينمي فيه شعوره باتمائه إلى وطنه الأكبر، مهبط أبيه وجده ومصدر نفعه ومجده.

من هذا نرى ضرورة احتفاظ كل معهد على بكيانه واستقلاله، وغرس حب ذلك المعهد في قلوب طلابه بمختلف الوسائل والأساليب، من اتخاذ شارة خاصة له، وإحياء أعياد سنوية، به وعقد حفلات يحضرها كبار خريجيه وصغارهم، وإقامة ألواح الشرف يخلد عليها أسماء النابغين منهم، وتنظيم المباريات العلمية والرياضية بين ذلك المعهد وأمثاله من المعاهد الأخرى.

وأما بحث الطفل في مرحلة البلوغ عن تحديد علاقته بوطنه الأكبر فذلك ما يجب على أولى الأمر الآن في مصر أن يولوه اهتمامهم ، وأن يعينوا الطفل في جهاده في هذه المرحلة بما ينظمون من محاضرات عامة ، ومن إذاعات على اللاسلكي وبما يزودونه به من دروس التربية الوطنية ليعرف الطفل حقوقه وواجباته ، وليعلم نظام الحكم في بلاده ، وليقيس ذلك بما يعرفه عن نظم الحكم في البلاد الأخرى . ثم ليرحب من يدهم الأمر بما يجدون عند الطفل من رغبة في الجدل وحب في المناظرة فيشجعوه على بحث الموضوعات التي تصبو إليها نفسه في هذه السن ، كموضوعات : الحق والقوة ، الإنسان الكامل ، الحكومة الفاضلة .. وهلم جرا . أما الشعور الديني فلا نسبة بين أهميته في حياة الطفل وبين القدر الضئيل من العناية الموجهة إليه في مصر . ويخيل إلى أننا في مصر لا ندرك قيمة الدين عاملاً من أكبر العوامل في بناء الشخصية وتزويدها بالمثل الأعلى في الحياة ، ولا دعامة من دعائم الاستقرار في الأمة ، وتماسك أنظمتها ، وترابط صفوفها . قلنا فيما سبق إن الطفل يشغل باله في مرحلة البلوغ بمشكلات الخلق والوجود وأسرار المبدأ والمعاد ، ومعضلات الحياة والموت ، وأنه كثيراً ما يساوره الشك فيما حوله من أحكام ومعتقدات ، وأنه لهذا يلتمس الهداية من أب يسأله ، أو أستاذ يستوضحه ، أو كتاب يقرؤه ، ولقد أعرف بين رفقاء في مصر من كانوا في هذه المرحلة يصرفون وقتاً في التفكير والنظر ، وأعرف منهم من قرأ معظم كتب الغزالي وابن الحاج وابن رشد ، وأعرف من بينهم من كان يدون في مذكراته اليومية كل ما يعرض له من شكوك وخواطر وما تقدمه يده من سيئات وحسنات .

إذا فرحلة البلوغ فرصة يجب اغتنامها لمن يغارون على دينهم وأمتهم ، ويحبون أن يروا أبناء الأمة وبناتها ولهم وجهة نظر في الحياة . وإيمان صادر عن علم ويقين . وهنا نجد السبيل مفتوحاً للمتفكرين في الدين يستخرجون مافي كتاب الله وسنة رسوله وسير الصالحين وآراء الفلاسفة من أسرار وحكم ، ويصورون من كل هذا ومن تاريخ الأمة مثلاً عالياً تتجه إليه نفوس الشبية ، وتقيس عليه أعمالها ، ثم يعرضون

على الناشئة تلك المثل في كتاب أو رواية أو محاضرة، أو حديث على البرق، أو شريط أو خطبة في يوم جمعة أو عيد، أو افتتاح عام دراسي أو اختتامه. كذلك يجب علينا - وهو في استطاعتنا - أن نهتم بإحياء التقاليد الدينية في مدارسنا ومعاهدنا، وأن ننتفع بالأعياد الدينية فيما قصدت له من تربية الشعب وجمع كلمته وإحياء شعوره، وأن نحث بنينا وبناتنا ورجالنا ونساءنا أن يعمرُوا مساجد الله، فإنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله.

وإذا ذكرنا الدين فلنذكر بجانبه لغة الدين، لغة الحضارة الإسلامية، لغة الوطن المحبوب، لغتنا العربية. بلادنا من هذه الوجهة في مركز غريب، وستظل حياتنا الاستقلالية ناقصة، وشخصيات أبنائنا مفككة حتى يعم التعليم فتوحده اللغة وتوحد الأفكار وتوحد القلوب والجهود. وإتنا - وإن كنا قد خطونا خطوات واسعة في هذه السبيل في الخمسين سنة الأخيرة - يجب أن نحث الخطأ وأن نضاعف العمل، وأن نستعين على تعميم الفصحى وتوطيد دعائمها بكل الطرق والوسائل. وما يخطر لي في هذا الباب إنشاء عصبة من المشتغلين باللغة يتواصلون باستعمال الفصحى في منازلهم مع أسرهم وأولادهم، وفي ناديم ومدارسهم وكلياتهم. وأينما ضربوا في الأرض أو مشوا في الأسواق، وليكن من عملهم أن ينشروا الدعوة في رفق وكياسة، وأن يغالبوا ما يصادفهم من عقبات، وأن يحملوا قادة الرأي في البلد على أن يجعلوا تعميم الفصحى نقطة بارزة في برامجهم^(١). وهذه في نظري خدمة وطنية وخطوة في سبيل الاستقلال الفكري لا تقل أهمية عن إنشاء مصرف مصر في بناء استقلالنا الاقتصادي.

محمد هلف الله

للبحث بقية

(١) ومن أولى بذلك من نادى دار العلوم

ضيعة دار تينجتون ومدرسة التربية التجريبية بها بقلم الأستاذ عبد العزيز أمين

عضو هيئة دار العلوم بانجلترا

قال لى أستاذى : وإذا فأى المدارس تريد أن تزور الآن ، وفى ظنى أنك قد زرت معظم مدارس المدينة والضاحيات المجاورة ؟ قلت : يحسن بى أن أعود إذا إلى المدرسة المركزية (Central School) فى بليموث لأننى أرى فى نظامها ومنهجها وطرق الدراسة بها ما أحسبه جديرا بالملاحظة والدرس . فالتفت إلى وقال : وهل زرت مدرسة دار تينجتون ؟ قلت : بالرغم مما سمعته وأسمعه كل يوم عن مدرسة دار تينجتون ، وتجارب التربية التى يقوم بها مديروها ، والحرية المطلقة التى يتمتع بها تلامذتها ، ومحاسن نظامها ومثالبه ، وما سمعته من ناظرها فى الراديو منذ مدة ، إننى لم أزرها حتى الآن ، وبودى لو أتيت لى الفرصة ؛ قال : أيكفيك أسبوعان هناك ؟ قلت : بها ونعمت . ثم قابلته بعد ذلك فأخبرنى أن المدرسة على علم بأمر زيارتى التى ستبدأ من يوم الاثنين ١٨ من فبراير . غادر القطار مدينة إكستر الساعة الثانية والنصف بعد ظهر يوم الأحد ١٧ من فبراير حيث وصل إلى محطة توتنس « Tolnes » الساعة الرابعة ، وكان على أن أظل هناك حتى الساعة الرابعة والنصف حين تقوم سيارة عامة من المحطة قاصدة قصر ضيعة دار تينجتون (Dartington) ، ولكن حسن الحظ يتر لى سيارة خاصة بجريها صاحبها بين الضيعة والمحطة من حين لآخر ، حين يجد العدد الكافى من الركاب . همست فى أذن صاحب السيارة ومساءتها قائلاً : أقصد « فندق الفجر » فأوما برأسه إيماء الوائق . واندفعت السيارة فى طريقها إلى الضيعة تقف بين الفترة والفترة لانزال بعض الركاب . ولم يمض نصف ساعة حتى وجدتني الراكب الوحيد بعد أن وصلت السيارة إلى غايتها . فسألت السائق : أين إذا فندق الفجر ؟ فقال : أوه ! فندق الفجر ؟ لقد مررنا به منذ مدة ، وبيننا وبينه الآن

مسافة طويلة ، ومعك حقيبة يميل إلى أنها ثقيلة ، ألا تنتظر حتى أعود بك في السيارة ؟ قلت : ومتى ؟ قال : الساعة السابعة ؟ قلت : هوّن على نفسك ؟ وصف لي الطريق !

حمت حقبتى ورجعت من حيث أتيت ، وكنت أحسبني الوحيد في ذلك الطريق الذى أجهده ثقل حقيته ، ولكنى وجدت زميلا يعانى ما أعانى . كان ذلك الزميل تليذا في الثامنة من عمره ، عائداً إلى مدرسته — التى لمحتها عن بعد — أعنى مدرسة دارتينجتون ، بعد أن أمضى إجازة الأسبوع مع أسرته ، ولم تكن حقيقته أخف من حقبتى ، وعلى رغم ذلك لم تبد عليه علامة إعياء أو ملل . وانتهى بي المطاف إلى الفندق ، وهناك استقباني سلوكيان استقبال الصديق لصديق لم يره منذ مدة ، وقاداني إلى مدخل الفندق حيث جاء صاحبه محييا : لقد استطعت أن تعرف الطريق ؟

نعم ، لقد اهديت اليه بعد أن ضلته ، وكانت تلك الحقبة حملا متعباً . ثم أخذنى إلى حجرة الاستقبال ، وبعد تناول الشاي سألتنى :

أظنك قدمت لزيارة المدرسة ؟ قلت : هو كذلك ، وما الذى حملك على هذا الظن ؟ قال : إننا نستقبل غالباً زائرين أجانب ووطنيين ممن يهتمون بشئون التربية والتعليم . وغايتهم زيارة تلك المدرسة التى اشتهرت بنظامها الغريب ، وتجاربها فى التربية .

قلت : وهل لك أن تعطينى فكرة عامة عن إدارة تلك المدرسة ونظامها ؟ وهنا بدأ صاحب الفندق يقول : نعم ، لى ثلاث أبناء يذهبون إلى تلك المدرسة ولكن مهلاً أيها القارئ . فلن أقص عليك ذلك القصص حتى أحدثك أولاً عن ضيعة دارتينجتون ، والمدرسة وكيف تأسست .

لعلك فهمت الآن أن مدينة (توتنس) الصغيرة تقع فى إقليم ديفون وأن قرية دارتينجتون تبعد ثلاثة كيلومترات عن تلك المدينة . أما مساحة الضيعة فتنيف على ألف الفدان . ويرجع تاريخها إلى القرن التاسع حين كانت أشبه بغابة موحشه منها بمزرعة نضرة . وقد ملكها أحد اللوردات الانجليز ، وأقام فى وسطهم وعلى تل مرتفع منزله الفخم الذى لا يزال حتى الآن يحدث بمجد مضاع ، وعز

دائر؛ ويطلق عليه اسم: منزل اللورد «The Manor House»، أو «Dartington Hall». ظلت هذه الضيعة (Estate) خلال عشرة قرون تستغل في الصيد والقنص، وركوب الخيل والسباق، يسكنها اللورد وحاشيته، وتتناولها يد مالك بعد آخر، وتنتقل من أسرة إلى غيرها حتى وصلت خلال الحرب العظمى إلى حال من الإهمال دعت صاحبها أن يعرضها للبيع.

كان مستر ويلارد ستريت قنصلا لأمريكا في الصين وقد حدث به منيته إلى أن يشترك في الحرب العظمى حيث قتل كما قتل ملايين غيره، سنة ١٩١٨ في باريس. خلف وراءه ثروة هائلة لزوجه وأولاده الثلاثة، وكان قد أوصى أن يخصص نصيب كبير منها لشؤون التعليم وتجارب الترية، كما أوصى أن يبنى منتدى كبير لطلبة جامعة كورنيل بأمريكا.

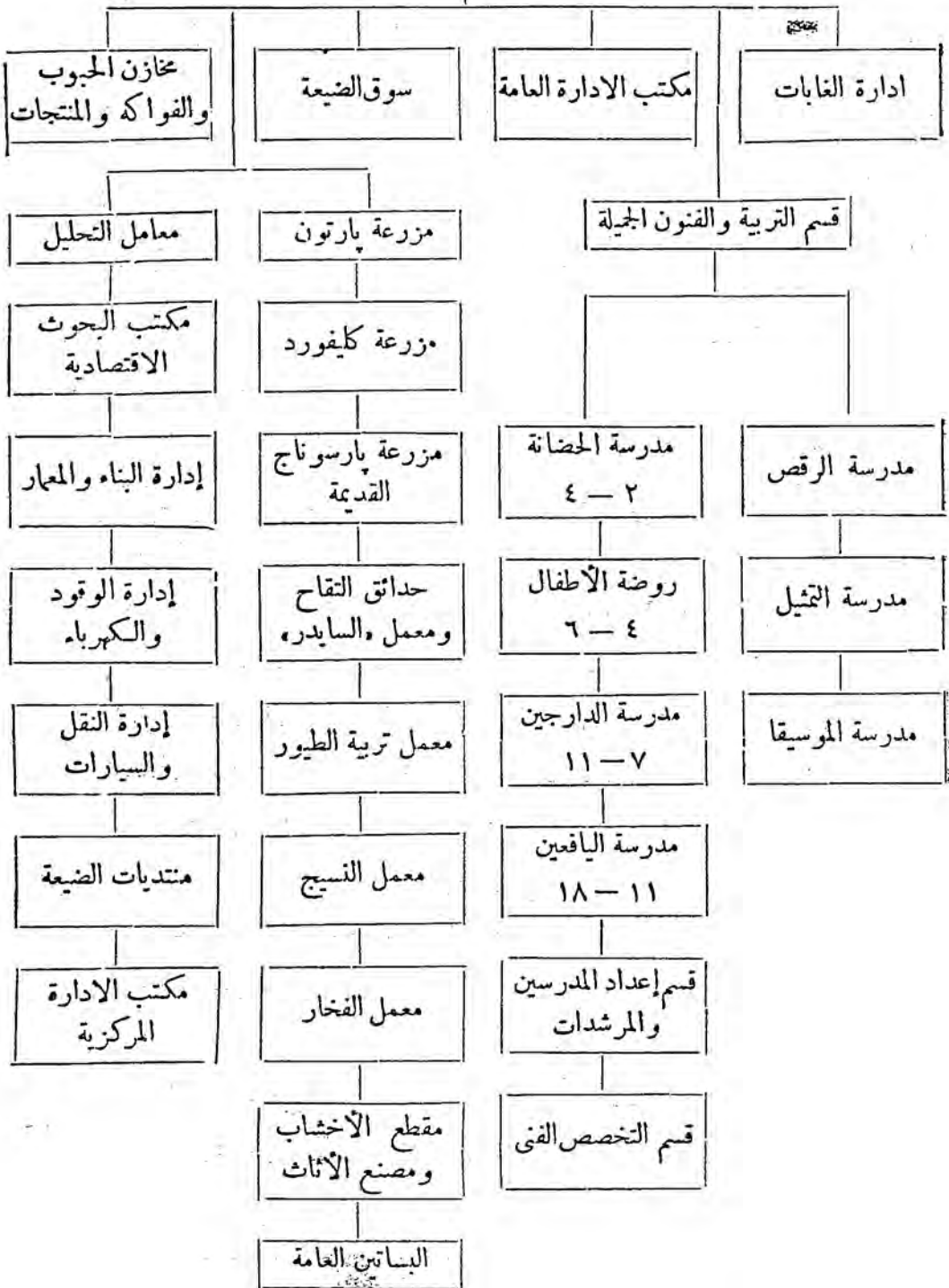
وحدث أن التقى مستر المهيرست (Elmhirst) الانجليزي بمسز ستريت الأرملة في أمريكا، ووجدوا من توافق مشاربهما، واهتمامهما المشترك بحركات الترية ومدارسها، وشؤون التعليم في الممالك المختلفة ما شجعهما على أن يتزوجا، وأن يتعاونوا معا على بحوثهما وتجاربهما في الترية. عاد مستر المهيرست تصحبه زوجته (مسز ستريت سابقا) إلى إنجلترا ليجثا عن مكان يصلح لمشروعهما في الترية التجريبية. وكان أن وفق الزوجان إلى ابتياع ضيعة دارتينجتون سنة ١٩٢٥. وكانت الضيعة كما ذكرت عبارة عن غابة مهجورة، وأدغال وإحراج موحشة، مملوءة بالبرك والمستنقعات، ويجرى وسطها نهر «دارت» الشهير.

لم يكن من الميسور حينئذ إنشاء أي معهد للترية قبل أن تحول الغابة ضيعة ذات زرع تأوى إليها أفئدة من الناس.

وأخشى أن يطول بنا الحديث إذا تعرضت لوصف الضيعة كما هي الآن، ولكن يكفي أن أذكر أنها لم تعد بعد غابة موحشة وأتماهى معامل ومزارع، حدائق ومشاتل، مصانع للنسيج وقطع الأخشاب، ومدارس لتجارب الترية وتهذيب طرق التعليم.

ولعلك تجد في الجدول الآتي والصور أيضا ما يغنى عن الإفاضة في الوصف.

ضيعة دار تينجتون



ولنعد إذا إلى حديث المدرسة :

تقع المدرسة — أو المدارس لأنها في الحقيقة ستة عشر بناء — في هذه الضيعة «Estate»، أو ما يطلق عليه، في العرف اسم (دائرة). وقد بدأت أولاً بطفل واحد هو البنت الصغيرة لمستر ومسز الميرست تحت عناية والديها ومرشدة خاصة (Nurse). وقد رأى والدا الطفلة أن مهيتها لها بيئة اجتماعية بجانب بيتها الطبيعية، فاستدعيا بعض أولاد العمال في الضيعة والقرى المجاورة، ليرافقوها ويشاركوا معها في ألعابها وتربيتها. ولكن ما ذاع الخبر حتى توافر عدد من الأطفال كاف لإنشاء فصل تحت إشراف مرشدة مدربة. وقد كان ذلك الفصل النواة الأولى لتلك المدرسة الحالية.

تسير المدرسة — كما هي الآن — على نظام التربية المشتركة «Co-education». فالبنون والبنات يعيشون في مكان واحد، ويشغلون جنباً لجنب تحت إشراف مشترك. وهم أشبه بافراد أسرة واحدة منهم بتلامذة مدرسة. وليس للجنسية أو الدين أو المهنة أى اعتبار فالكل سواء. وهناك أطفال أمريكيون، وهنود، وانجليز، وفرنسيون، وألمانيون. كما أن فيهم اليهودى والمسلم والمسيحى. وبينهم أبناء السفراء والوزراء وكبار، الفلاسفة والمربين، كمستر بيرتراند رسل — له طفلان هناك — والسيكولوجى الشهير فرود «Freud»، والكاتب الذائع الصيت الدوس هكسلى، كما أن بينهم أولاد العمال والزراع. ويلتحق الطفل بالمدرسة في سن الثانية، ويظل بها حتى الثامنة عشرة. وكل التلاميذ — ما عدا بضعة منهم — داخليون، يعيشون كأكخوة وأخوات تحت إرشاد وإشراف إخوتهم وأخواتهم الكبار، أعنى المربين والمرشيدات.

ويسمى قسم الأطفال بين الثانية والرابعة «Nursery School» أو مدرسة الحضانة، كما يسمى قسم الأطفال بين الرابعة والسادسة أو السابعة روضة الأطفال «Kindergarten»، ويطلق على كلا القسمين اسم المدرسة الابتدائية. أما القسم الأول «Junior School» (١) فيه أطفال تتراوح سنهم بين السابعة والحادية عشرة.

(١) نرى أن تسمى ال Junior School بمدرسة الدارجين

والقسم الأولى الراقى « Senior School » ، (١) به أولئك الذين تتراوح سنهم بين الثانية عشرة والثامنة عشرة . وقد وُجد من المناسب حينئذ إنشاء قسم ملحق بهذه المدرسة لاعداد مدرسين ومدرسات يتمنون مدة ثلاث سنوات وفقا لطرق التربية والتدريس المتبعة في هذه المدرسة ، وتحت اشراف استاذة (٢) استقدمت خصيصا من معهد فروبيل بكمبردج — وقد ذكرت لى انها كانت استاذة لبعض الطالبات المصريات بذلك المعهد .

وبالمدرسة الآن ١٥٠ تلميذا وتلميذة تحت عناية واشراف ٣٠ مربيا ومرشدة كلهم اخصائيون ومدرسون . وناظر المدرسة « Mr. W. Curry » خريج جامعتى لندن وكمبردج ، وقد كان ناظرا « Cak Lane Public school » في فيلادلفيا بأمريكا . وقد ذكرت أن ما بالضيعة من معامل ومصانع ومزارع إنما يعمل بالتعاون مع المدرسة ، وقد أنشئ ليعطى تلامذتها الفرصة الكافية والبيئة الملائمة لتربية مواهبهم وتنشئة استعدادهم . والواقع أن الضيعة بإداراتها وفروعها المختلفة تعمل بالاشتراك والتعاون مع المدرسة نحو غاية واحدة .

ولا تعتبر النفقات المدرسية باهظة إذا وازناها بالنفقات المدرسية في « Public Schools » مثلا ، فالتلميذ « الداخلى » يدفع ١٢٠ جنيها كل سنة في المدرسة الابتدائية ، و ١٤٠ جنيه في القسم الأول و ١٦٠ جنيه في القسم الأولى الراقى . هذا عدا مصاريف الكتب والنفقات الخاصة . على أن المدرسة تعفى أبناء الفقراء من المصروفات ، أو تتقاضى مقدارا ضئيلا .

وقبل أن أتعرض لنظام المدرسة وسير الدراسة فيها أشير مرة ثانية الى أن المدرسة « تجريبية » بمعنى أن النظام المتبع فيها لا يمكن أن يؤخذ جملة كأساس

(١) نرى أن تسمى مدرسة ال Senior School بمدرسة اليافعين

(٢) أبدت الاستاذة مارجرىث إشرود (Isherwood) رغبتها في بحث بعض الطالبات المصريات للدراسة والتجربن عندها (في ذلك القسم الخاص) ، وقد كتبت إلى مكتب البعثات بلندن مشيرة إلى تلك الرغبة ، وقد حدد يوم ٢٥ من مارس لزيارة الاستاذ محمد جمال الدين لذلك القسم .

صالح للتربية ، ولا أن تعتبر طرق التدريس فيها قضية مسلبة ثبتت صحتها .
ولنعد إذاً الى نظام المدرسة وإدارتها وما يسمى بالانجليزية « Dixipline »
تبع المدرسة في نظامها وإدارتها القوانين الآتية :

(١) كل ما في المدرسة من كتب وأدوات ومقاعد وأثاث ملك مشترك بين
أفراد المدرسة — أو أفراد الأسرة كما يسمون أنفسهم — فليس لتلميذ مقعد
خاص أو كتاب خاص أو درج خاص .

(٢) أى مكان في الضيعة أو خارجها يصلح لأن يكون حجرة للدراسة :
فالحقل أو مقطع الأخشاب ، أو الغابة ، أو معمل تربية الدجاج ، أو معمل الفخار
أو ملعب التنس أو حجرة الألعاب الرياضية يصح أن يكون مكاناً للإرشاد والتثقيف .
(٣) ليس للتلميذ ملزماً بارتداء زي خاص ، فله أن يحضر الى مكان الدراسة —

الحجرة مثلاً — حافى القدمين ، أو من غير « جاكته » ، بتياب الحقل أو ثياب النوم .
(٤) ليس للتلميذ مقيداً بجدول دراسة أو منهج تدريس ، أو مواد خاصة
وإنما له الحرية المطلقة في اختيار المادة أو المواد التي توافق ميوله ورغباته والتي
يرى نفسه مستعداً بطبيعته لها . وله أن يحضر الى مكان الدراسة ، وأن يدعه في
أى وقت شاء .

(٥) يترك المدرس الموضوع الذى يتناول شرحه إلى أى موضوع آخر يقترحه
التلاميذ ، فقد ينتقل من شرح حادثة تاريخية الى حجرة الألعاب الرياضية
أو معمل نسيج السجاد اذا اقترح التلامذة ذلك .

(٦) للتلميذ أو التلميذة حرية التدخين ، أو استعمال الحاكى « الفونوجراف »
أو الخروج من المدرسة لأجل الفسحة متى شاء أو شاءت .

(٧) يعد التلاميذ أسرة نومهم ، وينظفون حجراتهم ، ويمسحون أحذيتهم
بأنفسهم ويخدمون أنفسهم وقت الأكل .

(٨) لا تستعمل الألقاب في مخاطبة المدرسين أو المدرسات . وإنما ينادى كل
منهم باسمه الشخصى (لا باسم الأسرة كما هي العادة في إنجلترا) : ولیم ، جورج .
كأثرين . . . الخ

(۹) التعاون أساس العمل في المدرسة . ولا يسمح بالمنافسة بين التلاميذ في أى عمل مدرسى .

(۱۰) للتلاميذ الحق في إلغاء أى قانون مدرسى أو استبدال غيره به متى اتفقت الأغلبية على ذلك .

(۱۱) لا يتدخل تلميذ في شؤون أى تلميذ آخر ، ولا يتعرض له بنقد أو لوم .

(۱۲) لا عقاب ولا زجر ولا توبيخ ، إنما يجوز الإنذار .

ولأعد إذا إلى شرح تلك القوانين المدرسية — إن صح أن نسميها قوانين — وكيف تطبق في المدرسة ، وأثرها ، وما لاحظته في أثناء زيارتي :

(۱) يرى مديرو المدرسة أن غريزة « حب التملك » تدعو غالباً إلى الطمع ، والجشع ، وقد تغرى الطفل بالسرقة . وقد يكون أثرها بين أطفال من طبقات مختلفة أشد وأدعى للحسد . ولكن شعور الطفل بأنه يملك كل ما في المدرسة ، وأن له الحرية في استعمال أى أداة من أدواتها يرضى هذه الغريزة من غير أن يثير فيه الرذائل السابقة ، وكذلك ينمى في الطفل فكرة المحافظة على الشيء ، لا لأنه ملك له ، بل لأنه مفيد للمجتمع الذى يعيش فيه ولذا يجب أن يحرص عليه .

(۲) الحقيقة أن فكرة المدرسة كبناء خاص لتلقى العلوم والمعارف ، فكرة « اتفاقية » ، تواضعية ، تواضع عليها العرف وأقرتها التقاليد ، وإلا فأى مكان يمكن الحصول فيه على المعرفة يصح أن يكون مدرسة . ولو فكر كل منا في مجموع معارفه وتجاربه لوجد أن كثيراً منها مكتسب في خارج جدران المدرسة لا في داخلها . ولما كانت التربة الحديثة وطرق التعليم تحت على اكتساب المعرفة بطريق الخبرة والتجربة الشخصية ، والبحث والوقوف على أسباب ونتائج الظواهر الطبيعية المختلفة كان ضرورياً إذا أن نلجأ لدراسة كل شيء في مكانه الخاص به متى أمكن ذلك .

وقد أدهشنى ما يعرفه الأطفال عن التجارب العلمية والعملية في الفروع والمعامل المختلفة التى زرتها . قادنى طفل في سن العاشرة إلى معمل تربية الدجاج

وهناك بدأ يشرح لى العمليات والخطوات المختلفة التى يقومون بها من ساعة وضع البيضة إلى أن تصبح دجاجة تبيض . شرح خبير مجرب و باحث مغرم يبحث عما جعلنى أخجل أمام وفرة خبرته على صغر سنه وكبر سنى .

يرى مدير المدرسة أن الطفل الذى ينبغ فى مادة واحدة أو فرع واحد — وإن لم يقدر مقدرة كافية فى الفروع الأخرى — أفيد وأنفع من ذلك الذى يعرف القليل فى كل موضوع ولا يجيد شيئاً . وتلك هى سياستهم فى التربية الحديثة ، وتجربتهم التى يرمون من ورائها إلى تهيئة الطفل لما خلق له .

(٣) الفكرة السائدة فى المدرسة هى « ترك الرسميات » ، والتصنع الذى لا يتفق مع طبيعة الأطفال . واتخاذ زى رسمى للمدرسة أو إشارة رسمية — كما هو المتبع فى مدارس أبناء الأثرياء « Public Seks » — لا يتفق مع العمل الذى يقوم به التلاميذ ، ولا مع نوع دراستهم ، فهم غالباً فى الحقل أو الغابة ، أو البحيرة ، أو المعمل التحليل وكل هذه أما كن لا تحتاج إلى حسن هندام ، وأناقة ملابس . ذهبت مرة إلى أحد الفصول حيث وجدت أربعة تلاميذ مع أستاذ التاريخ يتناقشون حول نظام الجمهوريات الاغريقية . ويوازنونه بنظام الجمهوريات فى العصر الحاضر . كان التلاميذ بنتين وولدين فى سن السادسة عشرة تقريباً . جلس أحد التلميذين حافى القدمين على مقعد فى ركن الحجرة يلعب بقلم الرصاص ، ولكنه مع ذلك مشترك فى موضوع المناقشة وكانت إحدى التلميذتين مرتدية سراويل « بنطالونا » قصيراً ومن غير جورب . وبالرغم من هذا لم يكن هناك أى شعور بحالة غير معتادة . ثم قابلت التلميذ عنه مرة أخرى فى فناء المدرسة حافى القدمين .

(٤) يشير التقرير العام الذى أصدرته المدرسة أخيراً إلى أنه « ليس للمدرسة منهج دراسى معين ، إذ أن مديرى المدرسة لا يعتقدون بصلاحية أى منهج دراسى معين للأطفال . ومع ذلك فالتلاميذ يدرسون اللغة الانجليزية . والحساب ، والتاريخ . والجغرافية . والعلوم (طبيعة وكيمياء وميكانيكا) بحكم البيئة التى يعيشون فيها . والمدرسة مستعدة لتعليم أية لغة أجنبية لمن يشاء من التلاميذ . وجميع هذه المواد تدرس على أساس الارتباط المتبادل « Correlation » بين بعضها

والبعض الآخر متى أمكن ذلك ، والنشاط الذاتى والبيئة الصالحة هما العاملان الجوهريان لقيادة الطفل واستغلال مواهبه ، وفى مكان آخر يشير التقرير إلى أنه « ليس هناك حد معين للمقدار الذى يصح أنه يتعلمه التلميذ من أى مادة ، وللتلميذ أن يختار أية مادة وأن يدرس أى جزء منها ثم يدعها إلى مادة أو مواد غيرها يرى نفسه أشد شغفا بها ، وأكبر استعداداً لها . وليس معنى هذا أن تعين مواد الدراسة شيئاً انتخابياً (elective) ، ولكن الواقع أن النظام الدراسى مرناً إلى حد أن منهج الدراسة يترك تعيينه إلى استعداد الطفل الشخصى . وقد يدعى بعض المعارضون أن من الضرورى أحياناً أن يتعلم الطفل بعض المواد التى لا يميل إليها . ولكن أمثال هؤلاء المعارضين يخطئون بين طرق الدراسة وبين رغبة الطفل أو عدم رغبته فى بعض المواد . إذا كانت طرق التدريس عقيمة والمادة غير مشوقة (Uninteresting) كان طبعياً أن يملها التلميذ ويعزف عنها .

وليس الغرض من التعليم أن يحصل التلميذ على مجموعة حقائق يستطيع أن يسردها متى طلب منه ، وإنما الغرض أن يصادف التلميذ مجموعة عقبات وصعوبات فى حياته التعليمية يمكنه أن يتخطاها . وللحصول على تلك الغاية يجب أن تكون العلاقة قوية بين ما يتعلمه التلميذ وما يحتاج إليه فى حياته العملية ونشاطه الذاتى . والنتيجة المباشرة لذلك أيضاً هى رغبة التلميذ الاختيارية فى المحافظة على النظام ، والتعاون التطوعى فى أداء عمله وهما نقطتان أساسيتان للنجاح فى الحياة .

للبحث بقية

عبد العزيز أمين

مر رجل من الفطناء برجل قائم فى طريق فقال : ما وقوفك ؟ قال : أنتظر إنساناً ، قال : يطول وقوفك إذا .

اللغة العربية في المدارس الثانوية^(١)

بقلم الأستاذ عبد الله عبد الجليل

المدرس بمدرسة طنطا الثانوية للبنين

لغظت الصحف اليومية في موضوع ضعف التلاميذ في اللغة العربية لغظا لم يستطع التحرز منه قراء هذه الصحف على اختلاف ألوانها، وتباين منازعها. وما لحظته في هذه الضجة حول هذا الموضوع أن كثيرا من أناروها وكتبوا فيها ليسوا من رجال التعليم.

ولذا جاءت آراؤهم بعيدة عن الصواب أحيانا أو جاحجة أحيانا أخرى إذ ليس لهم من التجربة الشخصية والاتصال بالحياة المدرسية ما يعصمهم مما تورطوا فيه من آراء وأفكار لم تكن إلا وليدة مخيلاتهم ونتيجة تصوراتهم.

والحق الذي لا مرية فيه أن في التلاميذ ضعفا في اللغة العربية العربية ولكنه ليس ضعفا في اللغة نفسها ألفاظها وتراكيبها وأساليبها كما زعموا. فهم يفهمون ما يلقى عليهم من الدروس - خصوصا دروس اللغة والأدب - في لغة عربية صحيحة فصيحة كما يفهمون ما يقرءون من الكتب التي بأيديهم وبعضها من الأدب في منزلة لا يسمو إلى تدوقه فيها جهول ولا يعيهم التعبير عما يخالج نفوسهم من آراء أو يقع عليه حسهم من مشاهدات. وكل ذلك في كفاية تقترب بهم كثيرا نحو مثلهم الأعلى، وقد تصل بقايل منهم إلى قنة هذا المثل وذروته. وفي المدارس موضوعات الإنشاء التي كتبها في امتحان السنة الحالية تلاميذ السنوات الثلاث الأخيرة، فهي خير شاهد عدل على صحة ما أقول في البيئة التي أعمل فيها على الأقل. ولقد يرى الباحث بين هذه الموضوعات مالا ينقصه تمحيص الفكرة وغزارتها ولا يعوزه في التعبير الدقة والطلاوة ولا في

(١) ورد هذا المقال لينشر في الجزء الرابع من السنة الأولى إلا أننا لأسباب قاهرة اضطررنا إلى إرجائه إلى هذا الجزء.

الأسلوب الروعة والحلاوة . فقيم إذا ضعف التلاميذ ؟ . إن ضعفهم — فيما أسمع وأرى — إنما هو من ناحية انتفاعهم بما يدرسون من القواعد فيما يقرءون وفيما يكتبون وفيما يتحدثون أى أنهم لا يحسنون إعطاء أواخر الكلمات حقوقها وتطبيق هذه القواعد قراءة وكتابة وحديثاً فهم على حد الآية الكريمة : خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً . عسى الله أن يتوب عليهم ، وهذه الناحية من الضعف هي بلا ريب ذات بال ولها خطرهما إذ لا يمكننا أن نعتبر اللحانة تام الثقافة في اللغة العربية بل هو ناقص الأداة بادي العورات فيها .

وليس ثمة مجال للشك عندى أن هذا الضعف إنما كان وليد خطة الدراسة أو المنهج وجو المدارس أو بيئتها بالنسبة للغة العربية . وإني لبسبيل من أن أسجل ملحوظاتي على العموم عن كل من المنهج والجو المدرسي بالنسبة للغة العربية مستلهما تجربتي ومشاهداتي موجزا ما استطعت إلى الإيجاز سيلا .

١ - المنهج

قواعد النحو والصرف : هي في الوقت الحاضر أبواب وفصول من هنا وهناك ، روعي في اختيارها وترتيبها أنها تكتمل لما درسه التلاميذ في المدارس الابتدائية ، على أن ثمة موضوعات كثيرة هامة اكتفى بدراستها في المدارس الابتدائية ، والاطمئنان إلى ما درسه التلاميذ في المدرسة الابتدائية اطمئناناً يصل إلى هذا الحد إغفال لطبائع التلاميذ عندنا ، فإن التلاميذ الآن يحصلون على شهادة إتمام الدراسة الابتدائية وأسنانهم صغيرة ، أى أن السنتين الأولى والثانية ، على وجه خاص ، يكثر فيهما هؤلاء الصغار . وتلاميذنا لا ينضجون ولا يهضمون المعلومات وهم في أسنان صغيرة . ثم هم يعتمدون فيما يدرسون في المدارس الابتدائية على الذاكرة ، لأن سوط الامتحان ، ويده القاسية ، يدفعانهم دفعا إلى هذا الحشو الذي ليس من التعليم المثمر ولا الثقافة النافعة في شيء ، فإذا أريد تكوين التلاميذ في المدارس الثانوية تكويناً صالحاً يبرءون به من ضعفهم السابق الذكر ، فلا بد أن يدرسوا من قواعد اللغة كل ما من شأنه محاربة اللحن وإقذارهم على إعطاء آخر كل كلمة ما يستحق من حركة أو سكون (أحوال الفعل من حيث إعرابه وبنائه

وتوكيده وإسناده — واحوال الاسم — في بنائه وإعرابه — مع عوامله المختلفة) أما مباحث الصرف فيجب أن يقتصر فيها على الضروري ، على أن يوزع بمناسبة دروس القواعد ، ونختص السنة الأخيرة بأكثر نصيب منها .

المطالعة : يطالع التلاميذ الآن كتباً مضبوطة في الغالب ، خصوصاً في السنوات الثلاث الأولى ، ولعل الذين رأوا هذا الرأي أرادوا أن يحولوا بين المدرس وبين إضاعة الوقت في النقاش الذي يدور بينه وبين تلاميذه ، لرعاية القواعد وضبط أواخر الكلمات على وجه صحيح ، وأن يفهموه أن الغرض الأساسي من درس المطالعة إنما هو تزويدهم بما يستطيع من المفردات والتراكيب والأساليب والمعاني والأفكار الصالحة . ومع تقديرنا لهذا الرأي لما فيه من فائدة للتلاميذ لا نوافق على هذه المبالغة التي أضاعت على التلاميذ خيراً كثيراً ، فإن مطالعتهم في هذه الكتب المضبوطة غرست فيهم التهاون من هذه الناحية ، وأضعفت من قوة ملاحظتهم ، وجعلتهم يعتمدون على غيرهم في أن يقودهم إلى الصواب كما يقاد الأعشى إلى مقصوده . إن المطالعة في كتب مضبوطة يجب أن تمنع ابتداء من السنة الرابعة الابتدائية ليعرف التلاميذ أن مجرد العلم باللغة العربية : مفرداتها وتراكيبها — من غير أن يحذقوا تطبيق القواعد التي درسوها على هذه المفردات والتراكيب — نقص قبيح وعيب من العيوب التي لا تغتفر .

متن اللغة وتاريخ الأدب : أما متن اللغة فدراسته تكاد تكون غير مجدية ، خصوصاً إذا روعي أن بعض الفرق جاء منهجها كليل امرئ القيس وقد تمطى بصلبه وأردف أعجازاً ونام بكل كل . حتى إن المطلوب من تلاميذ القسم الأول دراسته في باب الصحة والاعتلال — وهو واحد من أبواب عدة — من الطول بحيث يمل من نصبوا أنفسهم لدراسة متن اللغة وحده . وإذا تذكرنا أن الدرجة التي تخصص متن اللغة في الامتحان درجة تافهة ، أدركنا كيف يقابل التلاميذ هذه المادة . إن حفظ المعاجم وكتب اللغة ليس طريقاً من طرق إتقان اللغات . وإنما يحاط باللغة إحاطة نافعة مجدية بدرس النصوص الأدبية ، التي تشمل على ألفاظ اللغة وتراكيبها مستعملة في عصورها المختلفة . وفي الأدب العربي — والحمد لله —

متسع لهذا وغناء وكفاية . ولم لا يكلف التلاميذ دراسة شيء من دواوين الشعر ودواوين الرسائل وما يشبههما . بحيث يختار لكل فرقة ما يناسبها في أي عصر من عصور ، مع التوسع في الشرح اللغوي على حسب ما تسمح الحال ؟ لعل ذلك أدعى لشوق التلاميذ وخير لهم وأبقى .

وأما تاريخ الأدب فيدرس الآن بطريقة عملية مشوقة ، إذ تستبطن قضاياها وأحكامها بالنسبة للصور المختلفة ، ورجال الأدب فيها من عرض النصوص والآثار الأدبية ودراساتها والموازنة بينها . غير أن منهج الأدب لطلبة القسم الأول مفاجأة خطيرة لهذه العقول الصغيرة . إذ هو يطلب أن يعرفهم بأحوال اللغة من أقدم تصورها المعروفة إلى وقتنا الحاضر في درس واحد في الأسبوع . ومهما يكن من شيء فإجابة هذا الطالب أشبه شيء بالمستحيل ، لو كان المقصود أن التلاميذ يعرفون شيئاً جديداً ذا قيمة في تاريخ الأدب . إن في ظننا أن خيراً من هذا كله درس فترة من تاريخ الأدب العربي دراسة عميقة يتشبع فيها الطالب بروحها ، ويدرك أثر نابغها في الأدب العربي ، وأثر بيئاتهم فيهم حتى أجدوا على الأدب ما أجدوا بفعل الزمان والمكان ، وما فيهما من ملابسات ومؤثرات .

٢ - جو المدارس وبيئتها بالنسبة للغة العربية

جدول دروس اللغة العربية : نقترح في شأن هذه الجداول أن يتسلم الأستاذ تلاميذه من السنة الأولى ، ويظل معهم إلى أن يخرجهم ليكون المسئول واحداً . وهذه الطريقة تكاد تكون مهجورة في مدارسنا ، ولسنا ندعي سلامتها من العيوب ، ولكن لماذا لا نجربها ؟ أن كثيراً من الأساتذة يقررون أن التلاميذ الذين رافقوهم سنين متوالية بطريق المصادفة البحتة قد ظهر أثر مجهودهم فيهم ظهوراً جعلهم يطيبون نفساً بهم من ناحية العلم والنظام . وإذا كان يخشى من هذه الطريقة في بعض النواحي ، فإننا نستطيع أن نحول دون وقوع ما نخشاه باختيار أساتذة تتوافر فيهم صفات مشتركة تسوى بينهم على قدر الامكان .

لغة التدريس : — إن تدريس فروع اللغة العربية غير معقول ، وليس صحيحاً في الأفهام أن يكون بغير هذه اللغة نقية خالصة مبرأة من شائبة اللحن وهجنة العامية ومهانة الدخيل . وعلى أساتذة اللغة ألا يسمحوا لأنفسهم بالتهاون في هذا لحظة ، فإن دروسهم وأحاديثهم أول البيئات وأشدّها أثراً في تقويم أسنة الطلاب ، والتمكين لهم في لغتهم القومية . على أن هذا الواجب لا يخص أساتذة اللغة وحدهم ، وإنما هو أيضاً في أعناق أساتذة العلوم الأخرى التي تدرس باللغة العربية . ولو تحقق هذا فلا بد أن تنهض اللغة العربية وتسلم من شر أدوائها على أسنة طلابها ، فالتلاميذ الآن يرون كثيراً من أساتذتهم لا يصطنعون العربية الصحيحة فيما يدرسون ، ولهم ما لهم في النفوس من كرامة ، وفي القلوب من منزلة ، فلا غرابة أن يرسخ في أذهانهم أن اللحن ، والتكلم بالعامية ، واستعمال الألفاظ الدخيلة ، بل التعبير أحياناً عن بعض المعاني بعبارات من لغات أجنبية ، والحديث دائر بالعربية ، أشياء لا عاب فيها ولا ملامة ؛ ولهم في أساتذتهم ورؤسائهم والقائمين على شؤونهم أسوة أي أسوة والصغار أبدأ مولعون بمحاكاة كبارهم .

أعداد الدروس وإشراك التلاميذ فيه : — تلك طريقة وإن اتسمت بالقدم ، خصوصاً عندنا في مصر حيث حمل الأزهر لوامها أجيالاً طوالاً ، فقد دلت التجارب الحديثة في طرائق التربية والتعليم في أرقى الممالك شعوباً وأعلاها كعوباً على أنها خير طريقة تسير بالمعلمين قدماً في سبيل تربية الملكات ، وإتمامها ، وتوسيع المدارك ، وتفتيح الأذهان ، وغرس كثير من أمهات الفضائل وجيل الشرائع . فإن البحث الشخصي قبل حضور الدرس يهيئ للطالب الفرصة لاختبار عقله ، ويقفه أولاً فأولاً على الأشواط التي قطعها في طريقه إلى النضج والفهم الصحيح ، ثم هو يشعر في ذلك أن له في الدرس موقفاً غير موقفه في درس لم يسبق له أن رآه أو بذل فيه مجهوداً قليلاً أو كثيراً . فها يعمل الطالب لنفسه وبأنفسه ، ولا تلقى عليه المعلومات كأنها أوامر يجب أن يخضع لها . وهنا عزة الطالب والاعتراف به وبجربته في الرأي . إتنا من غير شك نلجأ إلى هذه الطريقة النافعة في كثير من

الدروس ، ولكتنا حين نريد أن نلجأ إليها في أهم دروس اللغة ، وهي دروس النصوص والمطالعة ، نرى التلاميذ وقد خلت قماطهم ومنازلهم من كتب اللغة ومعاجمها التي لا بد منها لشرح ما غمض من الألفاظ ، وتحديد معانيها ، ومعرفة شيء عن أصولها وفصائلها . فتلاميذ القسم الأول لا يعطون كتباً في اللغة على الإطلاق ، وطلبة القسم الثاني يعطون كتباً لا يشفي غلة ، ولا يعين في إعداد معظم الدروس ، على أنهم يزودون بالمعاجم الضرورية لهم في الإنجليزية والفرنسية ابتداء من السنة الأولى . وهذه ظاهرة تملأ نفوسنا - معشر أساتذة العربية - أسفا وحسرة ، لا بد أن يكون في متناول التلاميذ معاجم كافية في اللغة العربية فاما أن توزع على كل تلميذ ، وإما أن تعد حجرات لأعداد الدروس بالمدارس يغشاها الطلبة في غير أوقات الدروس ، وتكون مجهزة بأكثر من معجم واحد .

مكتبات المراسى - ليس في المدرسة مكان لا يغشاه الطلبة ، ولا صلة لهم به ، كذلك المكان المعروف في كل مدرسة باسم المكتبة ، ثم يطالب أستاذ اللغة بعد ذلك أن يغرس في الطلبة حب القراءة وتعودها . وكيف يستطيع ذلك إذا لم يعط الطلبة فرصة التعرف بالكتب الأدبية المختلفة ؟ اللهم لاسيما إلى هذا التعرف إلا بفتح أبواب هذه المكتبات أمام الطلبة . ولماذا يعطى المدرس الذى يوكل إليه أمر المكتبة نصف جدول أو يزيد قليلا ؟ أذلك لأن يأتي إليه المدرسون في أول العام الدراسي ليأخذ كل منهم ما يريد من المراجع التي تلزمه ، فإذا ما انقضى أسبوع أو أسبوعان لم ير أحدا منهم أبداً ؟ إن كل شيء في المدرسة يجب أن يكون للتلميذ فيه نصيب . وليس من المنطق في قليل أو كثير أن تعطل دور الكتب عن خدمة الثقافة في دور الثقافة .

جماعات اللغة العربية ونوابها - يجب أن تنشأ جماعات ونواد يفرض على أعضائها ألا يتحدثوا ولا يدور بينهم نقاش إلا باللغة العربية الصحيحة . ونصف ساعة في كل يوم كفيلا أن يخدم اللغة العربية بين التلاميذ خدمة جليلة ، إذا زارهم كل يوم أستاذ يتحدث معهم في أمر من الأمور التي يشوقهم التحدث فيها من حوادث اليوم ومسائل الحياة .

اتصال دروس المطالعة بالحياة - يجب أن يرد إلى المدارس أعداد كافية من المجلات العلمية والأدبية المحترمة، كالمقتطف والهلل والرسالة وأشباهها، ليستطيع الأستاذ أن يوزع من إحداها العدد الكافي لفرقة ما، ويدرس معهم موضوعاً يختاره ليكون التلاميذ على اتصال بالحركة العلمية والأدبية في وقتهم الحاضر، ولتتاح لهم الفرصة أن يعرفوا شيئاً عن أعلام العلم والأدب المعاصرين. أما التزام كتاب واحد طول السنة فلا يخلو من ملل وسامة.

طول المناهج والتشدد في إتمامها قبل نهاية العام الدراسي بخمسة شهور - لا جدال في أن بعض المناهج طال واسطر، فما يتناسب مع الزمن المقرر له، كما لا جدال أيضاً في أن المدرسين يطلب إليهم في المدارس أن يتموا المقررات والمناهج قبل نهاية العام الدراسي (على قصره في المدارس الثانوية) بستة أسابيع على الأقل. ويعاقب القوم على الإعادة أكبر الآمال وأوسعها. وهكذا يركب الأساتذة قطراً سريعة لقطع المناهج، ويحملون حملاً على تمتين الطبقات العليا من البناء، دون أن يكون هذا مطلوباً منهم بالنسبة للأساس في البناء نفسه. على هذا يجري العمل في المدارس بالنسبة لجميع المواد المقررة، ولنا ندرى متى ينتهى أمد هذا التعليم الآلى الذى وأد العقول وأدا، ورد الملكات على أعقابها رداً.

الاجتماع في اروععمال التخريرية - لقد أصبحنا - والحمد لله الذى لا يحمى على مكروه سواه - لا نرى مظهرًا من مظاهر كفاية المدرس وقدرته الفنية، أروع ولا أدعى إلى التقدير من إعطاء موضوعات تحريرية كثيرة، تغطى الزمن المقرر كله في نصف السنة الدراسية. والواقع الذى لا ريب فيه، أن هؤلاء المدرسين الذين ورطهم حب الثناء في هذا إنما فعلوا ما فعلوا بعد أن تناسوا الدروس الشفوية، ولم يراعوا لها أثراً، أو يقدروا لها خطراً. وما لهم يقدرونها حق قدرها وأصوات الاستزادة لا يسكن لها صخب، ولا يهدأ لها ضجيج ينبعث من داخل المدرسة وخارجها؟ وما لنا نعجب إذا رأينا التلاميذ يخطون خبط عشواء

الليل يرتكبون أفش الغلطات الإعرابية وأقبحها ، إذا كانوا كاتبين أو قارئين .
أو متحدثين .

وبعد فتلك حال اللغة العربية في المدارس الثانوية ، وهذه هي الأسباب والعلل
التي تحول بين التلاميذ وبين الوصول إلى مثلهم الأعلى في لغتهم القومية الوطنية ،
وإني لأتقدم بما كتبت - شهادة خالصة لوجه الله والوطن واللغة - إن أريد إلا
الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ،

عبر الله عبر الجليل

— ١٦ —

تظلم أهل الكوفة من عاملها إلى المأمون ؛ فقال : ما علمت في عمالي أعدل
منه ؛ فقال رجل من القوم : يا أمير المؤمنين فقد لزمك أن تجعل لسائر البلدان
نصيباً من عدله ، حتى تكون قد ساويت بين رعاياك في حسن النظر ، فأما نحن
فلا تخصصنا به أكثر من ثلاث سنين .

في الأدب اللاتيني

صفحات مطوية من الأدب الروماني ، بقلم الفيلسوف سنكا ، Seneca ،
من نعم الله علينا العفة والاعتدال^(١)

ترجمة محمد مهدي علام

المنش بوزارة المعارف ، وعضو المكتب الفني

تقديم :

عاش سنكا من سنة ٣ قبل الميلاد إلى سنة ٦٥ ميلادية ، فهو من هذه الناحية مخضرم في الزمن ؛ وهو أسباني المولد ، روماني المربي ، فهو من هذه الناحية مخضرم في الجنسية (إذا صح هذا التعبير) . وقد أظهر ذكاء خارقاً منذ صغره وتربى على أيدي طائفة من أمهر الأساتذة ورحل إلى بلاد اليونان ومصر ، واشتغل بالقانون ثم عهد إليه بتربية العاهل العاتية نيرون . ولقد أظهر سنكا من الضعف في تربية هذا الطاغية الناشئ ما كان له أسوأ الأثر في حياة كل من التلميذ والأستاذ ، بل في حياة الدولة الرومانية نفسها . ولقد اتخذ نيرون وزيراً مستشاراً له ، بعد جلوسه على عرش رومة ، فكان له أطوع من بنائه ، في تحرير الفتاوى التي يزي بها أعماله الشاذة من قتل وسفك وغدر . حتى إنه حينما اغتال نيرون أمه كتب له سنكا خطاباً إلى مجلس الشيوخ ينكر فيه الجريمة ويذكرها في آن واحد . على أن طاغية الرومان قلب لمستشاره ظهر المحن ، فنحاه عن منصبه أولاً ، ثم بعث إليه بمن قتله أبشع قتلة .

من نعم الله علينا العفة والاعتدال

ليس ثمة أي شيء مما هو ضروري لنا إلا ونحن نستطيع الحصول عليه بثمن رخيص أو بلا ثمن مطلقاً ؛ وهذا تديرننا من الله تعالى ، الذي لم يضق إحسانه عن مطالبنا . ولا شك في أن المعنى تتشهى ، وتدعوننا لإشباعها ؛ ولكن قليل

(١) عن الانجليزية ص ٨١ — ١٠٠ من كتاب :

The Morals of Seneca : A Selection of His Prose. Edited by Walet Clode.

الطعام يرضيها . فبلغة من الخبز وجرعة من الماء فيهما الكفاء ، وما زاد على ذلك فهو زائد على الحاجة ^(١) . وإن من يعيش بحسب العقل لا يمكن أن يصير مسكيناً ، كما أن من يجعل للهوى السيطرة على حياته لا يمكن أن يصير غنياً ؛ لأن الطبيعة محدودة ، بخلاف الخيال فإنه لا حده . أما الطعام والثياب والمأوى فقليل يطعم الجسم وقليل يكسوه : بحيث إذا تابع الإنسان الطبيعة البشرية ، من غير تطلع إلى الكماليات ألقى أنه في غنى عن الطاهي ، غناه عن الجدي ، فانا نستطيع الحصول على الضروريات بثمان قليل ، على حين نحمل أنفسنا أشق المتاعب في سبيل الحصول على الكماليات . وإن العناية الربانية لأرحم بنا من أن تتركنا نعيش بذكائنا ، وأن نكون في حاجة إلى الفنون والاختراعات . وليس يوقعنا في المشكلات إلا الفخر وحب الفضول . فاذا لم يقنع المرء بغير الحلل الثمينة ، والرياش الفاخر ، والمناثيل والتحف الفضية والذهبية ، والجمع الحاشد من الخدم والحشم ، ونادر التحف من جميع الأقطار — فليس الخطأ خطأ المقادير ، بل خطؤه هو ، في أنه لن ينال رغباته لأن شهواته مسحوة ^(٢) ؛ وما ذلك تعطش ولكنه مرض . ولو أنه كان سيد العالم بأسره ما زاد على أن يكون شحاذاً . وإن هو إلا العقل الذي يمنحنا الغنى والسعادة ، بقطع النظر عن الحالة التي نكون فيها ، وليس للأموال في نظره من القيمة أكثر مما لها في نظر الآلهة . وإذا كان الدين خالصاً لله لم تكن ثمة حاجة إلى بدائع الزينة . وليس يصور لنا الفقر بغياً بشعاً إلا الترف والشره ، فإن أعمالنا لا تحتاج إلا إلى اليسير ، وإذا نحن أعدنا ما ندفع به عن أنفسنا البرد والجوع والعطش ، فإن كل ما عدا ذلك ليس إلا زهواً وإسرافاً وما بنا من حاجة إلى الاتفاق على شهي الألوان الأجنبية أو مبتكر الصحف الأنيقة . أهو أسوأ حالاً في فقره ذلك الذي يحترق هذه الأشياء ؟ أم هو أسعد حالاً لأنه لا يستطيع ثمنها ؟ فإنه يبقى سليماً معافى أراد أم لم يرد ، وإن ما يعجز الإنسان عن عمله يبدو في كثير من الأحيان كما لو كان غير راغب في عمله .

(١) تدبر الحديث : . ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفقت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت . .

(٢) مسحوة : نهمة لا تشبع ، وهي كلمة دقيقة في ترجمة كلمة « Insatiable » .

اعترال العصور السابقة

إنني إذ أتصور العصور السابقة ، يعقد الخجل لسانی كما لو كان الفقر في حاجة إلى مواساة ، فانا قد بلغنا الآن من إسرافنا في شهواتنا درجة أصبح فيها التراث العظيم أقل من أن يفي بوجبة ، فلم يكن لدى هوميروس إلا خادم واحد ، وكان لأفلاطون ثلاثة خدام ، ولم يكن لزينون (زعيم المذهب الرواق العظيم) خادم مطلقا ، ولقد كانت بنات سيبو يتقاضين أنصباهن من الخزانة العامة ، لأن أباهن لم يخلف لهن ما يساوي درهما (١) . وما كان أسعد أزواجهن ، فقد كان حموهن . أهل رومة . وهل في استطاعة إنسان أن يحتقر الفقر بعد هذه الأمثلة السامية ؟ وهي أمثلة تكفي لا للرضا بالفقر فحسب ، بل لامتداحه وإطرائه ، ولما هرب من ديوجين خادمه الوحيد ، سئل عن مكانه وحاول أصحابه أن يغروه بالبحث عنه وإعادته إلى خدمته ؛ فقال لهم : « واعجباه أيستطيع مانس أن يعيش من غير ديوجين ، ولا يستطيع ديوجين أن يعيش من غير مانس ؟ ، وبذلك لم يسترجه .. إن تقوى سيبو وعفته قد جعلت ذكراه أكبر جلالة مما جعلتها سيوفه ودروعه ، بل لقد كانت منزلته بعد أن رحل عن بلاده أعظم مما كانت يوم كان يذود عن حياضها ؛ فانه حدث أنه لم يكن مفر من أن تكون رومة جانية على سيبو أو أن يكون سيبو جانيا على رومة .

إن الرجل العفيف ليجد في الخبز القفار والماء القراح ما يغنيه عن وليمة .. وإن حشائش الحقول لتمنح الانسان من الغذاء ما تمنح الوحوش . إن أسلافنا لم يعلنوا مجدهم بشهى الأطعمة وعبق العطور ؛ ولكن بالأعمال الفاضلة ، وبالعرف لتصبب من المجهودات العظيمة الحربية ، المملومة رجولة .

مالة البراءة أو الطهارة

إذا كانت الطبيعة ملكا شائعا لجميع الناس ، وخيراتهما في متناول أيديهم للاستمتاع بها استمتع هرجلة وهرجمة ، فأية حالة أهنأ من أن يعيش الجنس

(١) شيه بهذا مسألة أولاد عمر بن عبد العزيز .

البشرى من غير حقد ولا حسد؟ وأى غنى أحسن من ألا يكون فى الدنيا رجل فقير؟ وما إن تحكم الطمع فى منح المقادير المتساوية، وشرع الأفراد يختصون لأنفسهم ما كان مقدرا أن يكون للجميع، حتى دلفت الفاقة إلى الدنيا عندما طمع بعض الناس فى أن يكون لهم أكثر مما يستحقون، فخرموا سائر الناس من أنصبتهم — وهى خسارة لا يمكن أن تعوض، إذ مهما أمكن أن تنال أكثر مما فى أيدينا، فقد كان لنا كل شيء. لقد كانت ثمار الأرض فى تلك الأيام موزعة على سكانها من غير عوز ولا إسراف. وما دام كل إنسان كان قانعا بنصيبه، لم تكن تعرف الدنيا اعتداء، ولا طغيانا. ولا إخفاء لهذه الخيرات العامة لأغراض شخصية؛ بل كان كل فرد معنيا بجواره عنايته بنفسه، ولم يكن هناك سلاح، ولا سفك دماء؛ ولا حروب إلا مع الحيوان: ثمة فى ظلال الغاب، أو حماية الكهوف، أمضى الناس نهارهم من غيرهم، وليلهم من غير أنين. فظهارة نفوسهم كانت درعا لهم وأمانا. هنالك لم تكن السرر المرفوعة، ولا اللآلىء الخاطفة للأبصار، ولا التطريز والوشى، ولا ما يتبع كل ذلك من آلام وتأنيب نفسى؛ فقد كانت السماء عرشهم وظلتهم، وكان لهم فى بهائمها وجمالها متعة لأنظارهم، وفى حركة الأفلاك، ومدارات النجوم، وفى نظام المقادير البديع كان تأملهم وتفكيرهم. ولم يكن لديهم آتئذ مدن، بل فضاء فسيح ذو هواء طلق، ونافورات بلورية، وظل ظليل، ومروج كساها جمالها الفطرى، وبيوت منحتهم إياها الطبيعة، فعاشوا فيها عيشة راضية، لا يفرغهم شبح الحرمان، ولا يقلقهم توقع الأذى. لقد عاش أولئك الناس من غير بلبال ولا خداع؛ ولم يكونوا قد مزقوا باطن الأرض بعد للبحث عن الذهب والفضة والأحجار الكريمة. وما كان أبعدهم عن قتل النفس الذى تقترفه نحن لتلهى بمنظره، بعد أن لم يوقعهم فيه باعث الخوف أو الغضب. ولقد أحسنت إلينا الفطرة بأن جعلت فى متناول أيدينا كل الأشياء التى قد تعود علينا بالخير، ولم تخف عنا إلا تلك الأشياء قد يكون فيها أذانا — كما لو كانت تخشى أن تخلى بيننا وبين الذهب والفضة، أو الحديد الذى هو أداة الحروب والصراع للحصول على ما فى أيدي غيرنا. فنحن أنفسنا الذين قد استخرجنا لأنفسنا من باطن الأرض

كلا من أسباب الخطر وأدواته . ثم قد بلغ بنا الغرور أن جعلنا أعلى قيمة لتلك الأشياء التي خصتها الطبيعة بأحط مكان . وماذا يمكن أن يكون أشنع وأخشن من هذه المعادن النفيسة في مناجها ؟ وأية ذلة وقذارة أعظم مما يتمثل في أولئك الرجال الذين يستخرجون تلك المعادن من المناجم ؟ على أن هذه المعادن تدنس عقوباتنا أكثر مما تدنس أجسامنا . فهي تجعل مالكمها شرا من معدنها . وقصارى القول أن الأثرياء أكثر رقاً من الأرقاء ، كلاهما لا يقنع بالقليل^(١) .

الحياة العفيفة هى الحياة السعيدة :

ما أسعد الرجل الذى لا يأكل إلا ليشبع الجوع ، ولا يشرب إلا ليطفىء الظم ، ويعيش ورام عقله لا ورام تقليده ، ويتزود لما هو نافع وضرورى ، لا للتباهى والتفاخر . لنضع الشكائم على شهواتنا ولنشجع الفضائل ... ليسكن فراشى ساذجا ونظيفا ، ولتكن كذلك ملابسى ، وليكن طعامى من غير تفقات كثيرة أو خدم كثير ، ولا يكون عبئا على جيبى أو بدنى . وإن ما يستقله الترف لا أكثر مما يكفى الطبيعة ، وإن غاية الطعام والشراب هى ما يشبع الجوع ويروى العطش . وماذا يحدث لو أن شخصا أكل وشرب أكثر من آخر . ما دامت النتيجة أن كلا منهما ليس غرثان ولا ظمآن ؟^(٢) وإن أيقور الذى يجد اللذة بحدود الطبيعة ، كما يجد الرواقيون الفضيلة ، لعلى حق مبن ، وإن أولئك الذين يستشهدون بأقواله ليؤيدوا بها شهواتهم ليسيثون فهمه كل الإساءة ، وهم بذلك يبحثون عن حجة طيبة لغرض شرير ، فليس ثمة من صلة بين لذاتهم فى الكسل ، والنهم ، والفجور ، وبين مبادئه وتعاليمه .

والحق أن فلسفته تبدو للنظرة الأولى فلسفة مخشنة ، ولكن من ينظر إليه نظرة تمحيص يلفيه رجلا شجاعا . وإن ارتدى حلة نسوية .

(١) تأمل الحديث : « اثنان لا يشبعان طالب علم وطالب مال »

(٢) تدبر قول عمر رضى الله عنه : « كفى سرفا ألا يشتهى الرجل شيئا إلا أكله » .

بعض الفلاسفة على مقتضى تعاليمهم

وإني أعلم أن هناك نقدا شائعا بأن هؤلاء الفلاسفة لا يحجون الحياة التي يدعون إليها في تعاليمهم، فإنهم يستطيعون أن يتملقوا ساداتهم (١) ويجمعوا الضياع، ويبلغ بهم الحزن على فقد ثرواتهم وأصدقائهم ما يبلغ بسائر الناس. إنهم يألمون كما يألم الناس من الزجر والتقريع، إنهم كسائر الناس في ترفهم في طعامهم، وشرابهم، وأثاثهم، ومنازلهم؛ إنهم لا يحتفلون عن الناس في عنايتهم بالتحف الجميلة من الذهب والفضة، وبالخدم والحشم. إن حداثتهم لا تختلف عن حداثق الناس فيما تحوى من جمال وتنوع. ثم ماذا يترتب على كل هذا؟ بل ماذا يترتب على أن يكون ذلك أضعافا مضاعفة؟ إن من درجات الفضيلة أن يحتقر المرء نفسه، وإذا لم يستطع أن يسمو إلى أعلى درجاتها، فليكن أسفى من أخط درجات الرذيلة، وإذا لم يستطع أن يخضع شهواته إخضاعا تاما فليعارضها وليقلل من شهورها.

وإذا لم أعش على السنن الذى أدعو إليه، فأتلاحظ أننى فى إرشادى لأصف نفسى وإنما أصف الفضيلة؛ وإبنى لا تحزنى رذائل الناس كما تحزنى رذائل (٢) ولقد وجه هذا الاعتراض إلى أفلاطون، وأبيقور، وزينون. على أنه ليس ثمة فضيلة بلغ من تقدسها أنها نجت من الاستهتار. ولقد كان ديمتريوس الكلبي مثالا

(١) هنا وصف حياة سنكا وكذلك ما بعده.

(٢) تدبر البيت المشهور

نخذ بقولى ولا تنظر إلى عملى ينفعك قولى ولا تضرك أعمالى

على أننا نجد ابن المقفع يخالف سنكا فى هذا الرأى - ولعلها المخالفة الوحيدة : ومن نصب نفسه للناس إماما فى الدين فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها فى السيرة والطعمة والرأى واللفظ والاختدان. فيكون تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه؛ فانه كما أن كلام الحكمة يوتق الاسماع كذلك عمل الحكمة يروق العيون والقلوب، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال والتفضل من معلم الناس ومؤدبهم. ، الآداب الصغير (٢٣ - ٢٤)

قويا للصرامة والتقشف ، وقد فرض على نفسه ألا يملك شيئا ؛ ولكنه مع ذلك لم يسلم من تلك الثلبة (١) : وهى أنه احترف الفسافة بدلا من أن يحترف الفضيلة . ولقد عيب على أفلاطون أنه كان يطلب المال ، وعلى أرسططاليس أنه كان يتقبله ، وعلى ديمقريطس أنه كان يهمله ، وعلى أبيقور أنه كان ينفقه . وما كان أسعدنا لو أننا اقتصرنا على محاكاة رذائل هؤلاء الرجال ! فإنا لو بصرنا بحالنا لآلفينا فى أنفسنا ما يغنيا عن غيرنا . ولكننا أشبه بقوم قد أخذهم الطرب فى مسرح أو حان ، على حين أن يوتهم تندلع فيها ألسنة النيران ، ولكنهم لا يعلمون من أمرها شيئا ، وها هو ذا كاتو ، نفسه ، اتهم بأنه كان سكيراً ، غير أننا لا نرى فى سكر كاتو تلك الجريمة التى كان يمكن أن تكون فى حياته . إن أولئك الذين يهدمون المعابد ، ويحطمون المحاريب ، يدلون على نيتهم الشريرة ، ولكنهم لا يستطيعون أن ينالوا من الآلهة نيلا ؛ وكذلك الشأن فى أولئك الذين يستباحون سمعة الفلاسفة العظام . وإذا كان معلو الفضيلة — كما تسميهم الدنيا — نهمين ، فساقا ، متكالبين ، فماذا يكون إذن أولئك الذين يشتمون من اسم الفضيلة ؟ غير أن الطبايع الشريرة لا تحتاج إلى كبير ذكاء لاتقاص من هم أسمى منها أخلاقا . ومن عادة الجماهير أن تنبح عظماء الرجال كما تنبح الكلاب الصغيرة الضيف الغريب ، ذلك أنهم يرون فضائل غيرهم وسائل التقرير لهم على رذائلهم . ألا أن من الخير أن تمتدح الفضلاء ؛ فان لم نستطع فلندعهم وشأنهم ؛ ولندخر أنفسنا (٢) ، فان ثورتنا ، إلى أنها كفر بالفضيلة ، لا تضر إلا الإخفاق (٣) .

ولأعد إلى الموضوع الأصى .

(١) تدبر المثل العربى : « وقد لا تعدم الحسنة ذاماً . »

(٢) يقصد لوقوفهم كلباتنا فى ذمهم .

(٣) ما أجمل قول نابغة بنى شيبان :

وما طلابك شيئاً لست نائلة ، وسبك الناس ظلماً ، غير تعذيب

من الخبر أنه تنور الاعتدال في أيام رهالك^(١).

إن من أيسر الأمور علينا أن نحدد الحدود لغيرنا ، ولكننا نستكف أن نقيّد أنفسنا أو نضبطها ، على الرغم من أننا نستطيع بشروء خفيفة أن نتحاشى شرورا أظلم منها أضعافا مضاعفة ؛ وإن العقل الذي لا يقنعه منطق الفكر بالأخذ بأسباب الفضيلة ، يقنعه في كثير من الأحوال ، العوز بالاستمسك بها . فلنحاول أحيانا أن يكون غذاؤنا متقشفا^(٢) ، وأن نخدم أنفسنا بأنفسنا ، وأن نعيش في حدود مواردنا ، وأن نقص دثارنا على مقتضى مالدينا من النسيج وإن محاولتنا الاعتدال في الحين بعد الحين تزودنا بأقوى برهان على حزمنا وفضلنا .

إن الشهوة الملمجة لجزء عظيم من الحرية ؛ ومن الرحمة بأنفسنا - مادام مستحيلا أن ينال امرؤ كل ما يمتناه - أن نحجم جميعا عن الرغبة فيما ليس في أيدينا^(٣) إن وظيفة العفة أن تسيطر على ملذاتنا : فهي تنبذ بعضها وتعديل بعضها آخر يجعله في الحدود المعقولة ، فما أجمل الراحة بعد الإجهاد ، والطعام بعد المسغبة ! لقد تعلمت من رحلة واحدة أن كثيرا مما لدينا ليس إلّا ترفا يستغنى عنه بأيسر مؤونة ، فانا حين تحررنا الظروف إياه لا نشعر حتى بحاجة إليه .^(٤) هذا هو اليوم الثاني لرحلتي مع صديقي ، ومركب واحد يقلنا نحن وخدمنا جميعا ، وحشيتي مفروشة على الأرض ، وعليها أنام ، وطعامنا يلائم في تقشفه مأوانا ، ولم نحرم بيننا ولا كتب المائدة ، وسائق البغال من غير نعال ، وليس في البغال ما يثبت أنها حية إلا أنها تمشى ، وأنا أشعر بأنني لست راضيا عن هذا العناء ،

(١) تدبر الحديث الشريف « اغتم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وفراغك قبل شغلك ، وصحتك قبل سؤمك ، وغناك قبل فقرك ، وحياتك قبل موتك .

(٢) راجع الحديث : « اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم ،

(٣) تدبر المثل الانجليزي : إذا كنت لا تستطيع أن تنال ما تحب ، وجب عليك أن تحب ما تنال :

If you Cannot have what you like, yow must like what yow have.

(٤) تدبر قول الشاعر :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

ولكننى إذ أذكر أننا طالما كنا فى حالة أحسن من هذه ، يعلونى الخجل ؛ بما يدل على أننى لم أمعن بعد فى اعتياد تلك الأشياء التى أطريها وأمتدحها : ألا أننى لم أعتنق بعد الاعتدال ، فإن من يخل أن يرى فى حالة متواضعة ، يطريه زهوا أن يرى فى حالة فاخرة ، فأنا أنزل نفسى المنزلة التى ينزلى رفقاء سفرى ، وأنا بذلك أبرأ ضمنا من آرائى وتعاليمى ، على حين أنه كان يجب على أن أرفع الصوت جهرا لبني الانسان قائلا : انكم جميعا لى جنون ، فقد ملك عليكم أقتدكم الترف فغدوتم لا تقدرون رجلا لفضائله . وقد عدت إلى مأوى ذات ليلة ، وقد برح بى الاعياء ، فألقيت بنفسى على الفراش ، وفى صدرى هذه الفكرة : أنه لا شىء من الشرور يتقبل بقبول حسن ، فبازى يخبرنى بأنه ليس عنده خبز ثم يقول : « على أننى أستطيع أن أحضر لك خبزا من مستأجريك ولكننى أخشى أنه لن يكون خبزا شهيا » فأقول له : « لاضير ، فسأنتظر حتى يصبح شهيا ، ومعنى ذلك أننى سأنتظر حتى ترحب معدنى بما هو أسوأ منه . » (١) إن من الحزم أن نحاول فى بعض الأحيان الاعتدال ، وأن نعود أنفسنا القليل ؛ فإن كثيرا من الصعاب ، صعب الزمان ، وصعب المكان ، قد نحملنا على الرضا بذلك القليل . إننا فى الشئون المالية (الميراث أو الوقف) نختبر قيم الرجال اختبارا دقيقا قبل أن نعهد إلى واحد منهم بدرهم . إننا نقول : إن لهذا الرجل ضيعة عظيمة ، ولكن الخبث أوقعها فى الارتباك ، إن له منزلا جميلا ، ولكنه بنقود مقترضة قد بنى ؛ إن له أسرة كبيرة ، ولكنه ليس على اتصال بدائنيه ، ولو أن ديونه قضيت لأصبح لا يساوى فلسا فلماذا لانسلك مثل هذا النهج ، لتعرف قيمة كل إنسان ؟ ألا إنه ليس يكفى أن يكون لك فيلق من الاتباع ، أو أملاك واسعة ، أو كنوز من المال والجواهر تنوء مفاتها بالعصبة أولى القوة ، فإن الرجل مع كل ذلك قد يكون فقيرا ؛ وسيكون الفرق بينه وبين الفقير ، على أحسن تقدير ، أن أحدهما يقترض من الربى ، والآخر يقترض من كنوزه ، وعلام تدل الزينة والتذهيب فى المركب ؟ وهل يمكن أن يجعل ذلك صاحبه أفضل مما هو ؟

مهري علام

في ظلال الروض

زهرة حمراء :

انظروا إلى لوني البديع
إتني به بهجة الريع

يا لَحْمُوتِي إنها الشفق
يا لَصُورَتِي جلّ من خلق

زهرة بيضاء :

طلعتي هنا في رياضها
أسفرت لكم عن بياضها

وجهها غدا يشبه القمر
فهو إن بدا زينة الزهر

الزهرتان تتمكان بزهرة صفراء :

ما لهذه خانها الأمل؟
يا لوجهها هل دنا الأجل
أم سرت به صفرة الوجع؟
علمها جنت وصمة الزلل
فاغتدت هنا مضرب المثل
يا لحسنها إنه رحل!
يا لنجمها إنه أقل

ثم تهكجان بزهرة قائمة :

ما لوجهها يشبه الحلك
ليت عودها كان قد هلك
قبل أن يرى طيفها الفلك
فحة الدجى ما لنا ولك

الروض يؤنب الزهرتين :

إيه زهرنا ما الذى أراه ؟
ما الذى به تهمس الشفاء ؟
يا لشمسنا ما الذى دهاه ؟
نحن كلنا زينة الحياه
فاطرح إذن هذه الأذاه
لن تضيرنا صورة الجباه
حسب زهرنا بيننا شذاه

أيها الزهر أصغ واعتبر
كيف نعتلى كيف زدهر
إن جموعنا شملها اتثر
إن طاقة تنظم الزهر
خير مظهر للسنن الأغر

إن أمة تبصر الخطر
ثم لا تنى تبعد الصور
إن صرحها سوف ينقطر

إِنْ مَجَدَّهَا سَوْفَ يَنْدَحِرُ
ثُمَّ تَقْدِي مَبْعَثَ الْعَبْرِ

فِي اثْتِلَاقِنَا حَسَنًا بِهِر
فَاهْجِرُوا إِذْنَ ذَلِكَ الصَّعْرُ
وَانْشِدُوا الصَّفَا تَغْنَمُوا الظَّفَرُ
كَلْنَا هُنَا نَافِعَ وَبِرْ

الزهر:

إِيهِ رَوْضِنَا شُكْرُنَا الْوَفِيرُ
قَدْ حَمَيْتَنَا مِنْ أَذَى الْغُرُورِ
قَبْلَ أَنْ نَرَى سَيِّئَ الْمَصِيرِ

ذِي جُوعِنَا سَادَهَا الْوِثَامُ
لَنْ تَرَى بِهَا ثَغْرَةَ انْقِسَامِ
لَنْ تَرَى غَدَاً ذَلِكَ الْخِصَامِ

نَحْنُ نَقْدِي مَصْرَ أَنْ تَضَامِ
فِي ظِلَالِهَا جَادِنَا الْغِيَامِ
حَيْثُ نِيلِهَا يَطْفِي الْأَوَامِ
حَيْثُ نَبَتْهَا يَغْمُرُ الْإِكَامِ
حَيْثُ أَرْضَهَا مُمْتَدِي الْكِرَامِ

ذَا اثْتِلَاقِنَا يَشْهَدُ الْأَنَامُ
أَنَا هُنَا آيَةُ السَّلَامِ

محمد يوسف المحبوب

المدرس بمدرسة محمد علي الملكية للبنات بالقاهرة

جيش مصر

كانت لنا جنود كأنهم أسود
 كم بددوا جيوشا وزلزلوا عروشا
 فواصلوا الفتوحا وشيدوا الصروحا
 قد حصنوا الحدودا ووثقوا العهودا
 تاريخهم مجيد وفعلهم حميد
 فكلهم ينادى خلقت للجهاد

الفتاة والعصفورة

عصفورتي عصفورتي أنت الأنيس بحجرتي
 طيري إلى ورفرتي ياسلوتي في خلوتي
 طيري وغنى إتنى أجده الغناء مسرتي
 فالطير في تغريدها تحكي حياة الأسرة
 وإذا تهز جناحها تدعو لخير رياضة
 من رام صفو حياته فليذهبن لحديقة
 فهاهنا السامى

استدراك

نشر سہوا فی العدد الرابع من السنة الأولى صفحة ٢٢٣ فی مسابقة عيد الوطن الاقتصادی اسم ابراهيم عبد الفتاح افندی الطالب بدار العلوم علی أنه الفائز الثالث فی المسابقة . وترتيبه الصحيح : الثاني .

الفلّاح

فَلَا حَنَا حُزِنَتْ الْفَخَارُ وَرَفَعَتْ فِي مِصْرَ الْمَنَارُ
وَحَبِيبَتَهَا مِنْكَ النَّضَارُ
تَرْدُ الْحَقُولِ مِنَ الصَّبَاحِ وَتَقِيمُ فِيهَا لِلْكَفَّاحِ
حَتَّى يَفَارِقَكَ النَّهَارُ
وَتَظَلُّ تَعْمَلُ بِاجْتِهَادٍ مِنْ يَوْمٍ تَزْرَعُ لِلْحَصَادِ
تَرْجُو مِنْ اللَّهِ الثَّمَارُ
إِنْ جَعْتَ أَوْ نَزَلَ النُّكْدُ لَمْ تَشْكُ إِلَّا لِلصَّمَدِ
هِيَاهُ أَنْ تَبْغِيَ الْفِرَارُ
وَتَقُولُ حَمْلِي لِلْفَتُوسِ أَحْلَى وَأَعْذَبُ فِي النَّفُوسِ
مَنْ حَلَّ أَكْلِيلَ وَغَارِ
أَبْنَاءُ مِصْرٍ دَافَعُوا عَنْ حَقِّهِ وَتَرَاغَبُوا
فَبَلَاؤُهُ رَأْسَ الدَّمَارِ

الموسيقا

تَمْلِكُ عَنَانِي وَصَوْتَهَا شَجَانِي
تَصْدَحُ بِالْأَنْغَامِ فَتَسْتَبِي آذَانِي
كَأَنَّ فِيهَا سِحْرًا يَحُلُّ بِالْأَبْدَانِ
مُسْرَةً الْحَزِينِ وَفَرَحَةَ الْوَلَهَانِ
عِلَالَةَ الشُّيُوخِ وَسُلُوءَ الشَّبَّانِ
تَرْقُقُ الشُّعُورَا كَالشَّعْرِ وَالْيَبَانِ
تَشْجَعُ الْجَبَانَا فِي حُومَةِ الطَّعَانِ
وَتَمَلَأُ الْقُلُوبَا بِحُبِّهِ الْأَوْطَانِ

مُحَمَّدٌ عَبْدُ الْمُنْعَمِ سَالِمٌ

فهرس الجزء الأول

من السنة الثانية

الكاتب	الموضوع	صفحة
	<u>التحرير</u>	
أبو الفتح الفقى - المفتش بوزارة المعارف	جماعة دار العلوم فى الستين الأولين من حياتها	٥
محمد على مصطفى - المفتش بوزارة المعارف	التقديم	١٢
أبو الفتح الفقى - المفتش بوزارة المعارف	شكر وتقدير	١٦
	<u>بحوث فى الأدب</u>	
عبدالوهاب حموده - المدرس بكلية الحقوق	أسلوب القرآن فى المحاجة والجدل	١٧
السباعى السباعى يوى - المدرس بدار العلوم	حول إنجاز القرآن	٣٢
محمود البشيشى - المدرس بدار العلوم	اتجاهات الأدب وأهم حواضره فى العصر العباسى	٣٩
محمد هاشم عطيه - المدرس بدار العلوم	فردريك شولتس وأمية برن أبى الصلت	٤٦
عبد اللطيف المغربى - المدرس بمعهد التربية للبنات	صفحة من العاطفة	٥٣
محمود مصطفى - أستاذ الأدب العربى بكلية اللغة العربية	الوقائع المصرية	٥٧
على التجدى ناصف - مفتش وزارة المعارف بملوى	أبو الطيب المتنبى	٧٣
الأستاذ محمود عبده الحامصى - المدرس بالمدراس الملكية للبنات ببنى سويف	غلطة شاعر	٨٩
عيسى محمود ناصر - مدرس بمدرسة القيوم الابتدائيه	ذكرى شاعر البادية الشيخ محمد عبد المطلب	٩١

أسلوب القرآن في المحاجة والجدل وخطابة أرسطو

الأستاذ عبد الوهاب محمود

المدرس بكلية الحقوق

٢

النصرانية في بلاد العرب

(١) النصرانية دين من الأديان التي كانت قبل الاسلام ببلاد العرب ، وهذه اللفظة كما تدل على الدين تكون واحدة النصارى ، ومفردهم نصران منسوب - على رأى اللغويين - إلى بلدة الناصرة ، كان ينزلها عيسى عليه السلام . فنسب إليها فقيل : عيسى الناصرى (١) . والناصرة تتبع مدينة داود المعروفة ببית لحم .

والذى جاء بهذه الديانة في ثوبها الصحيح هو عيسى عليه السلام ، وقد ذكر اسمه في القرآن بلفظ المسيح تارة وهو لقب له ، ولفظ عيسى وهو اسمه العلى ، وبكنيته ابن مريم تارة أخرى . أما لقبه فيقول بعض اللغويين إنما لقب به لكونه ماسحاً في الأرض ، أى ذاهباً فيها . ولكن رأى الأقرب الى الصواب أن هذه الكلمة مأخوذة من الكلمة العبرية مشيح ، بمعنى ممسوح بالدهن ، أى مدهون ، فعرب فقيل مسيح . وأما عيسى فهو معرب عن العبرية ، وهو فيها يشوع ، أى المخلص ، إشارة الى أنه سبب لتخليص كثيرين من آثامهم وضلالهم (٢)

(٢) دخلت النصرانية بلاد العرب قبل الاسلام بأكثر من خمسة قرون ، إما فراراً من الاضطهادات الدينية .

(١) القاموس والصحاح وتفسير القرطبي > ١ .

(٢) قصص الأنبياء للاستاذ النجار .

قال جول لا بوم : « أما المسيحيون فكانوا يفقدون شيئا فشيئا الى بلاد العرب ، هربا من الاضطهادات الدينية التي كانت في مملكة الرومانيين ، ولكن لم يكن في حالهم نور يجذب البصر تألقه » (١) .

وقال جورج سيل : « ان ما ألم بالكنيسة الشرقية من الاضطهادات والاضطرابات في صدر المئة الثالثة لليلاد قد اضطر الكثيرين من النصارى الى أن يلجئوا الى بلاد العرب طلبا للحرية » (٢) .

ولما عن طريق أولئك المبشرين الذين كانوا يجوبون بلاد العرب ويجوسون خلال نجودها وتهامها (٣) . جاء في تاريخ الكنيسة « وكانت صحارى سورية والبلاد العربية مملوءة بالرهبان دعاة المسيحية في القرن الرابع » (٤) . وقال مرجليوث : « وكان القسوس يغشون أسواقهم العامرة ، ومجتمعاتهم الحافلة ، ليسمعوهم وعظهم وتعاليمهم » (٥) .

ثم ألم يرو الرواة في كتب الأدب أن قس بن ساعدة الايادى أسقف نجران كان يغشى سوق عكاظ ، وقد سمعه النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة على جمل أورق يخطب خطبته الوعظية المشهورة . ومرجليوث يرى ان اسمه محرف عن (Kasha) . كشأ باللغة السريانية بمعنى قس (٦) .

ويذكرون أيضا في سبب تنصر أهل نجران أن رجلا يقال له فيمون وقع بين أظهرهم ، وكان رجلا صالحا زاهدا من أهل دين عيسى بن مريم ، فحمل أهلها على المسيحية (٧) .

(١) ص ١١٨ مقدمة التفسير للعلامة فريد وجدى .

(٢) ص ١٧ من مقدمة ترجمة القرآن لسيل .

(٣) ص ٢٧ من كتاب انتشار الاسلام لولسون كاش ، ص ٣١ فجر الاسلام .

(٤) ص ١٩٩ من كتاب تاريخ الكنيسة .

(٥) ص ٤٣ كتاب محمد لمرجليوث .

(٦) ص ٤٣ كتاب محمد لمرجليوث .

(٧) ص ٣٠ الروض الأنف ج ١

ولما عن طريق التجارة ، فكان تبادل السلع يصبح تبادل الأفكار والمذاهب ، كما حدث ذلك في نقل عبادة الأصنام إلى بلاد الحجاز بما سنفضله في حينه (١) .
 (٢) دخلت النصرانية بلاد العرب وقد فسدت أصولها ، وتشعبت مذاهبها ، والتوت تعاليمها ، وكثرت طقوسها ، فنكب بها أهلها عن سواء السبيل . (٣)
 فانقسمت المسيحية فرقا وكنائس . أهم تلك الفرق ثلاث : النسطورية واليعقوية والملكانية .

منشأ هذا الخلاف أن النصرانية هي إحدى الديانات التي ولدت في الشرق ، وانتشرت في الامبراطورية الرومانية — معهد الثقافة اليونانية — وحينئذ فهي إما أن تطنخ على الفلسفة اليونانية وتكتسح أمامها جميع المذاهب الفلسفية ، وإما أن تتودد إليها وتتخذ منها سندا في تأييد عقائدها الدينية ؛ فكان أن اتخذت لنفسها الطريق الثاني ، لأن كثيرا ممن اعتنقوا ذلك الدين كانوا فلاسفة قبل أن يكونوا مسيحيين . وبذلك أخذت الفلسفة اليونانية تدخل في المسائل الدينية ، كتحديد ماهية الله وكنهه وطبيعة المسيح وألله هو أم انسان اختير لتبليغ رسالة الله الى خلقه وغير ذلك من المسائل الفلسفية التي امتزجت بأصول النصرانية ولا سيما مسألة التثليث ، وأول من أثار الكلام فيها أوريجين (١٨٥ — ٢٥٤ م) .

وكانت مدرسة الاسكندرية — وهي قد ظهرت في أواخر القرن الثاني لليلاد — أول معهد اتصلت فيه الفلسفة اليونانية بالديانة المسيحية (٤) ، ثم امتدت موجة النزاع والجدال وظهور البدع فكثرت المجامع العامة أو المسكونية ، كما

(١) ص ٣٧ انتشار الاسلام لولسون كاش .

(٢) ص ١٥ مجلة الجامعة المصرية القديمة محاضرات الحضارة الاسلامية لجويدي ، ص ١١٨ و ٢٢١ و ٣٢٥ من كتاب تاريخ الكنيسة طبعة أورشليم ، ص ٢٨ من المحمدية والمسيحية ، جورج هويك .

(٣) ص ١٦٣ و ١٧٤ و ١٧٥ تاريخ الفلسفة للأستاذين محمد علي مصطفى وأحمد

يسمونها. فمن تلك المجمع، المجمع الثالث: وسببه أن نسطورس بطرك (١) القسطنطينية في سنة (٤٢٨ م) - وقد تخرج في قاليقلا (كليسيا) على يد ثيودوروس زعيم جماعة من اللاهوتيين أفرغوا الوسع في تنزيل الكتاب المقدس الى درجة العقل البشرى حيث اعتبروه خاضعا للانتقاد والتأويل اللغوى - اعترض على تلقيب مريم بوالدة الإله - ذلك اللقب الذى جعله البعض ذريعة إلى الإفراط في احترام العذراء وإكرامها - وقال: إنما ينبغى أن تدعى والدة المسيح فقط، وأن إطلاق الإله على عيسى ليس هو بالحقيقة بل بالموهبة والكرامة. وقال في خطبته يوم الميلاد: «إن مريم ولدت إنسانا، وأنا لا أعتقد في ابن شهرين وثلاثة الألوهية ولا أسجد له سجودى للإله. وكان كيرلس بطرك الاسكندرية شكس الخلق مملوا غيرة وحسدا، من تقدم كرسى القسطنطينية على كرسىه، فاتخذ تعاليم نسطورس ذريعة إلى مبتغاه، وجعل يحرض عليه كثيرين في القسطنطينية والمشرق وفي رومية وسائر المغرب، فكتبوا جميعهم إلى نسطورس ليرجع عن مقالته فلم يرجع، فتواعد البطاركة على الاجتماع بمدينة أفسس، فاجتمع بها مائتا أسقف وامتنع نسطورس من الحجي. إليهم، وشدد السريان وأهالى أنطاكية عضده. وهذا هو المجمع الثالث، وكان انعقاده في سنة (٤٣١ م) فنظروا في مقالته وحكموا عليه بالحرمان والنفي. فنفي نسطورس إلى صعيد مصر، فنزل مدينة أنخيم وأقام بها سبع سنين ومات فدفن بها. وظهرت مقالته قبلها برسوما أسقف نصيين، ودان بها نصارى فارس والعراق والموصل والجزيرة إلى الفرات وعرفوا بالنسطورية.

ثم كان المجمع بمدينة خليقدونية - الواقعة على البوسفور قبالة القسطنطينية - لكي يتسنى للبك حضوره، وكان انعقاده في سنة (٤٥١ م)، وكان مؤلفا من ست مئة أسقف من أساقفة المشرق، وسببه أن ديسقورس بطرك الاسكندرية قال:

(١) لا بطريق كما يقول بعضهم، لأن الطريق هو القائد من قواد الروم، فهو منصب سياسى. أما البطرك أو البطريرك فهو منصب دينى. (انظر القاموس وكتاب الألفاظ المعربة للسيد أدي شير. وشفام الغليل للخفاجى. ومحاضرات الحضارة الاسلامية للمرحوم زكى باشا)

إن المسيح جوهر من جوهرين، وأقنوم من أقنومين، وطبيعة من طبيعتين، ومشيتة من مشيتين. وكان رأى مرقيانوس ملك الروم أنه جسد، ورأى أهل مملكته أنه جوهران وطبيعتان ومشيتان وأقنوم واحد. فلما رأى الأساقفة أن هذا هو رأى الملك خافوه فوافقوه على رأيه، ما خلا ديسقورس وستة أساقفة فانهم لم يوافقوا الملك، وكتب من عداهم من الأساقفة بخطهم ما اتفقوا عليه. فغضب الملك على ديسقورس وأمر بنفيه فنفى. ومن هذا المجمع افترق النصارى وصاروا ملكانية على مذهب الملك مرقيانوس، ويعقوبية على رأى ديسقورس. وقد اختلف في تسمية اليعاقبة بهذا فقيل: إن ديسقورس كان يسمى قبل بطركيته يعقوب. وقيل: بل كان له تلميذ اسمه يعقوب، وكان يرسله وهو منى إلى أصحابه فنسبوا إليه^(١). وقيل: بل كان يعقوب تلميذ ساويرس بطرك أنطاكية، وكان على رأى ديسقورس كثير العبادة والزهد يلبس خرق البراذع، فسمى يعقوب البراذعى أو البرذعانى^(٢).

فاليعاقبة في غسان وسائر قبائل الشام، والنساطرة في الموصل والعراق، وفارس، والملكانية في بلاد المغرب وصقلية والأندلس^(٣).

(٤) كانت النصرانية اذن منتشرة على حدود الحجاز من مشارف الشام والجزيرة وسواحل الخليج الفارسي واليمن. وأهم القبائل التى تنصرت حمير وغسان وربيعة وتغلب وبهراء وتنوخ وبعض طيء وقضاعة وأهل نجران والحيرة^(٥).

وأهم المواطن لتلك الديانة هى الشام والحيرة ونجران، أما الشام فقد كان بها الغساسنة، ومن ملوكهم الذين يذكروهم التاريخ في تحقيق وثقة: الحارث بن جبلة

(١) ص ٢٥٧ الى ٢٦٤ تاريخ الكنيسة طبعة أورشليم، ص ٣٨٧ - ٣٨٩ > ٤ خطط المقرئى.

(٢) ص ٤٨ الفصل لابن حزم، ص ٣٨٩ > ٤ الخطط المقرئية. ص ٢١٦ شفاء الغليل.

(٣) ص ١٤٩ فجر الاسلام للاستاذ احمد أمين، ص ٦٦ روح الاسلام للامير سيد على.

(٤) ص ١٧ مقدمة ترجمة القرآن لسيل، ٣٦، ٣٧ - ٣٨ محمد لمرجلو، ص ٢٠ المعارف لابن قتيبة.

المشهور بالأعرج ، وكان هذا الملك نصرانيا على مذهب اليعاقبة (١) .
وقد عينه الإمبراطور يوستينيان سنة (٥٢٩ م) أميرا على جميع قبائل العرب
في الشام ، وكان يعد حاميا من حماة كنيستها .
وأخر ملوكهم هو جبلة بن الأيهم ، وقد جاء الاسلام وهو على ملكه ، وأسلم
في عهد عمر رضى الله عنه .

أما الحيرة فقد تنصر كثير من ملوكها ومذهبهم النسطورية . وكان فيها
مبشرون بالمسيحية داعون إليها . وللعباد شأن في ذلك ، وهم في الأصل قبائل شتى
من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية في الحيرة ، وكانوا كما يقول نيكلسون
يبيعون الخمر ، وفي مجالس شربها يلقون تعاليمهم المسيحية ويبشرون بديانتهم
النصرانية . وهكذا لقنوا الأعشى وعدى بن زيد مبادئهم مما سنوضحه بعد (٢)

وأول من تنصر من ملوك الحيرة النعمان الثالث بن المنذر أبو قابوس . وهو
صاحب النابغة الذبياني ، في القرن السادس . لا كما قال دوزي . إنه المنذر بن
ماء السماء ، فإن هذا كان يعبد الأصنام ويذبح الذبائح للعزى كسائر عرب الجاهلية (٣) .
ويعزو نيكلسون هذا التنصر إلى تربية النعمان الأولى ، فقد كانت تربيته
على يد أسرة نصرانية نبيلة في الحيرة ، هي الأسرة التي على رأسها زيد أبو عدى
الشاعر . فقد كان النعمان تلميذا لعدى يروى شعره ويصغى الى نصائحه ووعظه ، مما
سند كر طرفا منه بعد (٤) .

وأبطل ملوك الحيرة في التنصر لسبب ، وهو أن الكاسرة الساسانية كانوا أعداء
النصارى الروم ، ولما كانت مملكة الحيرة في طاعة الكاسرة خافوا أن يدينوا للملة
تكرها الساسانية ؛ هذا ما كان من أمر الملوك ، أما الشعب فالنصارى فيه كثيرون ،

(١) ص ٥١ تاريخ آداب العرب نيكلسون ، ص ١٩٢ تاريخ العرب قبل الاسلام
جورجى زيدان .

(٢) ص ١٣٩ نيكلسون تاريخ آداب العرب .

(٣) ص ١٠٨ محاضرات جويدى في الجامعة المصرية القديمة .

(٤) ص ٤٥ - ٤٧ نيكلسون تاريخ آداب العرب ، ص ١٧١ ج ٢ ابن خلدون .

وكان في الحيرة أسقف منذ أوائل القرن الخامس الميلادي ، والكنايس والأديرة بها كثيرة ، منها كنيسة بنتها هند بنت الحارث كتبت اسمها في كتابة فوق الكنيسة .

وبموت النعمان الثالث أبي قابوس سنة (٦٠٢ أو ٦٠٧ م) ألغت الحكومة الفارسية نظام إمارة اللخمين ، وولت من قبلها حاكما فارسيا يخضع له أمراء العرب واستمرت الحال على ذلك حتى سنة (٦٢٢ م) حين فتحها خالد بن الوليد في عهد أبي بكر رضي الله عنه .

وأما نجران فهي أهم مواطن للنصرانية . وأكثر المؤرخين على أن أهل نجران قد حرقهم بالنار ذو نواس المتهود الشديد التعصب لليهودية حين دعاهم إلى دينه فأبوا إلا البقاء على دينهم المسيحية . وكان ملك ذي نواس في اليمن في أوائل القرن السادس للميلاد (١)

غير أن ما يرويه بعض المؤرخين من أن هؤلاء هم أصحاب الأخدود الذين نزل فيهم قوله تعالى (قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) غير سديد ومشكل . لأن المقصود من هذه السورة تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن إيذاء الكفار ، وتثيت قلوبهم وحملهم على الصبر والمجاهدة في سبيله ، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان . وهذا لا يكون إلا إذا كان من نزل بهم ذلك العذاب مؤمنين موحدين كما تنص عليه الآية . مع أنه ثابت أن أهل نجران كانوا على دين النصرانية وعلى مذهب اليعاقبة ، كما يفسر لنا ذلك إنجاد الحبشة لهم ، ومعاربتهم لليمن قصاصا من ذي نواس محرقهم .

ولحل هذا الإشكال يجيب الأستاذ الامام في تفسيره (جزء عم) بأن المؤمنين كانوا نصارى نجران عند ما كان دينهم دين توحيد ليس فيه حدث ولا بدعة .

(١) ص ١٠٤ جويدى محاضرات الجامعة المصرية القديمة ، ص ٣٦ مرجايوت كتاب محمد ص ٢٧ نيكلسون تاريخ آداب العرب ، ٤٢ ترجمة القرآن رودويل ، ص ١٧ مقدمة ترجمة القرآن نسيل

وهذا عندى لا يحل الاشكال ، لأنه من الروايات التاريخية - التى يكاد يكون جمعا عليها - أن أهل نجران حين حرقهم ذو نواس كانوا قد فسد دينهم وظهرت فيهم الاحداث والبدع التى دخلت على أهل دينهم بكل أرض (١) ، ولهذا ذهبوا يستجدون بقيصر الروم - لأنه على دينهم - من اليعقوبية فاعتذر قيصر لبعدا الشقة ، وكتب الى ملك الحبشة فى ذلك . هذا وقد كان بنجران بيعة تعرف بكعبة نجران بناها بنو عبد المدان على بناء الكعبة ، وعظموها مضاهاة للكعبة ، وكان فيها أساقفة . وهم الذين جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ودعاهم إلى المباهلة فى السنة التاسعة من الهجرة .

ومن يرجع إلى مناقشتهم النبي يعلم مبلغ تعصبهم لدينهم وتمسكهم بكفرهم . وليس بين هذه المناقشة وتلك الحادثة - حادثة اضطهاد ذى نواس لهم - أكثر من مئة سنة ، وبينها وبين تاريخ نزول السورة أقل من تسعين سنة .

والأفضل عندى هو ما أخرجه الترمذى ومسلم فى سبب نزول السورة . ومن أراد فليرجع اليه فى معجم البلدان لياقوت (فى كلمة نجران) . وفى الألوسى فى تفسير السورة وفى الروض الأنف للسبلى (ص ٣٤ ج ١) .

ومهما يكن من شئ . فإن النصرانية دامت فى نجران حتى ذهب وفدهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فى السنة التاسعة من الهجرة ، فصالحهم على الجزية (٢) ، ثم استمروا على دينهم إلى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأجلاهم عن نجران وذهب أكثرهم إلى العراق .

(٥) أما أثر النصرانية فى العرب قبل الاسلام فهو ضئيل من حيث العقيدة والبحوث اللاهوتية ؛ وذلك لأن الديانة المسيحية فى صورتها التى استمدتها من الفلسفة اليونانية عسير فهمها على العقل العربى ، صعب تمازجها بالذهن البدوى . يقول دوزى : « وكانت مسيحية ذلك العصر فى عمومها - بما تحويه من الخوارق والأسرار ، وما فيها من عقيدة التثليث ، وما يتصل بذلك من إله مصلوب -

(١) ص ٣٠ ابن هشام على هامش الروض الأنف و ٣٢ كذلك .

(٢) ص ٧٢ زاد المعاد ج ٥ على هامش شرح المواهب اللدنية . ٤١ ج ٤ شرح المواهب

قليلة الجاذبية، يعز أن تسود في شعب حسي كالشعب العربي (١).
ويقول مرجليوث بصدد ضعف أثر المسيحية في بلاد العرب: «من الحقائق المدهشة أن هؤلاء المسيحيين من الأعراب لهم قسوس ورهبان وكنائس وصوامع، وفيهم هراطقة ومبتدعون، ومع ذلك لم نستطع حتى الآن أن نستدل بما لدينا من المصادر على أن الكتب المقدسة أكانت بأيدي العرب مترجمة إلى لغتهم الأصلية المحلية، أم أن القساوسة اكتفوا بأن يكون لهم كتب دينية، ثم يأخذون في التعليم منها في لغة يفهمها الأعراب. والأرجح عندي هو الرأي الثاني» (٢).

أما الذي يمكن أن يشاهد من الأثر بوضوح ويلبس في جلاء، فهو تأثير فريق منهم بالرهبة، والميل إلى الزهد، وتذكر البعث والحساب والجنة والنار، والميل إلى النظر في الكون، والاعتبار بحوادثه؛ وقد كثر ذلك في شعرهم حتى ليحس القارئ وهو يقرأ شعراً لشاعر، كعدى بن زيد أو أمية بن أبي الصلت أو قس بن ساعدة أو الأعشى، أنه يسمع نغمت تعاليم المسيح عليه السلام من التزهيد في الدنيا والاستخفاف بنعيمها، والاحتراس من غرورها، وترقب الموت فيها. ولنكتف هنا بمثال واحد شعري لعدى بن زيد:

جاء في الأغاني (ج ٢ ص ١٣٤ طبع دار الكتب المصرية) أن النعمان بن المنذر خرج يتنزه بظهر الحيرة ومعه عدى بن زيد، فرأى المقابر من ظهر الحيرة ونهرها، فقال له عدى ابن زيد: أبيت اللعن. أتدري ما تقول هذه المقابر؟ قال: لا؛ فقال له: هي تقول:

أيها الركب المخبو ن على الأرض المجدون
كما أنتم كنا وكان نحن تكونون

ثم خرج خروجة أخرى فرأى تلك المقابر ومعه عدى؛ فقال له: أبيت اللعن أتدري ما تقول هذه المقابر؟ قال لا؛ قال: فإنها تقول:

من رأنا فليحدث نفسه أنه موف على قرن زوال
وصروف الدهر لا يبقى لها ولما تأتي به صم الجبال

(١) ص ١١٧ مقدمة التفسير للعلامة فريد وجدي

(٢) ص ٣٥ كتاب محمد.

رب ركب قد أناخوا عندنا يشربون الخمر بالماء الزلال
والأباريق عليها قدم وجياد الخيل تردى في الجلال
عمروا دهرأ بعيش حسن آمنى دهرهم غير عجال
ثم أضخوا عصف الدهر بهم وكذلك الدهر يودى بالرجال
وكذلك الدهر يرمى بالفتى فى طلاب العيش حالاً بعد حال

يقول فون كرامر والسير شارل ليال، وولھوسن، تعليقاً على هذه القطعة: « إن كثيراً من هذه الاحساسات الدينية لم تكن إسلامية فى نغمتها، وإن عباراتها التى صيغت فيها لم تكن إسلامية فى أصلها. وهذا أثر طبيعى -- ولو أنه ضئيل -- ونتيجة حتمية لانتشار اليهودية وبخاصة النصرانية (١) ».

على أن من أثر النصرانية أيضاً ظهور طبقة الموحدين الذين استنكروا عبادة الأوثان ونفروا من الخضوع للأصنام، كورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل وأمية بن أبى الصلت وقس بن ساعدة.

وهناك أثر بين فى الألفاظ والتراكيب لولا طول الكلام واستطراد البحث لسقنا أمثلة كثيرة، ولنكتف بالبعض، من ذلك: بيعة، واسقف، وقناديل، وصومعة، ودير، ورهبة، وغير ذلك.

(٦) بقيت لدينا مسألتان لهما اتصال وثيق بالنصرانية من الخير أن نبههما ونخرج على دراستهما.

المسألة الأولى — لماذا اختار النبي صلى الله عليه وسلم الحبشة مهاجراً لأصحابه فى الهجرة الأولى؟

والمسألة الثانية — ما السر فى تعليق صورة المسيح وأمه بالكعبة، وقد أنزلت عند دخوله صلى الله عليه وسلم مكة مع الصور الأخرى، مع أن مكة ليست مركزاً للنصرانية، ولا من البلاد التى عرفت فى التاريخ بانتشارها فيها؟

المسألة الأولى: عند ما اشتد عدوان المشركين على المستضعفين من أسلم بالأذى، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء وما

هو فيه من العافية لمكانه من الله وعمه أبي طالب قال لإصحابه : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لکم فرجا مما أنتم فيه . »

ولم يذكر أحد من كتاب السيرة حتى المحدثين علة هذا الاختيار ، ومن أين أتى للنبي صلى الله عليه وسلم حسن ظنه بالنجاشي . والسبب في رأينا هو :

أولاً - : أن النبي صلى الله عليه وسلم لا بد أن يكون بلغه عن ذلك الملك حديث عدل وأخبار إنصاف . ولكن كيف انتهى إليه ذلك وهو لم يسافر إلى الحبشة بل كل أسفاره كانت إلى الشام . فالمعقول أنه سمع ذلك من التجار الذين يذهبون ويحيثون بين مكة والحبشة ، إذ العلاقات التجارية بين البلدين وثيقة العرى متينة الأسباب . يدلنا على ذلك ما روى في ذيل الأمالى من ذهاب رؤساء قريش إلى الشام واليمن والحبشة وبلاد فارس ، لأخذ اليهود من ملوكها وتأمين السبل لتجار قريش . فليس يبعد أن يحمل هؤلاء معهم حديث صلاح النجاشي وحسن عدله ويسمعه النبي صلى الله عليه وسلم (١) .

ثانياً - أن بمكة نفرا من الموالى الأحباش ومن فر من جيش أبرهة وفلوله ، فلا يبعد أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع منهم ما حسن ظنه بالنجاشي ؛ فعن عائشة رضی الله عنها قالت : « أدركت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان الناس » (٢) .

وقد ورد أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم ورث عن أبيه مولى يسمى شقران ، وكان حبشيا ، وورث عن أمه أم أيمن بركة الحبشية حاضنته (٣) .

ثالثاً - لم يجعل الرسول مهاجرهم يثرب لأنه يعلم أن العلاقات التجارية بين مكة ويثرب أقوى منها في الحبشة ؛ فمن السهل إذن أن يتأثر اليهود والأوس والخزرج

(١) ص ٢٠٤ ذيل الأمالى للقالى ، ٢٩ روح الاسلام .

(٢) ص ٢٣٦ تفسير جزء عم للالوسى . ص ٦٨٤ الفخر الرازى ٤٦٠ و ٤٨ ابن هشام - ٩١٠١ الازرقى .

(٣) ص ٣٠٧ - ٣ شرح المواهب ، ٤٨ المعارف لابن قتيبة .

سكان يثرب بهذه العلاقة فلا يحمون أصحابه ولا يدافعون عنهم، كما صنع النجاشي برده هدايا قريش وتخييب آمالهم .

رابعا — كانت يثرب في السنة الخامسة ، وهي التي حدثت فيها هجرة الحبشة في هرج واضطراب ، وكانت ميدان حروب وقتال^١ .

خامسا — أن يهود يثرب أظهروا معاضدتهم لقريش على النبي صلى الله عليه وسلم وعداءهم وحسد لهم للإسلام عند ما أرسلت إليهم قريش يسألونهم رأيهم في الرسول، اذهم أعلم به منهم لأنهم أهل كتاب ، فكان جوابهم أسئلة ثلاثة ليجيب الرسول عنها ، وحدث ذلك قبل هجرة الحبشة فبانت أمارات الشر في وجوههم وبشائر اللؤم في طباعهم . (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) .

سادسا — لم تكن الهجرة إلى قوم آخرين من عرب قلب الجزيرة ، لهيبة قريش وسلطانهم وارتباطهم تجاريا ودينيا .

سابعا — لم تكن الهجرة إلى الحيرة ، لأنها كانت إذذاك خاضعة للفرس ، ودولة الفرس في ذلك الزمن في دور الانحلال والاضمحلال .

ثامنا — لم تكن الهجرة إلى الشام ، لأنها تابعة للروم ، والدولة الرومانية في ضعف واحتضار .

وبعد — فالحبشة إذا هي البلاد الفذة التي ملكها مستقل ، وله شهرة بالصلاح والعدل . وقد صدق ظن النبي صلى الله عليه وسلم في النجاشي ، وبرهنت الأيام على حسن اختياره وسمو عقله وسعة اطلاعه على ما يدور حوله ويكتنف بلاده . هذا في رأينا هو التعليل ، لا ما ذكره الدكتور هيكل في كتابه (حياة محمد) من أن نصرانية الحبشة قد اندس إليها من شوائب الخلاف ، مالا يخشى معه على أولئك المسلمين ، فقد كان هذا حال كل بلد فيها نصرانية .

المسألة الثانية : وهي وجود صورة عيسى وأمه في الكعبة ، فقد ذكر هذا الخبر الأزرقى والزرقانى والحلبى^(١) ونقله دوزى ومرجايوت في كتابيهما ،

(١) ص ١٠٤ و ١٠٦ ، ١٠٧ أخبار مكة ، ٣٣٦ > ٢ الزرقانى شرح المواهب اللدنية ، ص ٨٧ ج ٣ السيرة الحلبية .

وقد أغفل هذا الخبر في كتابه الدكتور هيكل ولم يدر سر هذا الاغفال مع أنه نقل شطره، وهو صورة إبراهيم الخليل يستقسم الأضلام. أما تعليل هذا الأمر فهو يسير وطبيعي، وذلك :

أن قريشا كانت أمة تجارية مغرقة في التجارة حتى قال بعض اللغويين : إنما سميت قريشاً من التقرش، والتقرش التجارة والا كتساب (١). حياتها قائمة على التجارة وما تربحه من زيارة الحجيج للبيت (ربنا إني أسكنت من ذرتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم. ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم).

فنظرتهم إلى الكعبة هي نظرة تجارية (٢). وفي وصية أبي طالب عند موته ما يفيد أنهم كانوا يعتبرون الكعبة سبيلاً لجلب الخير لهم، وعاملاً في أنماء ثروتهم (٣) فعاطفتهم الدينية ضعيفة، وتمسكهم بدينهم هو في الغالب تمسك المقلد لآبائه المحتفظ بمنبع يدر عليه الرزق الواسع والخير العميم؛ فعبادتهم للاصنام لتقربهم إلى الله زلنى (مانعدهم إلا ليقربونا إلى الله زلنى)، وهي فكرة تجارية أيضاً. ثم أليس في مقابلة عبدالمطلب لأبرهة، وطلبه منه ماله، وجعل همه هو تخليص بعرانه ما يؤيد هذا الرأي، ولذا دهش أبرهة لهذا الطلب وعجب من هذه الرغبة دهشة الرجل الذي لا يعدل بالاحساس الديني إحساساً. فقال أبرهة لعبد المطلب : «أتكلمني في مثنى بغير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ؟» (٤).

وأجلى مظهر لضعف العاطفة الدينية عندهم أنهم لم يكونوا على أمر جامع من عقائدهم، شأن الذين لا عراقه لهم في الدين، وليست لاصنامهم هيئة ممتازة تسيطر على عقائدهم وتمدهم بالتعاليم التي تذكي نار العاطفة في نفوسهم، بل كانت وثنياتهم وثنية ساذجة لا تتجاوز تقليد الآباء واتباع الأسلاف. قال تعالى :

(١) ص ٧٠ ابن هشام - ٦١ الأزرقي.

(٢) ص ٤٥ الاصنام لابن الكلبي.

(٣) ص ٣٢٨ ج ١ بلوغ الأرب.

(٤) ص ٤٤ ابن هشام، ٨٩ الأزرقي. والكشاف للزمخشري تفسير سورة الفيل.

« إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون .. » قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون .. » وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا .. »

لهذا كله كان في الكعبة وحولها جميع أصنام العرب التي كانوا يعبدونها ، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة وحول البيت (٣٦٠) صنما ، مع أن أصنام قريش - وهم سكان مكة وسدنة البيت وزعماء التجارة - فيها لا تعدو أصابع اليد وأعظمها (هُبَا) (١)

ولكنهم سمحوا بتعليق كل هذه الأصنام لأن الكعبة ليست لهم وحدهم . بل هي بيت الأمة العربية جمعاء ؛ فلا بد من البحث عما يرضى كل قبيل في الأمة وإلا غاض رزقهم . وخسرت تجارتهم .

ذكر الأزرقى أنه كان يدفع لسادن (هبل) مئة درهم ومئة جزور ليضرب قداحه ويستقسم بأزلامه (٢) ، فالكعبة إذن كانت في نظرهم بمنزلة (البنتيون Pantheon) عند قدماء اليونان ، فهي مجمع آلهتهم ، وهيكل أربابهم . (٣) فلا غرابة إذن إذا كنا نرى صورة المسيح عليه السلام وأمه في الكعبة ، طلبا لرضا القبائل المنتصرة . والبطون المسيحية كالغساسنة واللخميون وغيرهم . وهذه النظرة إلى قريش تفسر لنا كثرة وزود كلمة التجارة والبيع والشراء في القرآن في أكثر من موضع .

قال تعالى في تصوير المثل الأعلى للرجال المخلصين لدينهم ، الحراس على رضا ربهم : « في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » . وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) .

(١) ص ٢٧ إلى ٢٩ الأصنام للكلبي .

(٢) ص ٦٨ و ٦٩ اخبار مكة للأزرقى .

(٣) ص ٣٩ سديو .

وقد لازمت هذه الصفة أهل مكة حتى بعد هجرتهم إلى المدينة . قال تعالى :
(وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما) . وقال تعالى : (قل إن كان
آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة
تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله
فتربصوا حتى يأتي الله بأمره) هذا ما استطعنا أن نتحدث به عن النصرانية في
بلاد العرب . وموعدنا إن شاء الله العدد القادم : اليهودية في بلاد العرب .

عبر الوهاب صموده

— ١ —

* شكّا رجل إلى قاض من قضاة المسلمين ، فقال له : إن لي جيرانا يسرقون
إوزي . فنادى القاضي : الصلاة جامعة ، ثم خطبهم فقال في خطبته : وأحدكم
يسرق إوز جاره ، ثم يدخل المسجد والريش على رأسه . فمسح رجل رأسه . فقال
القاضي : خذوه فانه صاحبكم .

— ٢ —

* قال معاوية لعبد الله بن عامر . إن لي اليك حاجة أنقضها ؟ قال : نعم ، ولي
اليك حاجة أتمضيها ؟ قال : نعم ، قال : سل حاجتك ؛ قال : أريد أن تهَب لي دورك
وضياعك بالطائف ؛ قال : قد فعلت ، قال : وصَلتْك رحم ، فسل حاجتك ،
قال : أن تردّها علي ؛ قال : قد فعلت .

* هاتان الطرقتان وغيرهما مما ستره القراء في هذا العدد من نسخة مخطوطة من كتاب الطراف
والتماجين لابن الجوزي — اختارها الأستاذان : ابراهيم الأبياري ، وعبد الحفيظ شلي .

حول إعجاز القرآن



الفاصلة وبداعة الأسلوب

للأستاذ السباعي السباعي ييومي

المدرس بدار العلوم

ما الفاصلة؟ تكلمت العرب الشعر والنثر فجاء في شعرها الرجز والقصيد، وفي نثرها المسجوع والمزدوج والمنثور؛ وبدهى أن القرآن جاء نثراً لا شعراً، ولكنه لم ينضو تحت أقسام النثر السالفة لا مجموعة ولا فرادى، فما هو باللفظ المنثور يرسل كله إرسالاً خالياً من كل قيد يراه القارىء. ويلحظه السامع في التقفية والوزن؛ ولا هو بالمتزاج الجمال والعبارات بحيث ترى كل اثنتين منهما أو أكثر، على خلوهما من التقفية، متعادلتين تقريباً في الأقيسة والموازن، كما أنه ليس بذى التقفية التي تراها في الأسجاع؛ إنما هو كلام أحكمه الله ثم فصله آيات كما قال جل شأنه: «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» فجاء آيات متلاحقات تختتم في كل سورة غالباً بمقاطع متشابهات ذات إيدان بالانتهاء، دون أن تتقيد بحرفية السجع أو موازنة الازدواج، ودون أن تخلو كل الخلو من مظاهر التقيد، فلم يقبل لذلك أن يطلق عليه اسم من تلكم الأسماء، وعرف وحده باسم المفصل أخذاً من الفاصلة، التي هي مقطع الآية فيه، كالقرينة في السجع والقافية في الشعر. نعم قد جاء فيه شبه المتزاج والمسجوع، وكان يصح أن يسمى بهما لولا أنه قد خرج في كثير منهما بالطول خروجاً لم تك تألفه العرب فيهما، وتقرب بذلك من التفصيل الذي وسع الطويل ولم يأب القصير، فقصرت التسمية في القرآن عليه دون المعروف من أقسام المنثور كما تعارف العلماء.

اتصال الفاصلة بمعنى آيتها - ولقد كان القرآن يمهّد للفاصلة بمعنى آيتها تمهيداً تقع به مستقرة في مقرها ، وتأتي متعلقاً معنى الكلام بمدلولها . انظر قوله تعالى : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، كيف وقع اللطيف ، كالعلة لصدر الآية ، « والخبير ، كالعلة لعجزها . وانظر قوله على لسان قوم شعيب لشعيب : « قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لانت الحليم الرشيد » كيف جاءت الفاصلة على سبيل التهمك ، من الحلم المناسب لترك معبوداتهم ، والرشد الملائم لما تلا ذلك من عدم التصرف في أقوالهم . وكذا قوله تعالى : « أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون » فإنه ختم الآية الأولى بالسمع المعنوي ، لأنها معنوية ليس فيها ما يحس . وختم الثانية بالأبصار الحسي لأنها من مشاهدات الحس .

ارشاد الآية الى فاصلتها - ولوثاقة العلاقة بين معنى الآية والفاصلة كانت الآية ترشد إلى فاصلتها كل ذي قلب مفكر ، ولسان معبر . قال زيد بن ثابت : أُملي علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر » فعند ذلك قال معاذ بن جبل : « فتبارك الله أحسن الخالقين ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال له معاذ : لم ضحكت يا رسول الله ؟ قال : بها ختمت . وكانت الفاصلة لذلك إذا غيرت أمام من تلك صفته ، ولو لم يك حافظاً للقرآن أنى ذلك التغيير على محدثه . روى أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ : « فان زلّتم من بعد ما جاءكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم » ولكنه جعل الفاصلة « غفور رحيم » ولم يك الأعرابي يحفظ القرآن ؛ فقال : أما إن كان هذا كلام الله فلا ، إن الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل بعد البينات ، لأنه إغراء عليه .

اختلفت الفاصلة باختلفت اللفاظ أو السياج - ومن الفواصل
 ما كانت تختلف لتغير لفظة واحدة في آيتين ، قال الله تعالى : « وما هو بقول شاعر
 قليلا ما تؤمنون . ولا يقول كاهن قليلا ما تذكرون » . فجعلها بعد الشعر من الايمان
 لأن مخالفة القرآن له ، تدعو إلى سرعة التصديق . وبعد قول الكاهن من التذكير ،
 لأن مخالفة القرآن له تدعو - لوجود المشابهة ظاهرة - إلى بعض التدبر والتفكير . بل
 كانت تختلف الفاصلة في الآية الواحدة تأتي في موضعين لاعتبارين . قال تعالى في
 سورة إبراهيم : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار » ، وقال في
 سورة النحل : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم » . فأتى بها في
 الآية الأولى من صفات المنعم عليه ، وفي الثانية من صفات المنعم ، وكلتاها مناسبة
 للآية في ذاتها لأنها متعلقة بالله والانسان ؛ ولكن الحديث في سورة ابراهيم كان
 مسوقا قبلها في صفات الناس وعدم شكرهم على تعدد نعم الله ، ولذلك يقول :
 « وآتاكم من كل ما سألتموه » ، فأتى بها من الظلم والكفر المناسبين للسياق من
 صفات الانسان . وفي النحل كان الحديث في ذكر صفات الله ، ألا تراه قبل الآية
 يقول : « أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون » ، فأتى بها من المغفرة والرحمة ، وهما
 من صفات الله الملائمة لما تعودته سبحانه إزاء طغيان الانسان من الكرم
 والغفران . ومن هذا النوع ما جاء في ثلاثة مواضع كقوله تعالى في سورة المائدة :
 « ومن لم يحكم بما أنزل الله » . فقد ختمها بثلاث فواصل في ثلاثة مواضع هي قوله :
 « فأولئك هم الكافرون » ، وقوله : « فأولئك هم الظالمون » ، وقوله : « فأولئك هم الفاسقون » .
 وذلك لأنه يقصد في الأولى من جحد ما أنزل الله وهم الكافرون . وفي الثانية
 من خالف ما أنزل عن علم وهم الظالمون ، وفي الثالثة من خالفه عن جهل وهم
 الفاسقون . ولذلك كانت الفاصلة تتحد في الآيتين متى بقيت المناسبة . كما في آتي
 الاستئذان بسورة النور وهما : « يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت
 أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين
 تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس
 عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم » بعضكم على بعض ، كذلك بين الله

لكم آياته والله عليم حكيم وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . فالفاصلة فيهما واحدة إلا أنه أضاف الآيات في الأولى إلى ضميره سبحانه ، وفي الثانية أناب عن هذا الضمير (أل) اعتمادا على سبقه إياها .

جى ، بعضه الفواصل على غير مقتضى الظاهر — وقد يفيد ظاهر الفاصلة عدم ملامتها للآية ، ولكن تدبرا قليلا في المعنى يدفع هذا الظاهر ويكشف عن ملاممة وثيقة الصلة شديدة الارتباط ، من ذلك مثلا قوله تعالى على لسان عيسى عن قومه : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » ، فان قوله : « وإن تغفر لهم » يقتضى ظاهره مجيء الفاصلة من الغفران ، غير أن من يعلم أنه لا يغفر لمستحق العذاب في نظر الناس إلا ذو العزة الذى ليس فوقه عزيز ، وهو الله . ثم يعلم مع ذلك أن الله يرى إذا فعل هذا مالا يرى الخلق من حكمة يجهلونها ، لا يتردد في أمر الفاصلة تأتي من العزة والحكمة كما أتت من المغفرة والرحمة كما اقتضى ظاهرها . وآيات هذا النوع كثيرة وكل واحدة منها توصى لمن يتدبرها أنها بفاصلتها ، وفاصلتها بها ، أحق وأولى من غيرها .

هداية الآية الى فواصلها باللفظ مع المعنى — وفي القرآن فواصل كثيرة كانت الآية تمهد لها فوق تمهيد المعنى بالالفاظ نفسها أو بلازم معنى الالفاظ ، فمن النوع الأول ما توافق فيه الفاصلة أول الآية ، ويسمى رد العجز على الصدر كقوله تعالى : « وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » . ومنه ما توافق فيه آخرها كقوله : « أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا » . ومنه ما توافق فيه الوسط كقوله : « قال لهم موسى ويلكم لا تغفروا على الله كذبا فيسحقكم بعذاب وقد خاب من افتري » . والنوع الثانى كثير ، ومنه قوله تعالى : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون » ، فان أسلاخ النهار من الليل يستلزم الظلمة ولذا جاءت الفاصلة منها .

التصرف للفاصلة مع المحافظة على المعنى - ولقد تصرف القرآن في تهية التراكيب للفاصلة تصرفا واسعا المدى، وكان مع ذلك محتفظا أيما احتفاظ بتبعية اللفظ للمعنى، بل كثيرا ما آتاه هذا التصرف مآرب أخرى، وهذا شيء امتاز به على سائر الكلام.

فمن ذلك تقديم المفعول على العامل في قوله تعالى: «أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون»، وقوله «إياك نعبد وإياك نستعين»، والمزية الزائدة هنا فوق تحقيق الفاصلة بهذا التقديم إفادة التخصيص والحصص.

ومنه إيراد الجملة اسمية لافعلية في قوله تعالى: «ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين». ولا تخفى مزية الاسم على الفعلية في نفى الإيمان عنهم هنا، وبخاصة الفعلية الماضية التي كانت يقتضيها ظاهر السياق مشاكلة لأول الآية.

ومنه إثارة المفرد على الجملة كما في قوله تعالى «وليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين». واسم الفاعل هنا له على الماضي فضل الاستمرار والثبوت. ومنه الاتيان بالظاهر بدلا من الضمير كما في قوله: «والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين»، والفضل الزائد هنا بمجيء الظاهر تعريفنا من المصلحون في نظر الدين.

ومنه الاتيان بصيغة الفاعل مكان صيغة المفعول في قوله تعالى: «من ماء دافق». وفي إسناد التدفق الى الماء نفسه دلالة على أن قوة الدفق من طبيعته. ومنه عكس ذلك كما في قوله تعالى: «حجابا مستورا». ولأن يتناول الستر الحجاب نفسه مع المستور خلفه أبلغ في قوة الستر واختفاء المستور.

ومنه حذف المفعول كما في قوله تعالى: «فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى». وفيه بيان أن المراد مطلق الاتصاف بالاعطاء والاتقاء لا بيان المعطى والمتقى. ومنه الاتيان بهاء السكت في قوله تعالى: «ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه». وفيه تحقيق فوق الفاصلة بمشاكلة تاءات التأنيث قبل مد هذا المتفجع النادب بما يتناسب في الإيقاع مع حال المتأوه المفجوع.

ومنه غير ذلك كثير مما تظهر فيه مع تحقيق الفاصلة مزية جديدة على نحو ما ذكرنا، فإذا لم تظهر لأفهامنا تلك المزية وقد تكون خافية علينا، فلا أقل من ألا نجد لما لم يحقق الفاصلة فضلا ما على ما يحققها، وإذن يكون لما يحققها فضل هذا التحقيق.

ومن ذلك تذكير الصفة أو تأنيثها سواء أ كانت هي الفاصلة كما في قوله تعالى : « أعجاز نخل منقعر » أو قوله : « أعجاز نخل خاوية » . أم مبهمة للفاصلة كما في قوله : « وكل صغير وكبير مستطر » وقوله : « لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » ومنه مجيء صيغة مكان أخرى كما في قوله تعالى : « إن هذا شيء عجاب » بدلا من عجيب ؛ أو مراد في مكان آخر كما في قوله : « سأصليه سقر » بدلا من لظى مثلا، أو حركة مكان غيرها كما في قوله : « فأولئك تحروا رشدا » إيثارا لفتح الشين هنا على سكونها في « رشدا » وهكذا .

التناظر بين فاصلة وفاصلة — ولقد راعى القرآن الكريم في معظم فواصله انتهاء الكلمات الأخيرة فيها بحروف المد واللين أو هاء السكت لأنها تمكن القارئ من الترنم والترتيل ، كما راعى في حروف هذه الكلمات وأوزانها بين كل فاصلتين أو أكثر التماثل أو التقارب ، وافتن في ذلك افتنانا بعيدا بديعا . فكان من ذلك الفاصلتان المتفتقتان الآخر وزنا لا تقفية ، مع مقابلة غير تامة فيما قبله كما في قوله تعالى : « يوم يكون للناس كالفراس المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش » ومع مقابلة تامة كما في قوله : « وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم » .

والفاصلتان المتفتقتان تقفية لا وزنا مع مقابلة غير تامة كما في قوله ، لإلحيا وغساقا جزاء وفاقا . ومع مقابلة تامة كما في قوله : « والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس » والفاصلتان المتفتقتان وزنا وتقفية مع مقابلة غير تامة كما في قوله : « فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة » . ومع مقابلة تامة وهو كثير كما في قوله : « إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم » وقوله : « إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم » .

ومن الفواصل ما كانت تجمع فوق اتحاد الحرف الأخير اتحاد حرف أو اثنين أو ثلاثة قبله غيره ، ومع ذلك لا يشعر القارئ بشيء من التكلف مطلقاً بل لا يكاد يشعر أن هنالك اتحاداً . مثال الحرف قوله : « فاما اليتيم فلا تقهر » وأما السائل فلا تنهر ، وقوله : « ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك » ، ومثال الحرفين قوله : « والطور وكتاب مسطور » ، وقوله : « ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجراً غير ممنون » . ومثال الثلاثة قوله : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون وإخوانهم يمدونهم في الغنى ثم لا يقصرون » . وبهذا وقع الاتحاد في حرفين وثلاثة وأربعة .

هذا بعض ما أردنا إثباته عن الفاصلة في القرآن وهي ناحية فريدة بذ فيها كلام العرب ، فكانت أدل شيء على بدع الأسلوب وقوة الإعجاز ، على أنه بذهم في كل ناحية أخرى مما يتفاضل فيه الكلام ، فبذهم في الفصاحة ومهداتها ودرجاتها ، كما بذهم في البلاغة على تعدد ألوانها . وإن لنا لجولات في ذلك إن شاء الله تعالى .

السباعى السباعى يرمى

٣

سئل العباس : أنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : هو أكبر منى وأنا ولدت قبله .

٤

كان بين يدي معاوية ثريد كثير السمن ورجل يؤا كاه فخرقه إليه ؛ فقال له معاوية : أخرقتها اتغرق أهلها ؟ فقال : سقناه إلى بلد ميت .

اتجاهات الأدب وأهم حواضره في العصر العباسي

لأستاذ محمود البسيبي

المدرس بدار العلوم

١

إن الأدباء كسائر الناس يسعون للحياة ، وأروج سلعهم الأدب يعرضونه ، ويتوفرون عليه حيث ينأ لهم العيش ، وتحوطهم رعاية الخلفاء ومن إليهم من الأمراء والعظماء ، فليس عجباً أن يتحول الأدب إلى حيث تستقر السيادة ، وأن يؤم الأدباء حواضر الملك ، ويتزاحموا على أندية الخلافة ، ودور الأمانة ما وجدوا لبضاعتهن نفاقاً ، ولآدابهم تقديراً :

تسقط الطير حيث ينتثر الحب وتغشى منازل الكرماء

البصرة والكوفة^(١) -- قامت الدولة العباسية وقد كانت حواضر الثقافة

العربية منتشرة في أنحاء الدولة العربية ، وكانت ألوية الزعامة الأدبية معقودة للبصرة والكوفة ، وفيهما أثمرت قرائح العلماء ، وأينعت رياض الأدب ، واشتهرت مدرستاها ومهدتا طريق العلوم الدينية واللسانية ، وكان لرجالهما الصيت الذائع ، والأثر البالغ في خدمة اللغة وإنضاج علومها ، وطالما احتدم الجدل بين فرسان هاتين الحلبتين ، وكانت البصرة لوقوعها بجانب (المريد) عكاظ الإسلام ، وقربها من البادية تعتمد على الرواية ، ولا تميل إلى الأخذ بالقياس إلا حين يعوزها السماع ، وعلى العكس من ذلك كانت الكوفة لبعدها عن البادية تنجح إلى القياس ، وتؤثره كثيراً على السماع ، وكان الخلفاء العباسيون بشجعون علماء الكوفة ، ويؤثرون آراءهم لأنهم شيعتهم وأقرب إليهم من أهل البصرة ، ولأن البيعة تمت لآل العباس

(١) روى (ياقوت) في معجم البلدان أن تمصير البصرة كان سنة ١٤ هـ قبل الكوفة بستة أشهر .

بالكوفة، ولقد كان لعلماء المصرين أثر ظاهر في قواعد النحو والصرف ألف العلماء فيه كتباً واسعة، ومن أجمع هذه الكتب كتاب «الاشباه والنظائر» لجلال الدين السيوطي الذي أحصى مسائل الخلاف في مائة مسألة وثلثين، وقد سبقه إلى التأليف في هذا الموضوع كمال الدين الأنباري المتوفى سنة ٥٧٧ هـ في كتابه «الإنصاف في مسائل الخلاف» وتلك المسائل مشهورة مذكورة في أمهات كتب اللغة والنحو والصرف وإليك بعضاً منها : —

(١) يرى البصريون أن الفعل مشتق من المصدر، ويذهب الكوفيون إلى أن المصدر مشتق من الفعل .

(٢) يمنع البصريون أن يجمع نحو طلحة بالواو والنون، ويحيز الكوفيون ذلك فيقولون (طلحون) رفعا، و (طلحين) نصبا وجرا .

(٣) نعم وبشر فملان جامدان عند البصريين واسمان عند الكوفيين .

(٤) إذا وقع المصدر نعتاً نحو (هذا رجل عدل) فالبصريون لا يؤولون المصدر بل يعتبرون الكلام من قبيل المبالغة حتى كأن الرجل هو العدل نفسه، وأما الكوفيون فيؤولونه بالمشتق فكان الكلام (هذا رجل عادل) .
ولكل من الفريقين أدلته المبسوطة في مظانها، على أنه من الثابت أن البصرة أسبق اشتغالا بعلم النحو من الكوفة .

وقد نبغ في البصرة والكوفة أكثر الأدباء والرواة، وبناء النهضة في العلوم الشرعية واللسانية، وحسب (البصرة) أن يكون من علمائها نابغة العرب : (الخليل بن أحمد) واضع العروض، و (سيويه) شيخ النحاة وصاحب (الكتاب) الذي وضعه في النحو ولم يسبق بمثله، والذي اشتهر أمره بين العلماء في القديم والحديث حتى إذا قيل (قرأ فلان الكتاب) كان المعنى كتاب سيويه وكان (المبرد) إذا طلب منه أحد أن يقرأ عليه (الكتاب) يقول له : (هل ركبك البحر ١٩) تعظيماً لأمر الكتاب وتبياناً لفضله .

وحسب (الكوفة) أن يكون من علمائها شيخ الفقهاء الإمام (أبو حنيفة النعمان) وإماما اللغة الجليلان : علي بن حمزة (الكسائي) . وأبو زكريا (الفراء)

وهما اللذان قال فيهما أبو بكر الأنباري : « لو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من علماء العربية إلا الكسائي والقراء لكان لهم بهما الافتخار على جميع الناس » .
ولقد كان بين مدرستي البصرة والكوفة تحاسد وتنافس شديد وكانت كل منهما تحاول أن تظهر على الأخرى . فتقوم بينهما حروب جدلية طويلة ، تخرج منها اللغة ظافرة على كل حال ، ويحدثنا التاريخ عن كثير من مظاهر هذه المنافسة ، وفي كثير منها طرافة ونوع من اللذة الروحية . وإليك بعض هذه المظاهر :

(١) روى أن سيويه والكسائي اجتمعا في مجلس (يحيى بن خالد) وتناظرا فسأل الكسائي سيويه : ما تقول في قول العرب :
كنت أظن العقب أشد لسعة من الزبور فإذا هو هي (أو) فإذا هو إياها ، ؟ فقال سيويه :

(فإذا هو هي ، ولا يجوز النصب) ، فقال الكسائي : العرب ترفع الضمير وتنصبه . (أي تقول فإذا هو هي (و) فإذا هو إياها) ثم اتفق الطرفان على أن يتحاكما إلى الأعراب ، وكان بعضهم يباب (يحيى) فسئلوا فوافقوا الكسائي ، واستكان سيويه ، على أن الكسائي ترفع سيويه واستعطف له (يحيى بن خالد) وقال له : (وقد عليك مؤملا فلا ترده خائباً) فأعطاه (يحيى) عشرة آلاف درهم ولم يمر علماء البصرة بهذه المسألة بلا معارضة ؛ وقد التمس النحاة لجواز النصب وجوها شتى تراها مبسوبة في كتاب المغني لابن هشام .

(٢) روى أن (بشار بن برد) البصري . شهد مجلس الخليفة (المهدي) وهو حافل بالشعراء ، ومنهم . أشجع السلمي وأبو العتاهية ، فسمع (بشار) كلام أبي العتاهية ، فقال لأشجع : يا أخا سليم أهذا ذلك الكوفي الملقب ؟ قال نعم ، قال بشار لاجزى الله خيراً من جمعنا معه ، ثم قام أبو العتاهية ينشد الخليفة قصيدته التي مطلعها :

ألا ما لسيدتي مالها أدلاً فأحمل إدلالها ؟

وإلا فقيم تجنت وما جنيت ؟ سقى الله أطلالها

فاسترذلها (بشار) ثم اندفع أبو العتاهية في انشاده حتى قال :

أتمه الخلافة منقاداً إليه تجرّر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره لزلزلت الأرض زلزالها
ولو لم تطعه بنات القلوب لما قبل الله أعمالها

فمنالملك لم يطق (بشار) صبرا على كُتْم إعجابه وحسده، فقال لمن بجانبه :
أتري أمير المؤمنين لم يطر عن فراشه طربا لما يأتي به هذا الكوفي ؟! وهكذا ظل
المصران العظيمان يتنافسان في خدمة الأدب ، ويتباريان في انضاج علوم اللغة ،
وظلت لهما الزعامة على سائر الخواضر الأدبية . حتى نبّه شأن (بغداد) وهبت
أعاصير فتى الزنج والقرامطة الذين عاثوا في الأرض فسادا ، بما خربوا ودمروا
وبما نشروا من أباطيل ، فجلا من بقى من المصرين إلى (دار السلام) .

المدينة المنورة والفسطاط — ولقد كان إلى جانب مدرستي البصرة والكوفة
في أوائل العصر العباسي مدرستا المدينة المنورة والفسطاط بمصر ، وكان لكل
منهما شأن ، في خدمة اللغة ونشر العلوم الدينية والأدبية ، وما زال التاريخ يعرف
لهما ذلك الفضل كلما ذكر من علماء الحجاز (مالك بن أنس) فقيه الحجاز ، وإمام
دار الهجرة ، وصاحب الموطأ ، وحجة الله في أرضه ، أو عرّض لأخبار (أبي تمام)
الناشئ في جامع عمرو بالفسطاط ، أو تحدث عن عالم قريش وحبرها (الامام
محمد بن إدريس الشافعي) الذي أتى بمصر عصا التسيار ، وأملى في جامعها مذهب
الجديد . أو الامام (الليث بن سعد) صاحب الامام مالك . أو العلامة (أبي يعقوب
يوسف بن يحيى المصرى البُوَيْطِيُّ) الذي أجّله الامام الشافعي ، واستخلفه على
التدريس والفتيا الى غير أولئك من الأفاضل الأعلام .

بغداد^(١) — أما (دار السلام) فحدث عنها ولا حرج . فقد انتقلت الزعامة
الأدبية إليها بعد المصرين ، واضطلعت بأعباء ثقافته ، وازدانت بأبهة الخلافة ،

(١) اختطها أبو العباس السفاح قرب الكوفة سنة ١٤٥ هـ ونزلها سنة ١٤٩ هـ
ومصرها وجعلها مدينة (أبو جعفر المنصور) - معجم البلدان لياقوت .

وحفلت بالعلم والعلماء ، وزخرت بالأدب والآداب ، وأصبحت ملتقى الأجناس والثقافات ، ومجتمع العلوم والحضارات ، ثم امتزجت في مكنتها وأنديتها ومدارسها ، ثقافة العرب بثقافات الفرس واليونان والسيريان والرومان والهند والصين ، وفي رعاية خلفائها وأمرائها التقت الحضارتان السامية والآرية ، واطردت النهضة الأدبية والعلمية ، حتى تألق نورها ، فعم أرجاء الدولة العربية ، وحسب هذه النهضة أن يكون مذكي ناراها (أبا جعفر المنصور) ذلك الخليفة الذي كان واحد عصره علما وفقها ، وكان على حرصه لا يرضى بشيء من المال في سبيل العلم . وحسبك أن تعرف أن (الرشيد) ألحق بكل مسجد في بغداد مدرسة لتعليم العلوم المختلفة ؛ وحرص على أن يكون مجلسه حافلا بالآداب والعلماء ، حتى إذا ما أراد الحج صحبه منهم مائة عالم .

ولقد تشعب بنا مناهج القول إذا ما حاولنا أن نلم في هذه العجالة بكل مظاهر الحياة الاجتماعية والأدبية والعلمية في (دار السلام) ، فحسبنا أن نوجه النظر إلى (دار الحكمة) التي أنشأها (المأمون) ، وحشد إليها أئمة اللغة ، وقادة الفكر من أقطار البلاد ، وجمع فيها ما ألف في العلم والأدب لذلك العهد ، من كتب عربية أو يونانية ، وأجاز على ترجمة الكتاب النفيس إلى العربية بوزنه ذهباً ، واتخذ من (دار الحكمة) ندوة علمية أدبية ، وأشرف بنفسه على بحوثها ، وشارك العلماء فيها ، حتى قامت بالنصيب الأوفر في ترجمة العلوم إلى اللغة العربية ، وقد روى التاريخ أنه كان من شروط صاحب (المأمون) مع (ميشيل الثالث) ملك الروم أن يأخذ المسلمون مكتبة من مكنتات (الآستانة) ، وليس بعد هذا عناية بالعلم واهتمام بنشره ، فليس عجباً أن تكون (بغداد) في عهد (الرشيد والمأمون) مثابة للعلم ، وماجاً للآداب ، وندوة للبحث ، ومجالاً للمناظرة ، يقصدها كل أديب أو عالم من مشارق الأرض ومغاربها ، فيجد فيها قادة الأدب ضالته ، ورادة العلم غايتهم ، والحق أنه قد أتيت (لبغداد) كل أسباب المجد ، فوقعها وسط بلاد الدولة جمعاً ملتقى كل مشرق ومغرب من الأجناس المختلفة . وأرباب البيان وقادة العلم ، وصيرها مجتمع الحضارات التي يغذى بعضها بعضاً ، واجتذب إليها أئمة اللغة من أطراف الدولة ، ومراكز الثقافة الإسلامية كالبلصرة والكوفة

والمدينة المنورة وغيرها ، وقيام الخلافة بين ربوعها ، جعلها مهبط الوفود ، ومقصد كل ذي حاجة ؛ ووجود الخلفاء الأماجد (كالنصور وأولاده وأحفاده) أذكى فيها شعلة العلم والعرفان ، وغدّى بين جنباتها رياض العلوم من قديمة وحديثة إسلامية كانت أو دخيلة ، وساعد على كل ذلك ما قام بهامن بيوت الإمارة والعلم والأدب ، تلك التي تعاونت مع دور الخلافة على إنهاض المعارف ، وتقوية الحركة العلمية ، وماظنك بالبرامكة ومنهم أهل البيان ، وفحول البلاغة ؟ ! بل ماظنك بآل (وهب) وهم قرّة عين الأدب وواسطة عقد الزمان ؟ وإذا أغفلنا هنا الإفاضة في شأن البرامكة فما ذلك إلا لاستفاضة أخبارهم . ونباهة شأنهم حتى لا يحتاج أمرهم إلى إطناب وفضلهم إلى أطراء ، ويكفي أن يكون منهم شيوخ الكتاب وأساطين الوزارة يحيى بن خالد . وولده (جعفر والفضل) ومهما تكن أسباب نكبتهم ، فإن لهم فضلا على العلم والأدب ، لا يستطيع انكاره الزمان . ونحن هنا إنما ننظر إليهم من ناحية الأدب لا من ناحية السياسة ، فحسبنا في شأن البرامكة ما تقدم ، ولكننا نرى لزما أن نتوبّال (وهب) فلقد كانت الكتابة والأدب من المزايا العريقة في هذا البيت ، كتب أفراده للخلفاء الأمويين من لدن معاوية ، ثم كتبوا لبنى العباس فخدموا المنصور والمهدي وآل برمك والفضل بن سهل (ذا الرياستين) ، وهو الذي يقول (عجبت لمن كان معه وهب كيف تهمة نفسه !) ولما مات (وهب بن سعيد) في إحدى سفراته ، كان ولده (الحسن وسليمان) في كفالة ثقة سرى من أهل (واسط) يتحرف بالجزارة وكان لهما مال خلفه أبوهما ، فأراد الوصى أن يسلك بهما ما يحبّان من سبل الحياة ، وخيّرهما بين أن يشتري لهما ضياعا وأن يعلمهما الجزارة ، ولكن طموحا إلى المجد أنطقهما بما بهره وأعجبه ، فقلا : مالنا ولحرف العوام ؟ ! إنما صناعتنا جزر أعناق الرجال في القرايطيس (يريدان الكتابة) ، فضمهما إلى من يؤدبهما ، ثم رأيا أن (واسط) لا تقوم بما يؤملان من علم ومنزلة فجهزهما إلى (بغداد) فنبه فيها شأنهما ، واتصلا بالمأمون ، وكتبا معاً في ديوان الرسائل عنده . وما زال أمرهما في صعود حتى أدركا ما تطلعا إليه ، فوزر (سليمان) للمهتدي . ثم للمعتصم على الله . وكتب (الحسن) لمحمد ابن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والوائق والمتوكل .

وكان (سليمان والحسن) من أقدر كتاب الرسائل، ومن أعيان عصرهما علما وأدبا، وكرما وتبلا وقد سمح لها أدبها ومكانهما في الدولة أن يبسطا يد الجود والنوال، ويمهدا سبل الرخاء أمام كثير من الأدباء والشعراء.. فكانا من دعائم الأدب في ذلك الزمان، وحسبك دليلا على ذلك أن يكون من مداحهما (أبو تمام والبحترى) ومن في طبقتهما من الشعراء :

هذا أبو تمام يقول في سليمان بن وهب :

كل شِعْبٍ كنتم به آل وهب فهو شِعْبِي وشِعْب كل أديب
إن قلبي لكم كالكدب الحر ي وقلبي لغيركم كالقلوب
وهذا أبو عباد (البحترى) يقول فيه :

كأن آراءه والحزم يتبعها تُريه كل خفي وهو إعلان
ما غاب عن عينه فالقلب يكلؤه وإن تم عينه فالقلب يقظان
وروى أن (ابن يزيد بن محمد المهلبى) وفد على (سليمان) في وزارته، وأنشد :
وهبتم لنا يا آل وهب مودة فأبقت لنا مالا ومجداً يؤثّل
فمن كان للآثام والذل أرضه فأرضكم للأجر والعز موثّل
رأى الناس فوق المجد مقدار فضلكم فقد سألوكم فوق ما كان يسأل
يُقَصِّر عن مسعاتكم كل آخر وما فاتكم ممن تقدم أول
فقطع عليه سليمان إنشاده وقال : لا تقل ذلك . أصلحك الله ، إنما أنت عندى كما قال عمار بن عقيل :

أفقه مسروراً إذا أت سالم وأبكى من الأشواق حين تغيب
ثم قضى جميع حاجاته ، وقال لو لم أفد بما نالنى من أمير المؤمنين إلا شكرك
لرأيت بذلك جنابى مُمرعاً وزرعى مُرتعاً ؛ كان الحسن وسليمان أريحين يهتزان
للندى ، كما كانا أديبين ؛ فليسليمان ديوان رسائل ، وللحسن شعر حسن ، وكلاهما
كاتب بليغ مترسل ، ومن شعر الحسن في رثاء أبى تمام :

سقى بالموصل القبر الغريب سحائب ينتحبن له نحيا
فإن تراب ذاك القبر يحوى حيبا كان يدعى لى حيبا

ومحمود البشيشى ،

(يتبع)

فردريك شولتهس وأمية بن أبي الصلت

الدكتور محمد هاشم عطية

المدرس بدار العلوم

فردريك شولتهس عالم ألماني شرح أشعار أمية بن أبي الصلت ، وطبع ديوانه سنة ١٩١١ وإليه رجع أكثر الفضل في إحياء التاريخ الأدبي لهذا الشاعر المشهور . وقد كنا نشعر في أنفسنا بدافع خفي ينهانا دائماً عن الاستسلام لآراء كثير من المستشرقين فيما توفر وا على دراسته من الأدب العربي ، وكنا نهم بالانتهاك لعنايتهم المبذولة لأثار المشاركة لأنها ربما كانت ستأراً لدسيس كمين من العvisية المذهبية ، حتى صح لنا القول بأن كثيراً من الناس يخدعهم أولئك المستشرقون باتخاذ هذه المباحث الأدبية وسيلة للطعن في عقائد الشرقيين وشرائعهم ، لغلبة هذه النزعة العدائية على شعورهم الديني الذي يغريهم بالإسراف والتعويبه والافساد للحقائق . ويكفي في الاستدلال على هذه الظاهرة من التعصب أن نعرض لرأى هذا العالم في الموازنة بين أمية بن أبي الصلت وبين محمد رسول الله . وبين أشعار أمية والقرآن . يقول ذلك العالم : « إن اخراج موازنة صادقة بين أمية ومحمد يتوقف على إيجاد ديوان عربي قديم يكون جامعاً لمقدار وافر من الأشعار العربية الصحيحة ، وبفرض العجز عن تحصيل هذه الوثيقة فهو مطمئن إلى القول بأن ست مئة بيت لأمية لا يعقل أن تكون كلها منحولة أو غير صحيحة . وينكر رأى « كليمان هوار » في أن محمداً استعان بشعر أمية بن أبي الصلت . ولكنه يرى أنهما جميعاً اشتركا في ثقافة واحدة ونقلتا عن مصدر واحد . ويرفض عقيدة المسلمين في أمية محمد وعدم اتصال القرآن على هذا بأساطير أدبية قديمة ، ويجعل خلاصة آرائه في هذه الموازنة أن أمية كان أشد ذكاً ، وأبلغ أداء من محمد في هذه الرسالة ، ويتخذ القصص في شعر أمية وفي القرآن دليلاً على حظ أمية من الدقة والذكاء دون محمد ، بناء على أنه أمثلة كاملة من التاريخ أجاد الشاعر نظم فصولها ورتبها على نمط يحقق الصلة بينها وبين ما نقلت عنه من الأساطير . »

ومن العجب أن يكون هذا البحث العقيم مذهبا لغير واحد من علماء الأجناب الذين لا سبيل إلى انكار ما لهم من الجهد الفاضل على الأدب والعلم لولا هذه الآفة المذمومة . وظهر أن هذا العالم قد بدأ موازنته بالاطمئنان إلى صحة الشعر المنسوب إلى أمية في الجملة ، وأنه لا يعقل أن تكون ست مائة بيت لأمية كلها منحولة أو غير صحيحة . وهي النظرية التي يضعها العلماء والمستشرقون خاصة موضع التهمة ، وكثير من علماءهم لا يميلون إلى الاعتراف بهذا العصر الجاهلي بأسره ، ولا يقرون ما ينسب إلى شعرائه من الشعر ويزعمون أن هذه الكثرة المطلقة من أسماء الشعراء والسادة والفرسان والملوك والقبائل والأماكن والأيام كلها شبيهة بالأساطير التي لا تمثل شيئا ولا تتصل من الواقع الصحيح في شيء . ولكن هذا العالم لحاجته إلى استخدام هذه الموازنة فيما يخفيه من الغرض يعترف هنا بما ينكره في غير هذا الموضع ، ومع غير هذا الشاعر فهو يصحح نسبة أكثر الشعر المنسوب إلى أمية ، وينزهه عن الاختلاق والدس لأن الغاية كما يقولون تبرر الوسيلة . فأمية إذا شاعر صحيح النسب معروف المولد والمنشأ والحياة والشعر ، وليس ذلك مستمدا من البحث الصادق ولا مستندا إلى الدليل الصحيح ، وإنما هو أثر ما أسلفناه من الميل العصبى والغرض الدخيل . ثم يضع نفسه بعد ذلك موضع المرافع عن محمد والمخاتئ عنه في مهاجمة خصم آخر من خصوم الإسلام يزعم أن شعر أمية كان مرجعا من المراجع التي استعان بها محمد على تأليف القرآن ، فينكر هذا الرأي وكأنه يستقله في الطعن على محمد ليعود من جديد فيقول : « إن محمداً وأمياً كانا تلميذين في مدرسة واحدة واشتركا في ثقافة واحدة ونظم أمية شعره وألف محمد كتابه اعتماداً على أساطير أدبية واحدة ، فيصير دفاعه على هذه الشاكلة نوعاً من السخرية وأسلوباً من التهكم في الاستدلال على نفي الحقوة بالاثبات للخطيئة . ويقول : إن أمية محمد عقيدة فاسدة وأنه لا بد أن يكون حاذقاً بالقراءة والكتابة لعجزه عن إدراك الأسباب التي أدت إلى أن يقوم دين وتنتشر رسالة ويتأسس ملك وفتح ودولة وتاريخ بالاعتماد على فطرة رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب ، مع أن كثيراً من أفذاذ الدنيا ومن آحاد الرجال في التاريخ كان ينقصهم الاتصال

بكثير من العلوم والفنون والآداب ولم يمنعهم ذلك من بناء مابنوه لأنفسهم على عاتق الزمن من المجد والشهرة . وهذا مؤسس مصر الحديثة وباعث هذه النهضة العلمية في مصر وجاراتها محمد علي . وإلى مصر الكبير كان أميا حاول أن يتعلم الكتابة بعد سن الأربعين ، وهو قد ملأ الشرق في أيامه مجداً وعظمة ، وأزعجت جيوشه وأساطيله كثيراً من الأمم الكبرى على شواطئ البحر الأبيض ولم تقف هذه الأمية في سبيل نبوغه الفطري وصفاته الخارقة للعادة . وإذاً يكون موقف هذا العالم من أمية محمد صلى الله عليه وسلم أكثر حظاً من السخافة والخطأ من موقفه في شعر أمية .

أما ما ذكره عن القصص في القرآن وأن أمية كان أبلغ فيه أداء من محمد : فنحن نخصه بمزيد تحقيق وبسط لاحتمال خفاء الصواب في هذا البحث على كثير من غير المحققين من العلماء ، ولأن ما عداه من رأيه غير جدير بالنظر لظهور بطلانه ولتجرده من أثر التعقل الصحيح . ومن المعلوم أن القصص في القرآن وإن وجد منه شيء في الشعر أو كان متفقاً مع ما وردت به شرائع المتقدمين إنما يجيء دائماً على نمط يخالف مذاهب المؤرخين في توخيهم لسرد الحوادث ، كما هي من غير محاولة لزيادة أو نقص ، فهو يرمى إلى اتخاذ الماضي وسيلة للعبرة وطريقاً إلى تقرير قواعد النظام والتنبية إلى مواطن الانتفاع بأدق أساليب الاجتماع . وانظر إلى ذلك في قصة إبراهيم مع أبيه وقومه حيث يقول الله تعالى (وإذ قال إبراهيم لأبيه أزراً اتخذ أصناماً آلهة إنى أراك وقومك في ضلال مبين وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين) وقوله (إنى وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض خيفاً وما أنا من المشركين) وحيث يقول في سورة مريم : (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا) الآيات ، ومثل هذا النوع من المحاوراة والجدل في سورة الشعراء بين موسى وفرعون . وستعلم من هذا وأشباهه أن الغاية من نظم هذه القصص في القرآن لم تكن تأليف تاريخ ولا حكاية حال كما يفعل شعراء القصص وكتب الأساطير

وإنما الغرض هو إثارة النظر في حقائق الأديان وتوجيه الفكر إلى نشأة العقيدة والتأمل في كيفية تطورها في الأجيال الماضية والاشارة إلى تأليه الانسان القديم لكثير من الظواهر الكونية ، بسبب ما كانت تثيره في نفسه من القلق والرعب ، حتى تبين له من تغيرها وطروء الفساد عليها عدم استحقاقها للعبادة . وهو مسلك المنطق السليم في بلاغة الاستدلال وإلزام الحجة ، ويتكرر القصص ليتكرر معه ما يتصل به من العظة ويحكي من جديد ناحية أخرى من الحكمة مع الترقى إلى الإحسان والخروج عن طوق البشر بوجوه الإعجاز . ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا . ثم انظر إلى مثل هذا الصنع في قصة سليمان وبلقيس وما تضمنه من الدلالة الدقيقة على أصح ما يصل إليه الفكر . من فلسفة التشريع والاشارة الصريحة إلى أخطار الاستعمار وإذلاله لعزة الشعوب حين يحكى القرآن استشارتها للملأ من قومها بعد ما جامها كتاب سليمان بالدعوة إلى الاسلام إذ تقول : « يا أيها الملأ أقتوني في أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين ، فترى كيف وصف القرآن قيمة الأثر الناشئ من تقدير الملك لشعبه باحترام رأى الملأ من قومه وما يثيره من عواطف الطاعة المنطوية على أكمل صور المحبة من الرعية لحاكمها بما يترتب عليه طبيعة مثل هذا الجواب الحكيم فيما وصفوا به أنفسهم من القوة وشدة البأس وأخذ الأهبة الكاملة لامثال ما يؤمرون به في خلوصية ومضاء عزم . ذلك هو دستور الحياة التى تتسابق الأمم إلى صيائه واختيار الأصلاح للبقاء من أوضاعه . وجاء بعد هذا البيان البليغ بذكر بشاعة الاستعمار ووصف جرائره على حياة الأمم فى قوله : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، . وحسبك أن تكون لك عين ترى وأذن تسمع لتدرك فظائع المستعمرين فى استهلاكهم لثروات الأمم واسرافهم فى الجناية عليهم بما تقشعر منه الجلود وترتعد الفرائص له . ثم يختم هذا المقطع البليغ بقوله « وكذلك يفعلون ، تقريراً لشمول هذا الحكم لطبقات البشر على الزمان كله مما لا يعقل صدوره إلا

(٤ - صحيفة دار العلوم)

عن العالم بما كان وما لم يكن ، مما تتقلب فيه صور الحياة وطبائع الأمم . ولقد كنا في غنى عن الاستدلال على فساد هذا الوهم لولا إشفافنا أن يتأثر به نفر من المخدوعين بمباحث هؤلاء العلماء الذين يقلدونهم في نشر هذه السخافات من غير كبير نظر ، كمن لا يعلم عن نشأة الاسلام شيئاً ، ولا يعرف عن صاحب الدعوة قليلاً ولا كثيراً . وكأنهم لا يشعرون بآثار الثقافة الاسلامية في مدنية العالم الحديث . وقد اخترنا أن نذكر قصيدتين من أشعار أمية بن أبي الصلت القصصية ، ونضع إلى جانبهما ما اشتمل على معناه من القرآن لنحقق الدليل على ما أضافه هذا العالم إلى نفسه أو على ما اتصف به من فساد الذوق وخطأ البحث . والقصيدة الأولى تتضمن قصة إبراهيم ونذره لله أن يذبح أحد ولديه إسحاق أو إسماعيل قال :

ولا إبراهيم الموفى بالنذر احتساباً وحامل الأجزاء
بكره لم يكن ليصبر عنه أو يراه في معشر الأقتال
يأبى : إني نذرتك لله شحيطاً فاصبر فداً لك خالي
فأجاب الغلام أن قال فوه كل شيء لله غير اتحال
أبى : إني جزيتك بالله تقياً به على كل حال
فاقض ما قد نذرت لله واكفف عن دمي أن يسه سر بالي
واشدد الصفد أن أجد عن السكين حيد الأسير ذى الأغلال
بينما يخلع السرايل عنه فكه ربه بكبش جلال
قال : خذه وأرسل ابنك إني للذي قد فعلتما غير قالى

وظاهر من هذه الركائز في نظم القصة وما اشتملت عليه من الكلمات النائية والقوافي القلقة الفرق البعيد بينها وبين ما تضمنها من القرآن . فمثل قوله « وحامل الأجزاء » ، و « أن قال فوه » ، و « فداً لك خالي » ، وغير ذلك مما أعرضنا عن ذكره بالغ كما ترى إلى الغاية في الرداءة والتفور من صفات البلاغة والدقة المزعومة . ونحن نسوق نص الآية ونجعل له وحده بمثابة التعليق والرد على هذه الدعوة الكاذبة ، قال الله تعالى في الحكاية عن هذه القصة من سورة الصافات : « وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين . رب هب لي من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه

السعي قال يابني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى : قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين ونادياه أن يا إبراهيم - قد صدقت الرؤيا - إنا كذلك نجزي المحسنين إن هذا هو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه في الآخرين . سلام على إبراهيم) .
وهذه القصيدة الثانية يذكر فيها قصة مريم وعيسى يقول :

وفي دينكم من رب مريم آية	منبئة والعبد عيسى بن مريم
تدلى عليها بعد ما نام أهلها	رسول فلم يحصر ولم يترمرم
فقال ألا لا تجزعي وتكذبي	ملائكة من رب عاد وجرهم
نبي وأعطي ما سئلت فابتي	رسول من الرحمن يأتيك بابنم
فقلت له : أنى يكون ولم أكن	بغيا ولا حلي ولا ذات قيم ؟
أأخرج بالرحمن إن كنت مسلما	كلامي فاقعد ما بدالك أوقم
فسبح ثم اغترها فالتقت به	غلاما سوى الخلق ليس بتوأم
بنفخته في الصدر من جيب درعها	وما يصرم الرحمن ملا مريم
فقال لها : إني من الله آية	وعلمي والله خير معلم
وأرسلت لم أرسل غويا ولم أكن	شقيا ولم أبعث بفحش ومأثم

ومع أننا نظن أنه حكى في هذه القصة صورتها في القرآن فإنه تخلف في أدائها وقوافيها إلى ما يجعلها غير جذيرة بأن تقابل بكلام أهون الناس شأنا فضلا عن القرآن . فقوله « والعبد عيسى بن مريم » و « رب عاد وجرهم » و « يأتيك بابنم » و « لا ذات قيم » مع ركاكة الأسلوب وظهور القلق والضعف ، كل ذلك كاف لوضع هذا الكلام مع الأنواع الرديئة من كلام ضعفاء البلاغة . ولا نجد في الرد على ما ينسب إلى هذا الكلام من الدقة في الأداء عن القرآن أباح من سياقة نص الآيات المشتملة على هذه القصة وهي من سورة مريم .

وإذا ذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا . فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا . قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال إنما أنا رسول ربك لا هب لك بخلاما زكيا . قالت أنى

يكون لى غلام ولم يمسنى بشر ولم أك بغياً . قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً متضمياً . فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً . فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سرياً . وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً . فكلى واشربى وقري عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولى إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً . فأنت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً . يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً . فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صيياً . قال إني عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً . وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً . وبرأ بوالدنى ولم يجعلنى جباراً شقياً . والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً .

وبعد فأين الذين استجابوا لامية بن أبى الصلت أو سواه حتى يقاس برسول الله أو يضاف شعره إلى القرآن وهو لم يسلم حتى من عقوق أبنائه ، وقد شكنا ذلك فى شعره . والله قد جعل لمحمد رسوله من صماء الروحانية وقوة النفس ما كان به يحول طبائع الناس ويبدل ما فى جبلاتهم من الإيلاء إلى الطاعة ومن البغض إلى المحبة ومن الكفر إلى الإيمان ، حتى بلغ بأتباعه أنهم كانوا يحبونه أكثر من محبتهم لأنفسهم وأبنائهم ، ولقد عذبوا فى سبيله وأوذوا وقتلوا وقتلوا وأخرجوا من ديارهم ولم يزدحم ذلك إلا استمسكا به وإيماناً بشريعته ومضيا على الجهاد معه حتى بلغ الكتاب أجله ، وضرب الدين بجرانه ، وخفقت أعلام المسلمين على آفاق البلاد ، وأصبحوا قادة العالم وسادة الأرض . وما ترى الأمم الأجنبية تشجى بشئ . الآن أكثرنا تراه من تطلع الأمم الإسلامية إلى مجددهم الذاهب ، وشعورهم بالحاجة إلى استرداد عظمتهم الماضية ؟

محمد هاشم عطية

صفحة من العاطفة

بكاء العرب للشباب

بفلم الأستاذ عبد اللطيف المغربي

المدرس بمعهد التربية للبنات

الشباب من الحياة : بسمتها الواضحة . وخفقتها اللائحة ، وريعتها الموشى .
وأملها المرجى . وكوكبها اللامع . ونورها الساطع . وزهرتها الناضرة . وحليتها
الساحرة . ورمزها الصادق . وقلبي الخافق . وتحتها للوجود . ونغمتها العذبة في
أذن كل موجود . ورداؤها الضافي . ومعينها الصافي . وعبقها العطرة . وغايتها
المدخرة . ووثبها الفقيه . وأنشودتها الشجي . به تجم الأحلام . وتحلو الآلام .
وتهون الصعاب . وتحفل الرغاب . وتمرح النفس وتطرب . وينشط الجسم
وينصب . وإن شئت فقل هو الحياة . أو ليست الحياة شيئا سواه !

عرف العرب ذلك منذ عصورهم الأولى فرحوا في ظلال الشباب . ونعموا
بأيامه . وقضوه حلما رائعا حادلا بملمهم من أحلام وآمال . وسعدوا به عصرا
متدفقا بما عندهم من حقيقة وخيال . حتى إذا انحسرت بشاشته . وتقلصت ظلاله .
وأفأت نجومه . ودرست أعلامه . أشرفوا بعده على مطلع هائل . يملأ النفس
حسرة ويذكر في القاب ضرام الآسى واللوعة . مطلع وراه قرب المصير . وطى
صفحة الحياة . مطلع تنشب فيه الحرب قوية عاتية بين الرجاء واليأس .
والقوة والضعف . والعزيمة والخور . والحياة والفناء — حتى يأذن ربك بأن
تضع الحرب أوزارها في نهاية الحياة وأول مراتب الفناء — ذلك المطلع الرائع
هو المشيب .

عرف ذلك كله العرب فتأثرت به نفوسهم . وخفقت له قلوبهم . واضطرب
له وجدانهم وشعورهم . فراحوا يبكون الشباب بأصدق ما يبكي به عزيز .

ويودعونه بأجل ما يودع به راحل . وترا كضوا في ميدان ذكرياته . يتهاككون أسفا ووجدأ عليه . وتشوقاً وحنينا إليه . وجادوا بأقوال خالدة في بكاته لاتحسبها إلا ذوب العاطفة . أو مهج القلب . أو نسيج الشعور . أو ذماء النفوس . وإذا سمعت باكيهم على الشباب أو متفجعهم سرت في نفسك هزة تخامر منك شغاف القلب ، وتجري في مسالك الروح . فلا تقيمها إلا بدمعة مسفوحة . أو أنة مرسله . وأشرفت معه على الماضي المحب ملتانع النفس . مضطرب الفؤاد . جم الأسى — ولا بدع في ذلك فأنت أحد رجلين : رجل لقي المشيب كما لقيه الباكي فشرکه في مصابه ، فكأنه يصوغ خلجات قلبه ، وينظم فيض عاطفته . ويبيكي بعينه . وينطق بلسانه . ورجل تخب به الأيام . فهو يتوقع مصير صاحبه . فالنفس منه قلقه . والقلب واجف .

ولقد غنى الأدب العربي من بكا الشباب بأقوال كثيرة ممتعة يصعب جمعها ، ولعل هذه الناحية العاطفية أحفل نواحي العاطفة بالقول . وفي هذا الرأي نستأنس بقول الأصمعي « ما بكت العرب شيئا كما بكت الشباب ، ونسوق إلى القارئ الكريم بعض صور تمثل هذه العاطفة ونبدأ بها هيئة هادئة متزنة ثم نصعد بها في القوة والغنف .

(١) قال عدى بن زيد :

بان الشباب فما له مردود وعلى من سمة الكبير شهود
شيب برأسي واضح أعقبته من بعد آخر بات وهو حميد
ولقد بكيت على الشباب لو انه كان البكاء به على يعود
ليس الشباب وإن جزعت براجع أبداً وليس له عليك معيد
ترى الشاعر في قوله فزع على الشباب ولم يطل في الفزع حتى ذكر أنه لامرد له . ثم عرض للشيب فأبان أنه أضحي بديلا من الشباب المحمود . وذكر أن البكاء غير مجد وأن الجزع لا يفيد ولا يعيد الشباب على فاقده معيد . وذلك نوع من التأسي واليأس المريح .

(٢) ويقول الأصوص :

بان الشباب فما له تحويل ومضى الشباب فما إليه سبيل
ولقد أراني والشباب يقودني وردأوه حسن على جميل
وعلى من ورق الشباب وظله غصن تفرع في الغصون ظليل
بشر يكون من الحرير ولة مثل الجناح وعارض مصقول
فاليوم ودعني الشباب كأنني سيف تقادم عهده مفلول

وهذه قطعة عذبة رائعة تموج بذكريات الشباب المرحّة . وتفتر عن الفاظ رائعة تتسلسل فيها عاطفة هادئة مؤثرة . وتنتهي ببیت رائع التشبيه محكمه صادقه .

(٣) وترقى العاطفة قليلا في قول كعب بن زهير :

بان الشباب وأمسي الشيب قد أزفا ولا أرى لشباب ذاهب خلفا
عاد السواد يابضا في مفارقة لا مرحباها بذأ الشيب الذي أزفا
في كل يوم أرى فيه مبينة تكاد تسقط نفسى عندها أسفا
ليت الشباب حليف لايزايانا بل ليته ارتد منه بعض ماسلفا

وقد وصف الشاعر ذهاب الشباب واقبال الشيب وهو لا يرى خلفا من الشباب فلهذا لا يرحب بالشيب الذي خلفه والذي يرى كل يوم منه ظاهرة تكاد نفسه تسقط لرؤيتها أسفا وجزعا . وتمنى أن لو كان الشباب حايما له . وكأن رأى أن هذا مطلب عمر فتمنى أن يعود بعض الشباب إليه ، وهذه العاطفة تشعرك برحة قوية لهذا الشاعر المحزون .

(٤) ثم يأتي خشرم بن زيد البلوى فيقول :

ذهب الشباب وليته لم يذهب ونعى الشباب مخبر لم يكذب
فاندب عشيات الشباب ولا أرى مثل الشباب مفارقا لم يندب
إن الشباب أخ متى لا تلقه تنزل بساحتك المهوم وتنصب
بيننا الشباب تسرنا أيامه ونشوب لذته يعيش معجب
نزل المشيب وقال حانت عقبتى وأخال أنى سائق بك فاركب

وقد قويت عاطفة الشاعر في هذه القطعة ففزع على الشباب وذكر أن مخبرا صادقا قد نعاه فلا شك في فراقه . فدعا إلى ندبه . وذكر أن الناس غفلت عن ندب

الشباب وأنه لم ير مفارقاً مظلوماً لم ينل حظه من الندبة مثل الشباب . وصوره
أخا إذا فارق الإنسان حلت بساحته الهموم والآلام . وبيننا الإنسان معجب
بالشباب تمتع به إذ حل المشيب وقال : هذه عاقبتى فاركب فأتى سائق بك إلى وادى
الفناء . وهذه المعانى تشع منها عاطفة جزع وحزن عميقة - ولا نريد أن نسترسل
في ميدان بكاء الشباب ، فذلك مالا سبيل إليه في كلمة موجزة . ولهذا نسמעك صوتاً
للعاطفة المتقدة في بكاء الشباب ، فأرهف لها سمعك واشدد على قلبك .

(٥) قال تميم بن مقبل العامري :

يا حراً أصبحت شيخاً قد وهى بصرى	والثالث ما دون يوم الوقت من عمرى
يا حراً من يعتذر من أن يلم به	ريب الزمان فأتى غير معتذر
يا حراً أمسى سواد الليل خالطه	شيب القذال اختلاط الصفو بالكدر
يا حراً أمسيت تليات الصبا انقطعت	فلمست منها على عين ولا أثر
قد كنت أهدي ولا أهدي فعلنى	حسن المقادة أتى فأتى بصرى
كان الشباب لحاجات وكن له	فقد فرغت إلى حاجاتى الآخر
راميت شيبى كلانا قائماً حججا	ستين ثم اتضينا أقرب القتر
أرمى النجوم فأشويها وتلبنى	ثم الاناء فأغدو غير منتصر
قالت سليمان بجنب القاع من مرخ	لا خير في العيش بعد الشيب والكبر

فانظر إلى ما في هذه القطعة الخالدة التي تعج عجبنا بالآلم والحسرة وتضطرب
فيها العاطفة بألوان من الأسنى والذكريات الجميلة وكأنها صادرة من وحى نفسك
معبرة عن أصدق تفجعك على الشباب . وانظر إلى الشاعر حيث انتهى فيها إلى قول
سليمي : « لا خير في العيش بعد الشيب والكبر ، تحس الكثير مما انطوت عليه
نفس الشاعر من ألم وتفجع .

عبد اللطيف المغربي

الوقائع المصرية

للأستاذ محمود مصطفى

المدرس بكلية اللغة العربية

صحبت هذه الصحيفة « الوقائع المصرية » نهضتنا الحديثة مندبوزغ فجرها أيام محمد علي باشا ، وقدر لها أن تعيش إلى اليوم . فكانت وقد طال عمرها على غير مانعها في الصحف ، صورة للحياة المصرية ، والأدب العربي في هذه المدة الطويلة وهي قرن وتزيد .

يلد الباحث في الحياة المصرية أن يقلب صفحات هذه الصحيفة ليرى كيف كانت علاقة الحاكم بالمحكوم ، وصلة الولاة بالرعية . ويعرف تلك الروح التي كانت تسرى في الحياة إذ ذاك ، من جد وصرامة وحزم وتديير ، وليطلع على تلك الأوامر التي لا تفتقر في شأن « معامل الحرير » و « مزارع التوت » و « مصانع الغزل » ، ويرى المراسلات المتصلة بين رئاسة الجيش ومد يرى هذه المصانع في كل ما يتعلق بمطالب الجيش : من أردية وأحذية للجند ، وسروج ولجم للخيل . صفحات الوقائع المصرية على قلمها في بدء حياتها ، بحر زاهر بما كان يجري في الحياة المصرية من أمور ، وما كان فيها من تديير ، وفي كل ذلك على كثرتة ترى روح الوالي حاكم البلاد مطلة في كل تصرف ، ظاهرة في كل حادث . يعرض على مسامعه الكريمة ما يكون من أحوال الموظفين حتى صغار الكتبة . فهذا يستحق أن يزداد في راتبه مئة قرش لجهده . وذلك يقتطع منه منجما ما يكون قد بدا من عجز فيما تحت يده من مال الدولة . وذلك يقصى عن منصبه لفتور في الخدمة وتقصير في الواجب ، وغيره تدل الأيام على عظيم كفايته فيسند إليه عمل أجل مما كان يتصرف فيه . وهذا الأجير بالمياومة يشكو فتحل شكواه من غناية ولي الأمر محلا لانتقاد ويرى ضرورة إنصافه فيبلغ به غاية الرضا .

وفي هذه الصحيفة ترى أقدار الناس في مصر ظاهرة واضحة ، يدلك على ذلك خبر سيق في الصحيفة عريضا ولكنه يحمل في نفسه ما كان يحمله ذلك العصر

لطائفة من الناس من التجلة والأكابر ، فيكون ذلك الحادث أو الخبر الصغير في نظر المؤرخ مادة يبنى عليها آراءه ويشيد قواعد أحكامه على تلك الفترة من الزمن ومن ذلك ماورد في أحد أعداد سنة ١٢٤٩ هـ تحت عنوان «حوادث المشورة الملكية» وهو : « حضرة نجل الشيخ المهدي قدم تقريراً للديوان الحديوي وأحيل على المشورة الملكية ذكر فيه أن ملتزم كمر ك بولاق حجر على أشياء من ماله ليأخذ الكمر منها ولما كان أخذ الكمر من الأشياء التي تأتي بيوت أهل العلم من ملبوس وما كول غير مسبوق به طلب أن يصدر أمر للملتزم المرسوم بتسريح الأشياء المذكورة وحيث أن مساعدة أمثال هؤلاء العلماء العظام من مقتضيات الإرادة السنية حرر إشعار إلى ملتزم الكمر بأطلاق الأشياء التي عنده المتعلقة بالشيخ المومي إليه وأشعر جنابه بذلك » .

وفي هذا الخبر بيان لمقدار علماء ذاك الزمان في نظر الحكومة وما لهم من كرامة جعلت لهم هذه الميزة التي لا يتمتع بها الآن إلا الوزراء المفوضون تكريم الحكومة المصرية في شخصهم حكوماتهم التي يتبعونها وتلك منزلة سامية لعلمائنا تدل أوضح دلالة على مقدار الرعاية والعناية التي تبعتها في نفس الحكم مكانة هؤلاء العلماء بين عامة الشعب .

الغرض منه إصدار الوقائع المصرية

هو الغرض الذي تقصده اليوم أرقى الشعوب من إصدار الصحف . وقد حاولت إدارة الوقائع أن تحقق ذلك الغرض ولكن كان على حسب ماسمح به الوقت وأمكن الأسباب .

والذي يدلنا على أن تلك الأغراض قامت في نفس أولى الشأن يوم أصدروا الوقائع ، ماتراه في أول عدد من أعدادها وهو الذي صدر في يوم الثلاثاء ٢٥ من جمادى الأولى سنة ١٢٤٤ هـ الموافق ٣ من ديسمبر سنة ١٨٢٨ م . ففي كلمة الافتتاح تبين الحكومة السبب في إصدار الوقائع المصرية . ولهذه الكلمة أهميتها فهي أول قطعة أدبية أو نموذج إنشائي في لغة الصحافة العربية عامة ؛ إذ قد ظلت الوقائع إلى سنة ١٨٥٨ وليس في العالم العربي كله صحيفة سواها .

وتلك هي الكلمة (١) :

الحمد لله بارئ الأُمم ، والصلاة والسلام على سيد العرب والعجم . وبعد فإن تحرير الأمور الواقعة من اجتماع جنس بني آدم المندمجين في صحيفة هذا العالم ، ومن اختلافهم في حركاتهم وسكونهم ومعاملاتهم ومعاشراتهم ، التي حصلت من احتياج بعضهم بعضاً ، هي نتيجة الانتباه والتبصر والتدبير والإيقان وإظهار الغيرة العمومية ، وسبب فعال منه يطلعون على كيفية الحال والزمان . وهذا واضح لدى أولى الأبواب . ومن حيث أن الأمور الدقيقة الحاصلة من مصالح الزراعة والحراثة وباقي أنواع الصناعات التي باستعمالها يتأتى الرخاء والتيسير ، هي أسباب للحصول على الرفاهية وعلى الاجتناب والاحترار بما ينتج منه الضرر والأذى (كذا) خصوصاً في مصر ، بل هي أساس نظام البلدان وتدبير راحة أهلها . ففكر حضرت (كذا) أفندينا ولى النعم في ترتيب أحوال البلاد وتمهيدها واعتدال أمور أهلها وتوطيدها وفي نظام القرى والبلدان ورفاهية سكانها وراحتهم ، ووضع ديوان الجرنال قاصداً من وضعه أن ترد الأمور الحادثة الناتجة منها النفع والضرر إلى الديوان المذكور ، وأن ينتخب وينتفع فيه منها ما منه ينتج النفع والإفادة ، حتى إذا ظهر عند المأمورين نوعا النفع والضرر ينتخب ما منه تصدر المنفعة ويتجنب عنه ما منه يحصل الضرر . وهذه الإرادة الصالحة الصادرة من حضرة سعادة ولى النعم وإن كانت قد جرت في ديوان الجرنال إلى الآن إلا أنها لم تكن عمومية . إنما الآن غاراد ولى النعم أن الأخبار التي ترد إلى الديوان المذكور تنتفع ، وينتخب منها ما هو مفيد ، وتنشر عموماً مع بعض الأمور التي ترد من مجلس المذاكرة السامى . والأُمور المنظورة بها في ديوان الخديوى ، والأخبار التي تأتى من أقطار الحجاز والسودان ، ومن بعض جهات أخرى . وذلك ليكون كله نتيجة للحصول على الفوائد الحسنة التي هي مقصود ولى النعم ، وتقويماً لممارسة المأمورين الفخام

(١) يلاحظ أن كتابة ذلك العهد ظلت بلا ترقيم ولا تنسيق ، ولكتنا لم نرد أن نعرض على القارىء صورة لم يألفها حتى لا يعتب بقراءتها ، فأدخلنا على هذا القطعة الترقيم الذى هو حسنة من حسنات الكتابة فى عصرنا الأخير .

وباقى الحكام الكرام المقلدين تدير الأمور والمصالح . ومن كون هذا الشيء قد لاح فى ضمير الذات السنية ولى النعم صدر أمره الشريف بطبع الأمور المذكورة وانتشارها عموما مستعينا بالله . وقد سميت واشتهرت بالوقائع المصرية ، وبالله حسن النية .

بعضه أغراضه الوقائع المصرية

كان من بين أغراض الوقائع المصرية تقيد الأخبار الغربية عن عجائب المخلوقات وما قصدوا من إيرادها إلا تذكير الناس بقدرة الله سبحانه وتعالى وسيطرته على هذا الوجود بخاق ما يشاء كما يشاء . إنه على كل شيء قدير . ومن ذلك ماورد تحت عنوان « غريبة » من أن رجلا من أهالى بولاق لما حان وقت نتاج بقرته وتعرس ذلك عليها شق بطنها فخرج عجل له رأسان وأربع عيون وأربع آذان ولكنه لم يبق إلا ساعات ثم مات فقدده الرجل وعلقه فى محل مشهور عبرة للناظر . قالت الصحيفة : (واذ بلغ ذلك مسامع عزيز مأمور الوقائع المصرية قيد ذكر ذلك بهل فسبحان من تحير ذاته وقدرته سواء) .

مثال فى مبرائهم

وقد ورد ببعض الأعداد أن قدرى أغا أخا حسن بك القبرصى بعد أن تزوج بابة حسن أفندى الدمنهورى زعم (بخفة عقله) أن لها مالا موروثا لم تطلعه على دحياته فطالبا به فأنكرت فقتل بها بأن جدع أنفها مرة ثم استمرت منكرة فقطع أذنها وفى مرة ثالثة قطع شفتها السفلى وبدى التحقيق فاعترف المجرم بجريمتة قائلا (قد اقتديت بالشيطان وفعلت هذا) فألقى فى السجن ثم صدر الأمر العالى بأن يتنق الى نواحي بلاد الروم بعد أن طلقت زوجته منه .

المن على الأهالى

هذا غرض جسيم من أغراض الصحيفة وإن لم يذكر فى ثبوت أغراضها التى وردت فى الكلمة السابقة . فإنك تراه ماثلا فى كل خبر يرد بها حتى حركات

الوالى وانتقاله من جهة إلى أخرى يحمل فيها الأهالى عبء المنة عليهم بأن ذلك كان من أجل توفير السعادة لهم .

فإذا ذكروا أن قصر المحلة المخصص لنزول الخديو محمد على باشا محتاج إلى بعض الحجارة لبنائه قدموا لذلك بقولهم :

« إنه من حيث إن الارادة السنية هى بلا شك حصول الراحة والرفاهية للعباد ، واعتدال أمور القرى والبلدان ونظامها اقتضى السير والجولان من الذات الكريمة الى القرى الكائنة فى الأقاليم التى يمكن أن يتشرف بعضها بقدومه . فمن هذه الحيثية لزم أن تبنى قصور ومحلات لتشريفه ... ، وإذا ذكروا أن الكراءات (سفن الطين كما كانوا يسمونها) التى تعمل فى ترعة المحمودية محتاجة إلى الإصلاح . قدموا لذلك بهذه المقدمة :

« إن ترعة المحمودية التى أنشئها المهمة العلية السنية نعماً مترادفة لأجل راحة أهالى الاسكندرية ورفاهيتهم ، ولأجل تسهيل بضائع التجار الواردة والشاردة ، ولأجل تيسير أمور الحجاج فى دخولهم وخرجهم ، قد يلتصق ويتمسك بأرضها عند زيادة النيل طين ووحل كثير »

وإذا احتاج مصنع الغزل الى زجاج لنوافذه ورد فى الصحيفة التبليغ الآتى :

« إنه لتيسير أسباب التجارة وتحصيل معاش الأهالى أنشئ فبرقة الغزل فى ناحية ملوى . وقد اقتضى إلى شرايح شبايك المحلات الكائن فيها التشغيل إرسال ثمانمائة آلاف زجاجة (أى قزاة) واتضح ذلك من مأمورها الى عيد افندى ناظر الأبنية . فمن ثم أرسل له من ديوان الأبنية ثمانمائة آلاف زجاجة كما هو معلوم »

وأرى أن هذا المن أحل فى ذوقى من المن وأبرد وقعا على كبدى من البارد العذب . فهو من بخير محقق ، وتسجيل لنعمة جليلة الاثر ، فأين هذا من من بعض الناس بما لا خير فيه بل بما فيه الضرر البالغ ، والعقوق للروء والأمانة . على أنقى طبيعة الناس إنكار الجميل وجود الفضل أفلا نبيح لأهل الإصلاح

الحق والنعمة الثابتة أن يسجلوا علينا نضالهم ويعرضوا على المنصفين ولو من غير جيلهم ما قدموا من إحسان

هذا إلى أن شأن مصر مع محبي مواتها ومجدد شبابها محمد علي باشا هو شأن غير بقية الشؤون فإنه إن سكت تكلمت أعماله ولكنه ككل المصلحين يريد (كما غرس شجرة القطن بأرض مصر) أن يغرس محبته في قلوب المصريين . فلا بأس إذا مهد لذلك بالأعمال الطيبة وتفهم الناس ناحية الخير فيها والنبات الصالحة التي تقدمتها ودعت إليها .

وإني لأفهم في هذا المن معنى آخر غير كونه منا وتذكيرا بالنعمة وتسجيلا لها ، فهو قبل أن يكون منا بالنعمة كان يينا لقيمتها وتوضيحا للغرض منها . يشرح ذلك لقوم غلبهم الجهل على أمورهم ورزحوا من الماضي البشع تحت أطباق تراكب فيها الظلمات فلا يدرك أحد ما تحت قدمه لطول ما أثرت الظلمة في إضعافه . وظنى أن المصريين على عهد محمد علي باشا لو لم تشرح لهم قيمة القناطر الخيرية وميزة ترعة الحمودية لظنوها طلسمًا ولم يفهموا لها غاية .

الوقائع المصرية في نظر مؤرخ الأدب

هذا جانب آخر من الجوانب التي يستجليها متصفح هذه الصحيفة وهو جانب يطول فيه القول ويحسن التفصيل لنثبت لدارس تاريخ الأدب حقائق ترجع إلى الدراسة المعينة في هذا الأثر الجليل .

والحق أن الذي نقرؤه إلى الآن في كتب الأدب عن هذه الصحيفة لا تؤيده شواهد ولا يدل على أن قائله والحاكين به صدروا في حكمهم عن اطلاع ذاتي على هذه الصحيفة وتقليب النظر فيما وقع بأيدينا من مجموعاتها .

قرأت في بعض الكتب التي تحدثت عن هذه الصحيفة أنها كانت تصدر أولا بالتركية ثم صارت تصدر بالعربية . وهذا قول لعلم استنبطوه استنباطا من كون التركية كانت في أول عصرنا الحاضر هي ذات الشأن والسيطرة في الحكومة المصرية . وقد يكون لهذا الحكم العام نصيب من الصحة تمثل في نواح

أخرى غير الوقائع المصرية فإنها منذ أول صدورها كانت تصدر بالتركية والعربية : كانت الصفحة الواحدة تجعل نهريْن فالأيمن بالتركية والأيسر بالعربية . والذي في هذا هو معنى ما في ذلك . وهذا متجل ظاهر لأول نظرة في أول عدد . فلو أن مصدر هذا الحكم كلف نفسه الذهاب إلى دار الكتب المصرية واطلع على مجموعة الوقائع هناك ما كان منه هذا الحدس الخاطئ .

كذلك يذكرون تطبيقاً للقاعدة العامة وهي أن لغة الكتابة كانت مسجوعة محشوة بأنواع البديع وإن لغة الوقائع المصرية كانت بهذه المثابة حتى حررها من هذا الأسر الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده حين تولى الكتابة فيها وهذا أيضاً حكم خاطئ طبقت فيه النظرية العامة تطبيقاً لم يراع فيه نصيب الحقيقة والواقع . والذي يراه المطلع على الوقائع المصرية في نصف القرن الأول من صدورها أن لغتها ليس فيها شيء من التكلف الذي يبدو في لغة الرسائل أو الأدب الفني (كما يقولون) في ذلك العصر . فهي عبارة ساذجة خالية من كل تحسين لا يراد منها إلا أداء المعنى وإقراره في نفس القراء ، وإن كان يحول دون ذلك ضعف الكتاب وركه أسلوبهم حتى يلتوى عليهم القصد في حين ، ولا يستطيعوا أن يكشفوا عن كل غرضهم في كثير من الأحيان . فأنت إذا قرأت عباراتهم خيل إليك أنك أمام غبي يحاول أن يفهمك ما في نفسه ولكنه غير مستطيع الوصول إلى هذا برغم اجتهاده . ولما بدأ يكتب فيها الأستاذ الامام يحس المتبع لهذه الصحيفة أن هذا العبي قد يسر الله له القول وحل عقدة لسانه فصار يبسط لسانه في كل ما يريد ويصل في الأفهام إلى قرارات النفوس لا يترك في نفسه أو في نفس القارئ حاجة إلا أتى عليها .

ذلك ما أردنا التنبيه إليه وهو أن يعتمد مؤرخ الأدب على حكم نفسه بعد أن يكون قد تدرع بكل الوسائل لهذا الحكم من أدلة وشواهد ، فإن الله سيفتح عليه بالصواب في حكمه إن كان قد وهب له من الجدارة وحسن التقدير ما يجعله أهلاً للاستنباط .

وفي سبيل الاستدلال على أن السجع لم يكن ظاهرة التعبير في لغة الوقائع

المصرية منذ نشأتها تنقل هذا الخبر الذى حاول فيه الكاتب أن يحلّى عبارته ويزينها ويجعلها مثالا للكتابة الفنية، ولكنه لم يخطر على باله السجع. وذلك فى عدد ١٠ شوال سنة ١٢٤٨ هـ تحت العنوان الآتى:

موادّ المشورة العسكرية

لما كانت نواحي كردفان منذ ألحقت بالحكومة المصرية ودخلت تحت رعايتها قد صار أهلوها مرهقين الحال منعمين بالمال فى ساحة ظل سعادة الخديوى وكان حوالها جبال خالية من السكان قد توطن بها جماعة من الخلق اتخذوا سلوك سبيل الشقاوة ديدنا وانطوا على نية إيصال الضرر إلى الذين هم تحت الطاعة ورفيت مضرتهم واقتلعت عروقهم. ثم بعد ذلك أخذ بعض أشقيائهم يسلك سبيل الضلال وبعضهم يرتكب قطع الطريق وكانت قبيلة حلال ممن سكن هذه الجبال وخرج من دائرة الطاعة وخلع ربة الانقياد وبرز فى حومة العصيان وهم لم يقصدوا مع ذلك بالضرر، أرسل رستم بك أمير الآلاى الأول من المشاة المقيم بكردفان إلى كبار القبائل بترك هذه الأفعال القبيحة إذ هى طريق لا يسلك وفهمهم أن يشتغلوا بالطاعة والأدب حيث كان ذلك موجبا للفلاح فأصروا على عصيانهم ولم يستمعوا للوصايا الواقعة منه. فرجع الأمير المومى إليه إلى طبيعته الرسمية وجهاز سليم أغا البكباشى الثانى من الآلاى المذكور بنحو سبعمائة رجل من عسكر الجهادية أصحاب الفوز والظفر وأرسله على هؤلاء الأشرار فسار إليهم اليكباشى المومى إليه بمن معه من العسكر الموعود بالنصر متوكلا على الله ومستنداً لتوفيقه ولما أن حصلت الملاقاة تصدى للبحاربة وعلى مقتضى مظهر طالع النصر الباهر لحضرة الخديوى بامداد الله الملك القاهر وإعانتة لجيوش الجهادية ذوى الظفر ظهر نور طالع النصر الزاهر. ولما لم يكن هؤلاء الأشرار طاقة على نار العسكر المنصور ارتفعت إلى السماء زلازل فرارهم وسلك بعضهم مسلك الفرار وصار أكثرهم فى قيد الأسار، اعتبر رئيس هؤلاء الأشرار وفرغ باله من الفعل المكروه الذى ارتكبه وأرسل عمه طالبا محوسناته من دفاتر عصيان

مخبرا بادخال رقبتة فى ربة الانقياد والطاعة وأنه يئذل مائى عين ممن يصلح
لعسكرية الجهادية والتعليمات الحرية وأربعة آلاف مقطّع من القماش . ولما كان
كل من تشبث بأذيال العفو كاتباً من كان تقبل منه توبته ... فقد خلعت عليه
خلعة إكراماً له وتأميناً وتأليفاً ودخل بعون الله فى زمرة الرعية .

نعم انه بعد سنة ١٢٨٥ هـ حين طغى الأدب على الوقائع المصرية كما قلنا ظهر
السجع الى جانب الشعر . وإن كانت الوقائع لم تصبح ميدانه الواسع المجال كما
كانت روضة المدارس ترفل فى حلله فى كل ما يكتب فيها .

ومما جاء من سجع الوقائع ماورد بالعدد الصادر يوم ٥ من المحرم سنة ١٢٩٠ هـ
بشأن التهئة بالسنة الهجرية الجديدة وهو :

فى يوم الجمعة الماضى الذى هو افتتاح سنة ١٢٩٠ الجديدة الهجرية بادر كثيرون
من حضرات العلماء الاعلام والأمراء الفخام والمعتبرين الكرام الى سراية عابدين
البهية ، بالصفة غير الرسمية ، وتشرفوا بالدخول فى حضور الحضرة الكريمة والتخديوية
بناء على الرخصة السنوية وأدوا الرسوم الحسنة فى التهئة بدخول تلك السنة ثم
عادوا مسرورين ، ومن تلك الحضرة الفخيمة ممنونين . أبقاه الله الى كل عام ، بمزيد
الإجلال والإعظام . وفى ذلك ورد من يعجز اللسان عنه أن يفشى محاسن شمائله
لأنه يقف لديها كل منشى من أصبحت درر منظومه كالقلادة لجيد هذا العام
أو الوشاح للخصر ، حضرة الجنب الأكرم السيد على أبى النصر . هذه التهئة السنوية
المتشرفة بمحامد الحضرة التخديوية قال :

أراك أراك الحى تحمل غردا فهل كلما غتتك تذكر خردا

اجتماعيات العصر الماضى

ولا يفوتنا وقد وصفنا قلم الشيخ محمد عبده فى الوقائع المصرية أن تذكر مثالا من
كتابه ، ورد بالعدد ١١١٦ بتاريخ ما يوسنة ١٨٨١ تحت عنوان : « عوائد الأفراح » .

إن أبوى البعل هما اللذان يختاران في الغالب زوجة لولدهما غير ملاحظين في شروط اقتنائها غالبا إلا أن تكون من عشيرة تعادلهم في الثروة والصيت أو تزيد عنهم فيهما ، فإذا ظفروا بذلك سارعوا إلى خطبتها ، وإن كانت خبيثة الذات قيحة التريسة ، وأكرهوا الولد على قبولها إن لم يتحد معها مقصدا . ولا يخفى ما في ذلك من النتائج المضرة بالزوجين معا . ويدفعان من الصداق ما يرضى أبويها ولو حملها دينا باهظا وكلفهما حملا ثقيلا .

إذا أتى وقت الدخول بها توجهت نسوة ورجال عديدون من أقرباء الزوجة الى منزل الزوج وأخذوا ما يكفيهم من السمن والعسل والقمح والدقيق وغيره (من غير أن تأخذهم شفقة على عويل أهل المنزل وصراخهم) ليعدوه طعاما ليلة الزفاف . وبعد ذلك إذا أراد آل الزوج أن يأتوا إليه بمخطوطة تبعثهم جموع كثيرة : فئة تضرب بالسلاح ، وقوم يلعبون بالخطب ، وجماعة تتسابق على ظهور الخيل ، ولفيف من النسوة والفتيات يترنمن بأصوات يخالها السامع أنها منبعثة عن متوحشات إفريقية الجنوبية . هذا مع اختلاط الذكور بالإناث والصغار بالكبار ، حتى إذا جاءوا بيت الزوجة وأرادوا حملها على الهودج المعد لزفافها ؛ كان دون فتح القاعة التي هي فيها ، صعوبات أخفها تمتع أخيها وخادما عن فتحها حتى ينقده والد الزوج ما يرضيه من النقود ، وكذا يرضى جميع خدم أبيها وحاشيته ، وهذا هو المسمى عندهم (بلصة) وأما والدة الزوجة فإن كسوتها يعيها إليها الزوج قبل الزفاف بنحو شهر ، على شرط أن تكون مضارعة لكسوة العروسة وإلا ردت إليه وطولب بأثمن منها .

والمقال طويل فيه كما ترى عادات لم نعد نراها بل لم نكن سمعنا بها . ولكن المقام يضيق عن نشره .

مجموعة الوقائع المصرية

إن الأسف ليخالط نفوسنا حين نذكر أن مجموعة هذه الصحيفة في دار الكتب المصرية غير تامة ، بعد ما علمت من كونها مصدر حكم صادق لمؤرخ الحوادث ، والآداب ، ودارس أحوال الشعوب .

على أن هذه المجموعة مع نقصها أوفى مجاميع تلك الصحيفة في جميع المكاتب التي عنيت بجمعها، فهي أه في من مجموعة المكتبة الملكية بقصر عابدين، ومكتبة الدفترخانة بالقلعة.

والموجود بدار الكتب المصرية من سنى هذه الصحيفة هو من سنة ١٢٤٤هـ إلى سنة ١٢٤٩هـ.

وفي هذه الفترة ترى الترقية إلى جانب العربية في عدد واحد كما وصفنا. ثم من سنة ١٢٦٢ إلى سنة ١٢٦٤. وفي هذه المدة كانت الترقية تنفصل عن العربية فيصدر من العدد الواحد صورتان: إحداهما بالتركية والأخرى بالعربية. ثم من سنة ١٢٨٥ إلى الآن.

ومن سنة ١٢٨٥ تفاجئنا الوقائع المصرية بمظهر جديد. وهو الصورة التي نراها عليها الآن. وقد كتب في صدرها كلمة «الوقائع المصرية» بخط الثلث الجميل، ودخلتها العنوانات، ولم تكن بهما من قبل فصرنا نجد فيها عنوان «الحوادث الداخلية» و«الحوادث الخارجية». كما طغى فيها الأدب والشعر طغيانا ظاهرا يمثّل خاصة في المواسم من الأعياد العامة وأعياد الميلاد، ومناسبات الزواج والسفر والقدوم وغيرها من كل ما تحسن فيه التهئة. كما صارت تطبع بمطبعة بُلّاق بعد أن كانت تطبع بمطبعة القلعة.

الأدب العربي في الوقائع المصرية

قدمنا لك وصفا عاما لعبارة الإنشاء بالوقائع المصرية. وهي عبارة لم يكن يستطيع أهل هذا العصر أكثر منها في الدلالة على مرادهم، ولا أقوى في التعبير عن خليجات نفوسهم. وقلنا إنها عبارة قاصرة ضيقة حرجة يضيق بها صدر القارئ، منا حين يرى معاني كثيرة جالت في نفس الكاتب ولكنها لم تجد من ألفاظه منفذا تطل منه على الوجود. وكم يرثى أحدا لهذا البكم الذي يعانیه أهل ذلك العصر! ولعلمهم في أنفسهم كانوا معتبين بإنشائهم مدلين بقوة بيانهم تترنج أعطافهم حين يرددون تلك الأساليب الخربة المتهمة التي تحتق تحت ردمها تلك المعاني المظلومة التي لم يستطيعوا أن ينفسوا عنها خناقها.

ولكن مع كل هذا الضعف هل فات أدباء هذا الزمان الاجتهاد ومحاولة الكمال
لأنهم لم يألوا جهداً في تنقية عباراتهم من شوائب الخطأ النحوي . وتلك ظاهرة
عجيبة ، لا تكاد تعثر بغلطة نحوية مع أن ملاسبات النقص في هذه التعابير
كانت تحمل على الظن بوقوع كتابها في كثير من هذه الأغلط ، ولكنهم اجتهدوا
وأدوا ما في أعناقهم من أمانة علم النحو . وهو كل ما كانوا يعرفونه من العربية
وآدابها في أوائل هذا العصر ، وهذا اجتهاد محمود منهم .

العناية باللغة

ومن آثار اجتهادهم ومحاولتهم الكمال ما يراه المطالع لصفحات الوقائع
المصرية ، كلما مر بكلمة من العامي أو الدخيل . فانه يرى الكاتب يجتهد في البحث
عن اللفظ العربي الذي يؤدي معناها فيذكره معه ليفهم القارئ أن هذا العامي أو
الدخيل يؤدي في العربية بهذا اللفظ ، كما أنهم يضعون من عند أنفسهم وبوحي
حرصهم على العربية وتنقيتها من الأجمعي جهل طاعتهم ، ألفاظاً لمسميات أعجمية
وقد يكونون مخطئين في هذه المحاولات ، ولكنهم مشكورون مهما بعدوا عن
الصواب ، وللنيات الطيبة التي تمثلت في هذه المحاولة .

فمن ذلك تفسير الخراسان بدقيق الخزف (١) والقرازة بالزجاجة والجلالين
بالنخاسين ، والعسل بالدبس (٢) . كما وضعوا كلمة سفن الطين للكرامات ، وكذلك
المساجلة بدل الشدف (٣) .

(١) هذا خطأ فإن الخزف ما اتخذ من الطين ، أحرق بالنار حتى صار شخاراً وليس
هو المرادف لكلمة خراسان .

(٢) أرادوا بذلك الدلالة على خطأ الناس في استعمال كلمة عسل فيما يتخذ من عصير
القصب مثلاً فإن صوابه الدبس لأن الدبس عسل التمر ونحوه . فأما العسل فهو خاص
بما يجمعه النحل في خلاياه .

(٣) حقا إن الشدف ليس في اللغة بمعنى نقل الماء من التربة إلى الأرض بهذه الآلة
المعروفة باسم الشادوف والدالية يؤدي هذا المعنى اذ هي الدلو كما تؤديه كلمة منزقة

السمر في الوقائع المصرية

أول شعر تقع عليه العين في هذه الصحيفة هو بيتان ذيلت بهما أخبار عيد الفطر عام سنة ١٢٤٤ وكان أول عام أجريت فيه مراسم التشريف . فإن ولي النعم أمر أكابر دولته أن يتسربلوا بلباس كلباس العساكر وجعل لهم عشر مراتب يتميز بها بعضهم عن بعض وأمرهم أن يضعوا على كسوتهم حسب مقدرتهم ماسا وذهبا علامة على أنهم حازوا لديه شرفا . فتم ذلك ودخلوا عليه للتهنئة بالعيد وتشرفوا بلثم ذيله متعاقبين من الضحى إلى العصر منادين بهذا النداء (بارك الله فيك وأحسن اليك) وهذان هما البيتان :

إن كنت تطلب رفعة وأمانا من كيد هذا الدهر واطمئنانا
لذ واعتصم بمقام ذى الملك الذى فاق الأنام وقد علام شانا
ثم يعود الشعر فيختفى من صفحات الوقائع حتى يطفح كما قلنا منذ عام سنة ١٢٨٥ فى ١٧ رجب من هذا العام كان عيد ميلاد الخديو اسماعيل
ومن هذه التهنئات تهنئة الأديب اللبيب محمود صفوت بقصيدتين . أما أولاهما فمطلعها :

وجودك فى الدنيا حياة المكارم وجودك قد أحيا هبات الأكارم
وأما الثانية فيقول فيها :

فرى آل إبراهيم فينا بقية ومن آل إسماعيل خير الخلائف
به علم الملك الخديوى قد علا وأصبح فى ظل من الأمن وارف
فشيد ركن الدين عوداً لمن سعى وضيئاً لمن لبى وأمننا لخائف
وقد ختمت بالتاريخ على عادة أهل هذا الزمن
وفى كل فن زال أو زاد أرخوا بعهد الخديوى جاد جمع المعارف

١٢٨٥

ثم يتولى ظهور الشعر فى الوقائع فترى فى عدد آخر من هذه السنة (١٢٨٥) قصيدتين من شعر الشيخ محمود العالم فى تهنئة الشيخ العروسى شيخ الجامع الأزهر

لما ناله من تكريم الخديو اسماعيل باشا بمنحه نيشان الرتبة الثانية المجيدة
والعثمانية، فن الأولى :

لشيخ شيوخ العلم في رفعة الشأن معال بها يلتاع في كيده الشان
عروسي مصر أوحدي زمانه سلالة علم من قديم وعرفان
فأباؤه شمع الأنوف أكابر يدين لهم كل من الإنس والجان
له فن لقمان وزهد ابن أدهم وفكر إياس في فصاحة سحبان
به يتجلى أزهر العلم والتقى ومورد أهل الفقه في كل بستان
وختامها

ومولاك فاشكره وأعلن مؤرخا نشان مجیدی سلیم و عثمانی

٤١١ ٦٧ ١٣٠ ٦٧٧

١٢٨٥

وأما الثانية فيحسن نقلها كلها لما فيها من وضوح صورة الشعر وشعر العلماء
خاصة في ذلك الزمن وهي :

إن شيخ الإسلام أيده الله تعالى بالنصر والتعزيز
العروسي أوجد الناس في الفضل وأين الأنهار في الراموز (١)
فاتق الناس في العلوم بذهن يتلظى فهما وقلب جميز (٢)
فلتنبيهه بتحرير لب بهجة دونها بسيط الوجيز (٣)
من أحاديثه تشم شذا المسك وريا الكافور والشونيز (٤)
أهديت تحفة القبول إليه وتمام الإقبال في التنجيز (٥)

(١) الراموز : البحر .

(٢) رجل جميز القلب : ذكيه

(٣)

(٤) الشونيز : الحبة السوداء

(٥) يريد الإنجاز

طرزتها يد الخديو بإجلا ل فساأهى ذاك من تطريز (١)
مرسل الجود فى الوجود ومسدى كل خير من عسجد وخزوز (٢)
بنشانات رصعت بحلال من بهى الياقوت والا.بريز (٣)
فهنئاً له بها وهنيئاً بتهان وافت بمدح غريزى
فانم تاريخها ليت رقيق جامع مانع لمغنى وجيز
٤٤٢ ٤١٠ ١١٤ ١٦١ ١٣٢ ٢٦

١٢٨٥

لك شان زها وجد جليل بنشان السلطان عبد العزيز
٣٥١٥٠ ١٣ ١٣ ٧٣ ٤٠٣ ١٨١ ٧٦ ١٢٥

١٢٨٥

ويحسن أن نمثل لنوع عجيب من القافية لم نر له أمثلة كثيرة فى شعر هذا العصر ،
ذلك أن يجعل الشاعر موضع القافية صالحاً لعدة كلمات تحل إحداها محل الأخرى
ويبقى التام المعنى مع لفظ البيت ، ومن ذلك ما قاله الشيخ عبد الغنى الرافعى فى تهنته
الخديو اسماعيل بالعام الهجرى سنة ١٢٩٠ هـ ومن هذا القصيدة قوله :

أما وأياديك الكرام المواهب لأنت بهذا الدهر أكرم واهب
فكلمة القافية وهى واهب يصح أن تبدل بها الكلمات : ماجد ، كابر ، عاطف ،
كافل ، راحم ، كائن .

والبيت الثانى :

وأنت جمال العصر يا كهف أهله وأبوابك العليا حمى كل طالب
وبقية القوافى على الترتيب قاصد ، حائر ، خائف ، سائل ، قادم ، ظاعن . وهذا
فن عجيب وعناية زائدة بخدمة اللفظ فى الشعر .

(١) لا بد فى صحة قراءة هذا البيت أن تجعل كلمة خديو غيز مشبعة بالكسرة وأن
تحدف الالف من أبهى .

(٢) الخزوز : جمع خز ، ولم تكن عادة الخديو ولا عادة زمته هبة الثياب .

(٣) الذهب الإبريز ، أى الخالص .

آثر عهد الآداب بالوقائع المصرية

منذ نشطت الآداب فى أيام الحديو إسماعيل باشا ظهر أثر هذا النشاط فى الوقائع المصرية، فرأينا الشعر يكثُر فيها حتى أن بعض أعدادها يخلو من كل شيء إلا قصائد الشعراء وأقوال الأدباء فى مناسبة من المناسبات.

ولقد كان من نشاط الآداب فى الوقائع أن اتبع فيها ما كان يجرى فى مجلة روضة المدارس، من نشر كتب أدبية فى صفحات مستقلة تنشر تباعا مرقومة رقما غير رقم صفحات المجلة، حتى يستطيع من يحرز المجلة باستمرار أن يصل هذه الصفحات فتكون مجموعتها نسخة من هذا الكتاب.

اتبعت هذه الطريقة فى الوقائع المصرية، التى يظن أكثر الناس أنها صحيفة إدارية لا تعنى بغير نشر الأوامر والمراسيم فنشر بها على هذا النمط كتب كثيرة من بينها كتاب فى أربعين صفحة من القطع المتوسط. وهو رسالة من تأليف السيد صالح بك مجدى فى مناقب المرحوم رفاعه بك رافع، وهى أوفى ترجمة فيما نعلم لهذا الرجل النابغة، الذى ملأ هذا العصر مجده وآثاره. وعلى أيام الشيخ محمد عبده كان يكتب بها المرحومون: سعد زغلول باشا وقاسم أمين بك والشيخ عبد الكريم سليمان. ثم منذ سنة ١٨٨٥ م قصرت على نشر الرسميات إلى الآن. وأظن أن ذلك إنما كان لظهور صحف كثيرة ومجلات أخذت على عاتقها خدمة الأدب، فتوفرت الوقائع المصرية على نشر القوانين وغيرها من الرسميات.

محمود مصطفى

قال بعض العلوية لأبى العيناء: أنت تبغضنى ولا تصح صلاتك إلا بالصلاة على،
لأنك تقول: اللهم صل على آل محمد؛ قال: إذا قالت الطيبين خرجت منهم.